الألف كتاب (الثانى)

الجحيم

تأليف

هنرى باربوس

ترجمة وتقديم

فتحى العشرى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الجحيم

تأليف

هنري باربوس

ترجمة وتقديم

فتحي العشري



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٧

الاخراج الفنى : عفاف توفيق

طالبني نجيب محفوظ بترجمة «الجحيم» ولكنه لم يساعدني على نشر الترجمة ..

وشجعني أنيس منصور وتسلم الترجمة ، ولكنه لم ينشرها ..

وظلت الترجمة من عام ١٩٧٥ مكتملة وضالة ، الى أن تحمس لها سمير سرحان ..

فتحي العشري

هنرى باربوس

بين الجحيم والنار .. وحرية الانسان وخلاصه :

بقلم : فتحى العشرى

ولد « هنرى باربوس » فى مدينة آزونيير الفرنسية عام ١٨٧٣ ، فى السابع عشر من مايو على وجه التحديد ، لأبوين ميسورين ، فوالده كان كاتبا مسرحيا مرموقا ، وكانت والدته سليلة أسرة عريقة .. اضطر أبوه الى رعايته الكاملة رغم مشاغله ، بعد موت أمه ولم يتجاوز الصغير سنوات عمره الست ، فأخذ يوسع مداركه الأدبية الى جانب دروسه التى يتلقاها من مدرسته الابتدائية ثم الثانوية ، الى أن انتقل الى مدرسة المعلمين العليا بباريس ثم كلية رولان حتى انتظم فى جامعة السوربون متخصصا فى دراسة القانون ...

وكان « باربوس » مولعا بالأدب منذ الصغر ، موهوبا فى مجال الشعر والكتابة ، ولكنه كان يتميز دائما بالفكر والتفكير بحيث تفجرت ملكاته وقدراته فى قاعات الجامعة وأبهائها وردهاتها ، الأمر الذى لفت اليه أنظار أساتذته وجمع حوله زملاءه من الثوريين المتحمسين للعدل الاجتماعى انطلاقا من مفهوم المساواة والاخاء والحرية ، وهى المبادىء التى أصبحت دستورا للثورة الفرنسية والمجتمع الفرنسى بعد ذلك وحتى الآن ..

ومزج « باربوس » وهو ما زال طالبا فى السوربون ـ يفوز بالجوائز الأدبية وبأعلى التقديرات الدراسية ـ بين الكتابة والفكر ، بين ما يكتبه وما يفكر فيه : وبطريقة « واقعية » رغم انتشار المذاهب الأدبية المختلفة

وأبرزها « الرمزية » بزعامة فرلين ورامبو ومالارميه ، و « الكلاسيكية » التى كانت تمتد بجذورها المحافظة وقيمها الجامدة وقوانينها الصارمة .. فقد وجد أن كلا المذهبين يعيش فى الخيال والأوهام مبتعدا عن آلام الناس وآمالهم منفصلا عن أرض الوطن والعالم الذى نعيش فيه ..

وأصدر « باربوس » أول عمل أدبى له عام ١٨٩٥ ، وهو ديوان « النائحـات » الذى كان سببا فى تعرفه بالكاتب الواقعى «كاتيل مانديس» وابنته التى صارت زوجة له ، فاستطاعت بثقافتها وشاعريتها أن تساعده كثيرا وأن تسعده أكثر ..

أما الديوان الأول فقد أحدث ضجة فى الأوساط الأدبيـة ، وظن الجميع أنه يعنى ميلاد شاعر ينبىء بمستقبل باهر . ولكن « باربوس » هجر الشعر بسرعة لما أحس فيه من تعالى على رجل الشارع من ناحية والواقع الثورى من ناحية أخرى .. فاتجه الى الرواية لانها تمثل فى رأيه مرآة المجتمع ، قاعة قبل سطحه ، ولانها ضمير الشعب بكل فئاته وعلى اختلاف طبقاته . .فأصدر عام ١٩٠٣ رواية « المتضرعون » يحاول أن يمسك بالوسط الذهبى ، ذاته وذكرياته من ناحية ، ومعاناة الجماهير وتمنياتهم من ناحية أخرى ، بالنضال والكفاح ..

وفى هذا العام نفسه ١٩٠٣ أصدر « باربوس » أهم رواياته على الاطلاق « الجحيم » وفيها تتأكد موهبته ويكتمل نضجه وتتضح رؤيته ويتميز أسلوبه وتتبلور لغته ويتحدد هدفه .. وبرغم أن الرواية تكاد تندرج تحت شكل المذكرات أو الترجمة الذاتية ، الا أن البطل يتحول الى نموذج للكل .. بطل لا نعرف اسمه ، فلا ضرورة لذلك ، فهو يقول « ليست لى عبقرية ، ليست لى رسالة ، ليس لى قلب كبير ، لا شىء عندى ، لا أساوى شيئا ، ورغم كل هذا فانى أريد تعويضا من هذه الحياة » .. أن عبقريته ليست الا بالآخرين ورسالته هى رسالة الآخرين وبهم ، فاذا كان قلبه يخفق فى الآخرين ، فلا شىء يفضل الناس عنده ، وهذا هو التعويض الذى ينادى به ويطلبه من الحياة ، أن يكون دائما بين الآخرين ومنهم . .وعندما يقرر أن ينتحر كفرد ليحيا فى المجموع ، لا يشعر بأى خسارة ، بل على العكس تنتابه سعادة لا تعدلها سعادة ، لانه تحول الى انسان آخر ، انسان غيره ، انسان رمز وليس انسانا فردا .. وهو يفرض على ذاته هذا الاحساس بالجماعية رافضا فرديته ، مخفيا حقيقته ، مندمجا فى الكل .. وبدلا من أن يكون « الكل فى واحـد » أصبح « الواحـد فى الكل » ..

وقبل أن يصدر روايته الرائعة الأخرى بعنوان « النار » عام ١٩١٦ ،

نشر مجموعة قصص قصيرة بعنوان « نحن الآخرون » عبارة عن ثلاث مجموعات هى « الشهيرة » و « الرحمة » و « جنون الحب » ٠٠ وتتشابه المجموعة الأولى مع المجموعة الأخيرة فى سمة مشتركة هى الشاعرية المثالية الرومانسية على طريقة « جى دى موباسان » بينما تنفرد المجموعة الثانية والوسطى بالواقعية الشديدة التى تجنح نحو طريقة « اميل زولا » الطبيعية ٠٠

أما روايته « النار » فتدور احداثها وحوادثها حول الحرب العالمية الأولى متخذة شكل المذكرات التى سجلها الكاتب بنفسه أثناء المعارك والخنادق والاقتحام والمقاومة ٠٠ وقد قال « باربوس » عن هذه الرواية « جائزة الجونكور الكبرى » فى العام التالى لنشرها ٠٠

واختتم « باربوس » هذه المرحلة الثورية فى اطار الحرب برواية « الضياء » التى ظهرت عام ١٩١٩ تعبيرا عن فكر المثقفين ورأيهم فى الحروب بشكل عام ٠٠

وقد تنوع انتاجه بعد هذه المرحلة ، فبدأ بديوان شعر ــ بعد انقطاع طويل ــ أسماه « بعض زوايا القلب » ثم كتب رواية بعنوان « النور فى الهاوية » ثم « أحاديث محارب » ثم رواية « الجلادون » فكتاب «الاغلال» الذى ظهرت فيه أراؤه السياسية لأول مرة ، وهو كتاب ضخم يؤرخ لصراع الطبقات عبر التاريخ فى معظم أنحاء العالم ، وتبع هذا الكتاب المثير بدراسة انسانية أسماها « الحقائق » ثم ببيانه الشهير « الى المثقفين »٠

وفى عام ١٩٣٢ أصدر ما عكف عليه منذ سنوات ، كتابين عن « زولا » و « جوته » ٠٠

وفيما عدا التأليف الخالص عمل « باربوس » بالصحافة منذ مطلع عام ١٩٠٨ ، وبعد سنتين فقط تولى رئاسة تحرير مجلة « أعرف كل شىء » ٠٠ بعدها رشح لعضوية مجلس تحرير جريدة « لومانيتيه » ، ولكنه أصدر عام ١٩٢٠ مجلة شهرية ، هى التى تحولت فيما بعد الى الجريدة المسائية المعروفة « لوموند » ٠٠

وفيما عدا التأليف الخالص والصحافة الأدبية كان « باربوس » خطيبا ، يخطب فى الناس ، لا فرق عنده بين اجتماعات عامة وتجمعات ميادينية ، وفى كل الأحوال كان يدعو الى نبذ الحروب ونزع السلاح ومعاداة الاستعمار ، مؤمنا بما أسماه « الدولة العالمية » منشأ تجمعا ضم كل الكتاب الأحرار المناهضين لعبودية الانسان الداعين لانتصار الشعوب وهو ما سمى باتحاد العقليين ٠٠ ولم يكتف بذلك ، فرأس جمعية أخرى لمكافحة النازية والفاشية عام ١٩٣٣ واشترك فى جمعية استقلال سوريا

ولبنـان ونادى بتحرير باقى الدول العربية والهنـد وعدد من الدول الافريقية ٠٠ حتى انتهى به المطاف الى عقد « المؤتمر الثقافى العالمى » بباريس عام ١٩٣٥ ٠٠

ولا غرابة فى اتخاذ « باربوس » لكل هذه المواقف ، فقد جند فور اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وحارب بشجاعة فائقة ونصب عينيه السلام، فمنح وسام « صليب الحرب » بعد أن جرح أكثر من مرة جراحا غائرة وخطيرة وخاصة خلال معارك « أرتوا » و « بيكاردى » عام ١٩١٦ ٠٠ وأعفى من الجندية فى العام التالى ، ولكن أهوال الحرب وويلاتها تركت فى نفسه آثارا بليغة ، أبلغ بكثير من جراحه ٠٠ حتى أنه أطلق على قرننا العشرين لقب « عصر الدماء » بعد أن سجل شهادته فى مجموعة قصص قصيرة أسماها « شهدته بنفسى » ورواية أسماها « المؤخرة » تعد من بواكير « الرواية العلمية » اذ تخيل عالمنا وقد غمره الغاز الذى يجمد كل شىء بما فى ذالك الانسان نفسه ، بحيث لا يقدر على الحركة ولا على دفع الموت الخاطف دون أن يفرق بين حاكم ومحكوم أو بين ثرى وفقير ٠٠ وكأن « باربوس » المعروف بعدائه للقوى المتسلطة يستدعى فى داخله «شمشون» وصيحته المدوية الشهيرة « على وعلى أعدائى » ٠٠

وتوفى « هنرى باربوس » بعد معاناة فى مستشفى « الكرملين » فى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٣٥ ، عن عامين فوق الستين ، وقد فقد فيه الأدب أديبا متميزا ، وفقد فيه الفكر مفكرا بارزا ، وفقد فيه الانسان العالمى زعيما من أكثر الزعماء دفاعا عن حريته وخلاصه ٠٠

١

تركتنى صاحبة الفندق ، مدام لومرسييه ، وحدى فى غرفتى بعد أن ذكرتنى فى كلمات قصيرة بكل المزايا المادية ، والمعنوية التى يتمتع بها « بنسيون عائلة لومرسييه » ٠

توقفت منتصبا فى مواجهة المرآة وسط هذه الحجرة التى سأسكنها لفترة قصيرة أنظر الى الغرفة وأنظر الى نفسى ٠

كانت الحجرة رمادية اللون وكانت تمتلىء برائحة الأتربة ٠ رأيت مقعدين ضم أحدهما حقيبتى ، ومقعدين كبيرين بمساند هشة ، يكسوها نسيج سميك ، ومائدة مغطاة بمفرش من الصوف الأخضر ، وسجادة شرقية مطعمة برسوم الأرابيسك التى تسعى الى لفت الأنظـار والو أنها بدت فى هذا الوقت من المساء بلون الأرض ٠

كل هذا كان مجهولا لى ، مع أنى كنت أعرف كل هذا : السرير المصنوع من الموجنة المقلدة ، والتسريحة البالية ، وهذا الترتيب السىء للاثاث وذلك الفراغ بين الجدران الأربعة ٠٠

لا شك أن الغرفة مستهلكة ، وأن الكثيرين قد نزلوا بها من قبل ٠ فمن أول الباب حتى النافذة بدا واضحا ان السجادة قد وطأتها الأقدام يوما بعد يوم وأن أجزاء منها بها بعض التجويفات التى أظهرت النسيج ٠ أما النقوش فقد شوهت معالمها ولم يسلم رخام المدفأة ، فقد أصابه الأهمال هو الآخر !

ومع كثرة استعمال وملامسة الناس للأشياء ، توارت الوانها الحقيقية بطريقة تدعو الى النفور ٠

أما السقف فقد بدا كأنه السماء وقت العاصفة ، كل شيء قد اكتسى بطبقة قاتمة : مقبض الباب ومقابض دولاب الحائط والحائط نفسه الذى يقع على يمين النافذة حيث توجد أحبال الستائر ٠

كل شيء يبدو كأنه سحب من دخان ، ولم تحتفظ بلونها الطبيعى من بين هذه الأشياء جميعا سوى النافذة ٠

أما أنا ٠٠ فانسان كسائر البشر ، وأما هذه الأمسية فهى كغيرها من الأمسيات ٠

القيت بنفسى متهالكا فى أحضان أحد المقاعد الكبيرة ، فشعرت بالهدوء والراحة من حولى ، فلقد كان اليوم مضنيا : السفر منذ الصباح ، السرعة ، الاجراءات الشكلية ، وأجواء المدن المختلفة ٠

كان القرار الذى اتخذته بالمجيء من المقاطعة الى باريس يعنى بالنسبة لى مرحلة جديدة فى حياتى ، حيث وجدت وظيفة شاغرة فى أحد البنوك ، ولهذا سوف تتغير أيامى ونتيجة لهذا التغيير لم أسمح لاى من الأفكار أن تطرأ على بالى فيما عدا تفكيرى فى شخصى فى ذاتى ، فأنا شاب فى مقتبل العمر ، سأتم الثلاثين ربيعا فى بداية الشهر القادم ٠٠

فقدت والدى منذ ثمانية عشر أو عشرين عاما تقريبا ٠٠ زمن طويل ، وحدث لا أتوقف عنده ، أما من الناحية الاجتماعية فأنا غير متزوج وليس عندى أطفال ، ولن يكون عندى فى يوم من الأيام ٠

وما أن لاحت لى هذه الفكرة حتى اضطربت نفسى : فبموتى سوف تنتهى سلالة بقيت منذ فجر الانسانية ٠٠ ! وانى لأتساءل : أسعيد أنا ؟٠٠ نعم طالما لا يعترينى الحزن ، ولا تتملكنى الحسرة ، وكل شيء يسير وفق هواى ، واسترجع أيام طفولتى ٠٠ كان شعورى مرهفا حساسا ، يجيش بعاطفتى حنان غامض ، وأنفرد مع ماضى بحب عقيم وسقيم ٠

كنت أعطى نفسى نصيبا كبيرا من الأهتمام ، حتى أعتقدت أنى أسمو على غيرى من الناس ٠٠ ! لكنى فقدت كل هذا ، وطوته الأيام ، وأسدل عليه ستار العدم ٠

أما الآن فها أنذا ٠ ٠أجلس على مقعدى ، أقترب كثيرا من المرآة ، لأمعن النظر ولكن كل شيء يبدو عاديا وطبيعيا ٠

وعن قرب ، أرى عينى وكأنهما خضراوتان ، بالرغم مما كان يقال

عن لونهما الأســود وقد بدا عليهما الاضطراب الفكرى الذى لا أدرى كنهــه ٠

اننى أؤمن بأشياء كثيرة متداخلة : وجود الله والعقائد الدينية التى تميز بين الناس وتفرق بين البسطاء منهم رجالا كانوا أم نساء كما تكشف عن مدى مستوياتهم العقلية ٠

أما المجادلات الفلسفية ، فأعتقد أنها واهية لا فائدة منها ، فالانسان يصعب عليه أن يصل الى حقيقة الأشياء ٠

الحقيقة ٠٠٠ ؟ ماذا تعنى هذه الكلمة ؟ وما الذى ترمى اليه ؟ الخير والشر ٠٠ أدرك معناهما ، فلا أقترف شيئا مخلا بالمبادىء والقيم الانسانية، ولا أغالى فى شىء مهما بلغت قيمته ، ولا أبالغ فيه أيا كانت حقيقته ، ولذا فأنا أستحق القصاص ، ولو حذا كل انسان حذوى فستسير الأمور وفق ما نرمى اليه جميعا ٠

الوقت متأخر واليوم ضائع ولم أفعل شيئا حتى الآن ، لم أبرح مقعدى المواجه للركن الذى توجد فيه المرآة وقد بدأت الغشاوة تغزوها ، ويتراءى لى وجهى البيضاوى الشكل ، كأنى أسترق النظرات خلسة الى أعماق نفسى ،التى تبدو أشبه ماتكون بمقبرة ٠

آه ٠٠ يا للناس والعقل والارهاق (وأنا أنصت الى صوت المطر) ، والظلال التى انتشرت وازدادت واتسعت ، فضاعفت من وحدتى رغم كل شىء ، ثم هناك شىء ما يسبب كدرى وسأمى لكنى أجهله ، وهذا ما يضاعف من حزنى ٠

اننى مضطرب ٠ ٠ماذا هناك اذن ؟ ٠٠ لا شىء ، لا شىء سواى ٠٠ انه أنا !

اننى وحيد هذه الليلة ، ولم أكن كذلك من قبل ، ولكنى أتذكر حبى الذى يذكرنى بلطف وجه حبيبتى « جوزيت » وبما كان يصدر عنها من تصرفات خفيفة الظل ٠

عندما التقينا ، منذ وقت طويل ، خلف محل الأزياء الذى تعمل فيه بمدينة (تور » ، وحينما فغرت فاها عن ابتسامة حلوة ، وأخذت رأسها بين راحتى ، وطبعت على شفتيها قبلة ، أيقنت حينئذ أنى أحبها ٠

ولا أتذكر مدى السعادة الغامرة التى كنا نخفيها عن نفسينا ٠ بل لا أنكر أن هناك لحظات كنت أتمناها فيها كما لو كان ذلك لأول مرة ، وخاصة عندما تكون بعيدة عنى ، وأحيانا عندما تكون قريبة منى ٠

لكن الأجازات ستجمعنا ، وسنتلاقى قبل أن يلقانا الموت ، واذا واتتنا الجرأة فسنضع تلك الأيام نصب أعيننا .

الموت ...! يالها من فكرة سقيمة تطرأ على تفكيرنا ، وأعترف بأنه لا مفر منه في يوم من الأيام ، وأحيانا أسأل نفسى : هل فكرت فيه من قبل ؟ .. لا .. لم يحدث لأنى لا استطيع ، فالانسان لا يقدر على أن يواجه مصيره كما يواجه نور الشمس الساطعة ، لأن الموت مصير مظلم وغامض .

ويأتى الليل ... كما تتوالى الليالى الأخرى ... حتى يحل الليل الطويل .

وفجأة ، أنتفض ، غير متردد ، من مقعدى ، ودقات قلبى تبدو وكأنها خفقات أجنحة الطير .. ماذا هناك ؟ أنه صوت بوق يدوى ، واذا بى أرى من النافذة بعض أتباع العائلات الكبيرة ، بالقرب من مصرف الحانة ، وقد انتفخت أشداقهم وذموا أفواههم بشدة ، لقد أدهشنى هذا المنظر ، كما جذب أنظار المارة ، انه مظهر من مظاهر الصيد .

وتذكرت .. تلك الجوقة الموسيقية التى يتردد صداها بين جدران المدينة .. عندما كنت طفلا صغيرا فى الريف حيث نشأت ، كنت كثيرا ما أسمع هذه الضجة فى الطريق الى الغابة ، وفى الطريق الى القصر .. نفس الشيء ونفس المظهر الذى رأيته منذ سنوات مضت ، لا يختلف فى شيء عما أراه اليوم .. ياله من تشابه عجيب ؟

وبحركة لا ارادية ، رفعت يدى المرتعشة ببطء لأضعها على قلبى ، وأخذت أفكر بغير روية ، كالمجنون ، أفكر فى كل ما مضى ، وتوالت على مخيلتى صور لا حصر لها : الماضى .. الحاضر . .حياتى .. قلبى ، و .. أنا .

وانى لأسائل نفسى..ماذا أعددت لها فى الأيام الماضية أو الحاضرة؟! لا شيء .. بالرغم من أنى على وشك أن أبدأ حياة جديدة .

هذه الفكرة أعادت الى مخيلتى ما مضى من حياتى ، كأنى لم أعش ، وأتوق الى ما يسمى بالجنة المفقودة .

وهكذا لن يكون هناك شيء بالنسبة لى ، لن أكون سعيدا ، لا يائسا ولا يائسا وهكذا لن يمكننى الحياة ، وهكذا سأثور ، سأبتهل وأتضرع .

العمر سيتقدم بى وأنا بكامل هدوئى ، كما هو واضح اليوم ، فى هذه الغرفة التى أقام فيها الكثيرون قبلى فمنهم من ترك فيها أثرا له ، ومنهم من لم يعثر له على أثر .

هذه الغرفة ليست الوحيدة من نوعها في الوجود ، فهي منتشرة في كل زمان وكل مكان ، وهي ليست ـ كما نظن ـ مغلقة أو غامضة ، أنها واضحة كل الوضوح ، واضحة كالرياح الأربعة الكنها تائهة وسط مثيلاتها من الغرف ، كأنها شعاع بسيط في كبد السماء ، أو يوم في خضم أيام الحياة .. حالها كحالى . .أنا و . .الكون .

أنا .. أنا .. ! لا أرى سوى شحوب وجهي وعيني الغائرتين ، وقد احتضنتهما هالة من السواد ، أما ثغرى ، فهو مطبق في هدوء ، هذا الهدوء الذى سيخمد انفاسى وفى النهاية سيحطمنى .

وأتكأت على مرفقى الذى يبدو وكأنه جناح طير مبتور . آه .. كم كنت أتمنى أن يقع لى شيئا سرمديا ، فلا أستحق شيئا ، ولا استحوذ على شيء ، فليس لدى قلب كبير لأهبه ولا عبقرية فذة لأستغلها ، ولا عمل أؤديه ، وبالرغم من كل هذا ، أشتهى نوعا من المكافأة .. الحب .. أشتهى حبا فريدا لم يسمع به من قبل ، مع فتاة اذا بعدت عنها ، كأنى ابتعدت عن روحى ، لدرجة لا أستطيع معها تمييز أى شيء ، الا أن أعى ظلينا ونحن نسير جنبا الى جنب فى الطريق .

ومن جديد تطاردنى الأفكار التى لا نهاية لها ! تلقى بى فى أحضان رحلة أخرى ، رحلة شاذة تجعلنى مشتتا ، كالرحلات التى يقوم بها رجال الأعمال بمبادرة وسرعة فى عربات سريعة تدور عجلاتها كأنها الرعد متخذة طريقا تتناثر على جانبيه الأشجار بطريقة غير منظمة حتى تبدو وكأنها امرأة قد شعثت شعرها ، وتبدو المدن كأنها فى سباق مع الريح .

والمراكب والصوارى ، والأيدى العاملة التى تلقى معاملة سيئة ، والابحار بعيدا عن الأرصفة الذهبية ، وأشياء أخرى غريبة كالآثار القديمة تتراقص تحت أشعة الشمس كأنها تترنح ، وتبدو للمشاهد كأنها ترافقه وتسير معه .

لقد ساءت حالتى وأصبحت وحيدا لا أجد صديقا أركن اليه ، ويؤنس وحدتى ، تكتنفنى أركان الحجرة التى أقيم بها فى الفندق ، تلك الحجرة التى يفد اليها الكثيرون ويتركونها كما جاؤا اليها ، انى أشعر بقلبى ينزف ، وعقلى يغضب ، وكل شيء من حولى يهرب ، فلا أنيس ولا جليس ، ومع ذلك فانى أتطلع الى المجد ! مجد يخالجنى ، مجد يثير الدهشة والعجب، مجد يعوض كبريائى الجريح ، ويتحدث عنه الجميع ويهتفون باسمى تحت رحب السماء .

ثم أشعر وكأن كاهلى قد وهن ، فتلك الصور الصبيانية التى لا حد

لها تتراقص أمام مخيلتي ، وأفقد كل شيء ، ولا أجد سوى الليل الذى يطويني ٠

الوقت أعمـانى ، وعندما حملقت فى المـرآة لم أر سوى ضعفى وقصورى ، مددت يدى نحو النافذة ، فبدت وكأنها ممزقة ، ومن ركنى المظلم دفعت وجهى الى السماء ، فشعرت بقواى تخور ، فاتكأت على السرير الذى يوحى الى بشعور مبهم ، فأراه وكأنه انسان ميت ٠

رحماك يا الهى ، لقد ضللت الطريق ، حسبت نفسى عاقلا وسعيدا بما قدر لى وحسبت أنى شفيت من رغبتى فى تملك ما ليس من حقى ٠٠ ! لكن وأسفاه لم يتحقق ذلك ٠

٢

توقف صوت البوق منذ وقت طويل وخلد كل شيء للهدوء ، الطريق والمنازل ، الهدوء التام يخيم على المكان ٠ ومسحت بيدى على جبينى ، وانتهت النوبة التى اعترتنى ، واستعدت هدوئى واتزانى ، ببعض المجهود من ارادتى ٠

وجلست الى المنضدة ، وأخرجت من حافظتى بعض الأوراق التى كان على قرائتها وترتيبها ٠ هناك دافع يستحثنى على الحصول على المال لأرسل منه الى عمتى التى تكفلت بتربيتى ، والتى كانت تنتظر عودتى دائما فى المساء ، جالسة فى الصالة حيث توجد ماكينة الخياطـة التى لا ينقطع ضجيجها الذى يشبه دقات ساعة الحائط عندما تدق معلنة الوقت٠

وما أن يحل المساء حتى تضع المصباح بجوارها ، وعندما أتذكر هذا المصباح ، لست أدرى لماذا يلوح وجهها فى خاطرى ! لست أدرى ؟

هذه هى الأوراق والتقارير التى ستثبت أهليتى للعمل ، ويحددون بها قبولى ببنك « بيرتون » ، بنك السيد / بيرتون الذى يعنى الآن كل شيء بالنسبة لى ، وبكلمة واحدة منه ، يستطيع أن يتحكم فى مصيرى ، بل فى حياتى كلها !

تناولت عود ثقاب لأشعل المصباح ، ولكن العود كسر ، وتناثر منه الفسفور ، فألقيته وأنا مستاء ومكدر ٠٠٠ وانتظرت ٠٠٠

ما هـذا الذى أسمع ؟! كأن هناك شخصا يغنى بصوت خافت

هادىء قريب من أذنى ٠٠؟ كأن هناك شخصا غير بعيد عن كتفى ، يترنم وكأنه يهمس لى وحدى ٠ ٠آه اننى أهذى بلا شك ٠ ٠لقد أجهدت عقلى من كثرة التفكير ٠٠ وها هو الجزاء ٠

ان الصـدفة تلعب دورا فى حيـاتى ، بينما كنت واقفا بجوار المنضدة ، ويداى معقودتان على حافتها ، تملكنى شعور غير عادى وتراقصت أهدابى بحركة لا ارادية وكأن شيئا ما سيحدث ٠

لا يزال الترنم مستمرا لا ينقطع ، ولا أستطيع التخلص منه ٠٠ آه أن رأسى يدور ٠٠ الصوت يتسرب من الحجرة المجاورة ٠ ٠انه صوت نقى ولا أعرف لماذا هذا النقاء ؟ انه صوت غامض ، ولكنه يؤثر فى ، ولا أدرى لماذا أيضا ؟ وأتطلع الى الحائط الذى يفصلنى عنه ، وأكتم صيحة يأس كادت تفلت منى ٠

ولمحت شعاعا رفيعا وامضا ينفذ من ثغرة تعتلى الباب ، كأنها نجمة متألقة يتسرب من خلالها الصوت ، وينفذ منها الضوء الى حجرتى ٠

وصعدت فوق السرير ، واستندت بيدى على الحائط ، حتى أصبحت الفجوة الصغيرة فى مستوى نظرى ، ومن بين شقوق الخشب الذى أصابه العفن ، العفن الذى تسبب فى حدوث هذه الثغرة ، تمكنت من رؤية الحجرة الأخرى ، لكن اتساع الفجوة الذى يبلغ حجم كف اليد الواحدة وبسبب النقوش والزخارف ، لم أتمكن من رؤية أرضية الحجرة جيدا ٠٠ ومع ذلك نظرت وشاهدت الحجرة التى بدت لى وكأن الغيم يكسوها ٠

وتوقف الصوت الذى كان يشدو فى حنان ، انصرف وترك الباب خلفه مفتوحا لا يزال يهتز ، ولم أعد أرى سوى شمعة مضيئة وضعت على المدفأة ، وعلى ضوئها الخافت الذى يتراقص رأيت ، على بعد ، منضدة تبدو لى كأنها جزيرة وسط الضباب ، أما الأثاث ، فأراه خليطا من اللونين الأزرق والأحمر الباهتين ، فكان من الصعب على أن أحدد ما أرى ٠

ثم وقع نظرى على الدولاب ، وأخذت أتأمله ، فكانت مرآته ترسل انعكاسات رأسية وأفقية على السقف ، وصورة النافذة المفتوحة تبدو كأنها وجه فى أحضان السماء ٠

وعدت الى حجرتى ، أقول عدت الى حجرتى وكأنى حقيقـة كنت خارجها ٠٠ فى الحجرة المجاورة ! عدت مشدوها ، مختلط الأفكار ، حتى كدت أنسى من أنا ؟!

ألقيت بنفسى على السرير ، وتوالت الأفكار على رأسى فى لهفة عن

المستقبل ، وعن الحجرة ··· أى حجرة ؟ ليست فقط الحجرة التى أقيم فيها ، بل الحجرة المجاورة أيضا ·· سأكون مع كل من يقطنها فى كل لحظة والكن دون علمه ·

سأارى من فيها ، وسأسمعه ، وسأشاركه حياته كما لو لم يكن بيننا فاصل ، هو ذلك الباب ·

وبعد مرور لحظة من اصابتى بقشعريرة طويلة ، رفعت رأسى الى الفجوة ونظرت من جديد · الشمعة انطفأت ولكن يبدو ان هناك شخصا ما· أنها الخادمة ، بغير شك ، دخلت لترتب الحجرة وتوقفت ·· انها بمفردها ، قريبة منى ولكنى لا أستطيع أن أتحقق منها ، ربما لأنى أراها أمامى وهى لا ترانى ، كانت ترتدى مريلة زرقاء فى مثل لون السماء ، تختلط بألوان قاتمة ، ذات أكمام بيضاء ، ولكنها قاتمة بسبب العمل ، وتقاطيع وجهها غير واضحة ·· وبالرغم من أن عينيها غير مميزتين ، لكنهما تبرقان فى الظلام ، ووجنتاها بارزتان تلمعان أيضا ، وكانت تجمع شعرها فوق رأسها بطريقة تجعله يبدو للناظر اليه ، كأنه تاج متلألىء ·

لقد رأيت هذه الفتاة منذ قليل ، كانت تنظف الدرج ، كان وجهها محتقن كيديها الضخمتين القذرتين اللتين تمارس بهما أعمالها من كنس ومسح ، فكان منظرها يبعث الاشمئزاز فى النفس ، ويدعو للنفور منها ·

كنت أراها أمامى ثقيلة الظل والفهم ، وشعرها المنكـوش الذى تنبعث منه ، بل من كل جسدها ، رائحة غير مستساغة كأنها لفت فى ملابس قذرة متسخة ·

أما الآن ، فقد محا الليل القبح والشقاء ، ورغما عنى ، غير الأتربة بالظلال ، كأنه بدل اللعبة بالرحمة ، فلم يبق منها سوى طيف كالضباب ، مع دقات قلبها ورعشة خفيفة تسرى فى جسدها · ·لم يبق سواها ، هى فقط ·

حقيقة انها وحيدة ، ووحدتها شىء مقدس لا يسمع ، فى هذه الوحدة، الوحدة النقية البريئة ، وحدتها التى اعتديت عليها بعينى ، ·· لكنها لا تدرى شيئا · ·فليس هناك اعتداء اذن ·

واتجهت الى النافذة ، فبرقت عيناها ، ويداها الى جوارها غير ثابتتين على مريلتها السماوية اللون ، وعندما يقع الضوء الذى يتسرب من النافذة على شعرها ووجهها ، تبدو كأنها صورة معلقة فى السماء ·

وبعد ذلك جلست على الأريكة ووضعت مكنستها الى جـــوارها ،

فاختلفت مقاييس الأشياء فى نظرى ، من صغيرة وكبيرة ومتوسطة الحجم ، كما اختلفت ألوانها من حمراء ، وحمراء داكنة ٠

ورأيتها تخرج من جيبها خطابا تقرأه ، وبدا هذا الخطاب من أنصع الأشياء الموجودة بالحجرة بياضا ، فى هذا الجو الذى يشبه الغش ، وأمسكت بين يديها بالخطاب الذى يتكون من صفحتين ، وبحذر ، فتحته وفردت صفحتيه ، كجناحى طائر ، ثم قربت الخطاب من شفتيها ، وتمتمت ببعض كلمات ثم قبلته ٠

وكنت أتساءل ، ممن يكون هذا الخطاب ؟ هل هو من عائلتها مثلا ؟ لا ٠ ٠لأن امرأة فى مثل سنها لا تكن هذه العاطفة الطفولية لعائلتها الى درجة أن تقبل الخطاب ! أيكون منَ حبيب لها ؟ أو من خطيبها ؟ ٠٠ نعم ٠٠ هو ذاك ٠٠ وطبيعى لا أعرف اسمه ، ولكن لابد أن هناك كثيرين يعرفوه ٠٠ وهأنا أكتفى بمشاهدة دلائل الحب كأنه لم أجربه ٠

أن هذه الفعلة البسيطة ، أى تقبيل الخطاب ، فى هذه الخلــوة الرهيبة ، التى يخدشها الظلام ، توحى بشعور من التقدير والهيبة فى الوقت نفسه ٠٠ ونهضت واقتربت من النافذة وقد طوت الخطاب فى يدها الرمادية ٠

واسدل الليل ستائره فى كل المكان ، ويبدو أنها ستنصرف دون أن أعرف أى شىء عنها ، لا سنها ولا اسمها ولا حتى مهنتها التى تباشرها ، لا شىء عنها مطلقا ، لا شىء انها تنظر الى الفراغ الشاحب الذى يضمها ٠٠ وعيناها تتألقان كأنها تبكى ويشع منهما الضوء كله ، ماذا تكون هذه المرأة اذا كشفت عن حقيقتها ؟

ها هى تتجه الى الباب فىخطى وئيدة ، وللمرة الثانية سمعت صوت الباب يغلق كأن شيئا وقع على الأرض ، وانصرفت ولم تفعل شيئا سوى انها قبلت الخطاب وقرأته ٠

وعــدت الى ركنى أشعر بالوحــدة أكثر مما كنت ، كأنى قابلت انسانا ، وتركت مقابلته فى نفسى أثرا ، ولم يكن سوى انسان مثلى ٠

اذن ليس هناك أجمل وأقوى من أن يتقرب انسان الى انسان آخر ، مهما يكن من أمره ٠

لقد تركت هذه المرأة فى قلبى وفى نفسى أثرا ، كذلك الأثر الذى تتركه السفينة على المــاء عندما تمخر عباب البحر ٠٠ كيف ولمــاذا ؟

لأدرى ! ٠٠ وما هى أهميتها بالنسبة لى ؟ اليس لشخصها ، فأنا لا أعرفها، ولن يفيدنى عدم التعرف عليها ، لكن وجودها فى هذه اللحظة الأخيرة كان له وقع كبير فى نفسى ٠

ويبدو أن الأحلام الشاذة التى كانت تتعاقب على مخيلتى منذ قليل قد تحققت ، وما كنت أسميه « باللا محدود » قد وقع أيضا ٠ ٠هو ذاك الذى قدمته الى تلك المرأة دون أن تدرى خاصة عندما رأيت قبلتها المجردة٠ أليس هذا دربا من دروب الخيال الذى يخيم هنا ويعكس لنا بصيصا من نور الفضيلة ؟!

وفى مساء ذلك اليوم ، وككل يوم ، دق الجرس فى جميع أنحاء الفندق معلنا موعد العشاء ، لقد غير رنينه مجرى أفكارى ، وأخذت أهبتى للنزول الى صالة الطعام ، وارتديت صديرى مناسبا للمساء ، ووضعت حلية على رباط العنق ، ولكنى توقفت قليلا وأرهفت أذنى عساى أن أسمع شيئا : كوقع أقدام مثلا أو صوت انسان ٠

وانتهيت من هندامى ، وشرعت فى النـزول ولكن الأفكار ظلت تطاردنى ٠

ونزلت الى صالة الطعام مع نزلاء الفندق ، وكانت الصالة باهرة الأنوار ، يغلب على أثاثها اللون المذهب ، واتخذت مكانى من المنضدة ، كل شىء كان براقا وامضا ، تعلو الأصوات هنا وهناك ، ضجيج وهرج ومرج ، كثيرون من النزلاء قد اتخذوا أماكنهم ، برصانة وتمييز كرجال الطبقات الراقية ، وتتلاقى الابتسامات هنا وهناك ، أحاديث مختلفة تدور وأصوات تتقابل مع بعضها ممتزجة بالاصوات التى تصدر عن جذب المقاعد والجلوس عليها وارتطامها بالأرضية وبالمنضدة وغير ذلك من وضع الأطباق، والمفارش وما يلزم من أدوات ٠

هناك أشياء كثيرة كانت تسترعى انتباهى ، وأخرى أنفر منها : كنت أنصت الى الحديث الذى يدور بين اثنين من الجالسين الى جوارى ، حديثا مملا جعلنى أتحاشاهما وعندما دفعت عينى ، ارتطم نظرى بما اصطف أمامه من جبهات لامعة ، وعيون براقة ، وأربطة عنق مختلفة ، وخدود ، وأيدى مشغولة على المنضدة بغطائها ذو البياض الناصع ٠

لا أدرى فيم تفكر هذه المخلوقات ؟! ما هو جوهرهم وكنههم متحفظون ويحجب كل منهم الأخر ! وهذه الأنوار التى تشع من جبهاتهم وتصطبغ بالصبغة الجدية وتلك الأساور التى تحلى الأيدى ، والعقود التى تزين الصدور والأقراط التى تتدلى من الآذان ، والخواتم التى تجمل الأصابع ،

وفى كل حركة ، وفى كل اشارة ، وفى كل لفتة وكل تنهيدة تتلألأ هذه الحلى وكأنها النجوم فى كبد السماء ٠

وكانت هناك فتاة تنظر الى بعينيها الزرقاوين الغامضتين ٠٠ وماذا يمكننى عمله لمقاومة هذا النوع من الياقوت الأزرق !

الجميع كانوا يتسامرون ، ولكن وسط هذا الضجيج ، كنت أخلو الى نفسى ، فالضوء الساطع كان يبهر نظرى ، والضجيج يصم أذنى ، ومع ذلك فهؤلاء النزلاء الذين جمعتهم الصدفة ، يعبرون أحيانا عما يجيش بصدورهم ، فتمر لحظات يشعرون فيها بالوحدة ، وقد لمست هذه الحقيقة ، وشعرت بشحوب وجهى عندما عبرت أفق خيالى بعض الذكريات ٠

وكان مجرى الحديث متشعبا ، فتحدثنا عن المال ، وقد اتخذ الحاضرون منه موقفا مثاليا ، وومضت الاحلام فى العيون صافية كالماء ، وانتابهم شعور كذلك الذى انتاب المرأة عندما انفردت بنفسها فى الغرفة ، شعور بالهدوء والراحة النفسية ٠

وتطرق الحديث الى موضوع آخر ، كتمجيد البطولات الحربية ، والمفكرين ، متحمسين لكل ما يخطر لهم على بال ٠٠ بالرغم من التفاوت الذى يبعث على الضحك – فى مراكزهم الاجتماعية ٠٠ وأنا ٠٠ ! ماذا عن نفسى ! ؟ ٠ ٠

وبدا لى وجه فتاة مشرقا مضيئا ، تكسوه حمرة الدم بعد أن زفرت زفرة تنم عن الارتياح وفرط السعادة ، ربما قد مرت بخاطرها فكرة ارتاحت اليها ، وعلى مرآة وجهها رأيت نور فؤادها ٠

وتناول الحديث مسارا ثالثا عن علم الأرواح وقراءة الطالع والسحر والشعوزة والعالم الآخر ، وكان السؤال الذى يتبع كل حديث هو : « من يدرى أو يعلم ! » ٠

ومن الأفكار التى طرقها الحديث فكرة المـوت ٠٠ وعند ذكر هذه الكلمة ، لاحظت اثنين من النزلاء ، رجلا وامرأة ، ظلا طوال هذه المدة صامتين لا يتحدثان ، كأنهما لا يعرفان بعضهما وعندما سمعا هذه الكلمة « الموت » نظرا الى بعضهما ، وتسرب الشك الى نفسى بأنهما متحابان يعيشان فى أعماق ليال الحياة ٠

وانتهى العشاء ، وانتقل النزلاء بعد ذلك الى الصالة ليواصـــلوا تسامرهم ويقص كل منهم ما يعرفه ٠ ومنهم محام شاب يسرد أحداث قضية عرضت اليوم للحكم ، وكان متأثرا أثناء سرده للوقائع ، وتدور أحداث

القضية حول رجل ذبح فتاة صغيرة بعد أن اغتصبها ، وكان أثناء اقتراف جريمته يغني ويصيح بصوت مرتفع حتى لا يسمع أحد صراخ الضحية الصغيرة المسكينة ٠

وفي الجلسة اعترف هذا المتوحش قائلا « وبالرغم من ذلك فقد تناهى صوتها الى الأسماع ، فهى لم تكن صغيرة جدا ٠٠ ! » واستحوذ المحامي الشاب على انتباه الحاضرين ، وفغرت الأفواه مشدوهة ، واقترب البعيد ليكون عن كثب من المتحدث ، والجميع آذان صاغية وارتسمت على وجوههم أقصى درجات الألم لهذه النزعة المخيفة ، وخيم الهدوء الشديد على المكان ولم يكن هذا الهدوء الا نتيجة لما يعتمل داخل النفوس من انفعالات وجدانية وعاطفية هائلة ٠

واخترقت هذا السكون ضحكة ، ضحكة جافة متقطعة ، أطلقتها سيدة نبيلة ، معتقده انها ضحكة بريئة ، ولكنها فى الواقع غير ملائمة فى موقف كهذا ٠

وبعد أن أقلعت عن ضحكها ، استطرد المحامي بصورة يملؤها الهدوء، واثقا من نفسه فى تأثيره على السامعين عندما يلقى عليهم باعترافات ذلك الوحش الآدمى : « وكانت لم تزل على قيد الحياة ٠ ٠تصيح وتصرخ وتصرخ ، وحيال هذا الموقف ، أضطررت الى أن أغمد فى أحشائها سكين المطبخ حتى تكف عن الصياح » ٠

وأثناء ذلك ، قامت سيدة فى مقتبل العمر مع طفلتها وحاولت النهوض والانصراف ، ولكنها لم تقو على ذلك ، فعاودت الجلوس محتضنة طفلتها ، كأنها تحميها من مثل ذلك الوحش الآدمى ، وكان يتنازعها شعوران : رغبة ، وخجل ، رغبة فى أن تصغى الى أحداث القضية ، وفى الوقت نفسه ، خجل من التمادى فى الاصغاء ٠

وسيدة أخرى ثابتة بلا حراك ، أطرقت برأسها الى الأرض ، تذم شفتيها بشدة كأنها تدفع عن نفسها فاجعة أو مأساة ، وارتسمت على وجهها النبيل ابتسامة كأنها ابتسامة شهيد !

أما الرجال ، فمنهم من كان هادئا رابط الجأش ، وآخر كأنه يلهث ، وغيرهم تبدو عليه سمات البورجوازية ، يبذل جهدا كبيرا فى الحديث الى صديقته ، متفرسا فى جسدها ، بل تذهب نظراته الى أبعد من ذلك ، نظرة أقوى ، تبعث فى نفسه الخجل ، نظرة تحمله وزرا ينوء بحمله ويكاد يحطمه ، حتى أخذت أهدابه تتراقص بشدة ، وهذا الآخر رأيت أيضا نظرته السكرى ، ومن فمه المضطرب ، يحاول أن يتفوه ببعض الكلمات ،

وتصطك أسنانه ببعضها كأنها عازل فى دولاب آلة بشرية اذا ما وقعت العيون على الأجساد البضة التى تجرى فيها دماء الجنس الآخر ·

وهكذا ، اتخذ كل من فى هذا الحفل ، الذى طرق شتى المواضيع ، موقفا متباينا من الفسق والفجور ·

وهكذا أيضا ومنذ لحظة ، أعترفوا بما يخالجهم من شعور واحساسات، اعترفوا دون أن يدروا ، واعترفوا دون أن يعرفوا ما صرحوا به ، فقد تأججت الرغبة وومضت ثم خبا وميضها ، وخيم الهدوء على شفاهم ·

وتركت الجميع ، رجالا ونساء ، تركتهم بكل ما يتحلون به من صفات حتى ولو كانت قبيحة ، تركتهم وأسرعت الى حجرتى أفتح لها ذراعى وأقبلها ، غرفتى الوديعة الهاجعة انها أكثر حيوية من الناس الذين قابلتهم ، وعشت معهم لحظات ، ظاهرهم النفاق ، وباطنهم الرياء ، ويظهرون غير ما يبطنون ، ولهم لسان ليكذبوا به ولا يصدقون ·

٣

جن الليل ، الليل الطويل الحقيقى ، وأحاطتنى الظلال الكثيفة من كل جانب كأنها شىء جميل ناعم الملمس ، وكل شىء من حولى انغمس فى ظلام دامس ، وجلست الى المنضدة الصغيرة التى ينيرها مصباح مستدير كقرص الشمس الذى يسطع نوره فى الكون ، جلست واتكأت عليها بمرفقى لأنجز بعض الأعمال ، ولكن فى الواقع ليس لدى ما أعمله ، وما على الا أن أجلس ، وأسترق السمع ·

ونظرت الى الحجرة المجاورة ، وكانت خالية ، ولكن سيأتى أحد بدون شك ، ان لم يكن هذا المساء ، وان لم يكن غدا ، فيوم آخر ، فلابد أن يرسل القدر أحدا ·· وسيتوالى الآخرون بعضهم فى أثر بعض ، وما على الا الانتظار كأنى لم أخلق الا لأنتظر ·

وطال انتظارى ، ولم أجرؤ على الخلود الى الراحة ، والوقت متأخر ، والهدوء يعم المكان ، حتى يكاد يشل حركتى ، لما بذلته من جهد ، ومن جديد استندت الى الحائط ونظرت الى الغرفة الاخرى متضرعا على أجد أحدا ، ولم أر سوى الظلمة الحالكة التى تملأ الحجرة ، ولم أشاهد سوى المجهول ·· وعدت أدراجى الى حجرتى !

وفى اليوم التالى ، رأيت الغرفة فى وضوح نور الصباح المسترسل

وشاهدتها والفجر يغزوها شيئا فشيئا ، ونفضت الغرفة عن نفسها أنقاض اليوم السابق ، وبدأت تستيقظ ٠

ورأيت الغرفة واضحة ، مؤثثة على نفس طراز الغرفة التى أقيم بهـا ، ففى نهايتها توجد المدفأة ، تعـلوها مرآة ، والسرير على يمين الحجرة ، والأريكة على يسارها ، فالغرف هنا متطابقة ومتماثلة ، أما غرفتى فقد شغلت ، وأما الأخرى فما زالت خاوية ٠

وبعد تناول الطعام ، عدت الى الفجوة التى أصبحت شغلى الشاغل ، ولكن لا جديد وعدت وتوجهت الى باب الغرفة وفتحته ، وكان الباب كسائر أبواب الفندق ، مطليا باللون البنى والأرقام محفورة على مستطيلات نحاسية صغيرة ، وخطوت خطوتين الى الخارج ٠

وقفت على درج طويل ولكنه ضيق ، واستندت الى الدرابزين ، ولفت نظرى الحائط المنقوش كسجادة نقشت بفروع أشجار خضراء قاتمة، وسمعت وقع أقدام الخادم قادما من الدور العلوى مرتديا زيا أزرقا ، ويتأبط الجرائد الصباحية وكان هو الخادم نفسه الذى يخدم أثناء تناول الطعام ٠

وطفلة أخرى عرفت أنها ابنة مدام « لومرسييه » تصعد الدرج ويدها على الدرابزين وتمد رقبتها الى الأمام كأنها رقبة طائر ، وكنت أقارن خطواتها الصغيرة بحركات عقرب الثوانى ٠

ومر أمامي رجل وبصحبته سيدة يتحدثان ، وعندما اقتربا منى توقفا عن حديثهما حتى لا أسمعهما ، كأنهما يرفضان التصدق على بما يفكران فيه أو يتحدثان به ٠

وتتابعت هذه الأحداث الخفيفة ، كأحداث هزيلة أسـدل عليهـا الستار ٠ وهل المساء ، مملا ، وخرجت ينتابنى شعور بالوحدة أثناء تجوالى داخل الفندق أو خارجه ٠

وأثناء سيرى فى أحد الممرات الصغيرة ، شاهدت بابا يغلق بسرعة وتناهت الى سمعى ضحكة من امرأة كأنها فوجئت بشيء ما ٠ وأنـاس يهرعون وأناس يتدافعون ، وضوضاء ليس لها معنى ٠

واجتزت الدرج الى قاعة الجلـوس ، حيث المناقشـات لا تنتهى ، واتخذت مكاني بجوار بعض النزلاء الذين يتفوهون بعبارات وكلمـات لا أذكرها ، وانصرفوا ، وجلست وحيدا بمفردي ، وسمعتهم يتناقشون أيضا فى الممر القريب من القاعة الى أن خبت أصواتهم ٠

وهذه سيدة تدخل ، رشيقة وأنيقة ، متعطرة ، تخب فى الحرائر ، ونالت اعجاب الكثيرين لأناقتها ورشاقتها وعطرها النفاذ ووجهها الجميل الذى تزينه نظراتها الحلوة ولم استطع التحقق منها ، لأنهـا لم تلتفت ناحيتى ٠

وجلست هذه السيدة ، وتناولت كتابا ، وأخذت تتصفحه وانعكست صفحات الكتاب البيضاء على وجهها ، فأضفت عليه تألقا واشراقا ٠

وكنت بين الحين والحين ، أختلس النظرات الى صدرها الذى يعلو ويهبط ، ووجهها الثابت ، والكتاب الذى بين يديها ، وثغرها الدامى ، وبشرتها الناصعة ، كنت أتأملها من أخمص قدميها الى شعر رأسها ، هذه السيدة المجهولة ٠٠ ! كنت أتأملها بأسف عظيم ، وجمالها يبعث فى نفسى الحزن ، ومجرد وجودها يهدهدنى ، ويريحنى ٠

ان المرأة لا تلاطف رجلا الا اذا كانت وحيدة وقريبة منه ، ومهما يكن نوع الفراق فبداية السعادة بينهما يسبقها دائما شىء من الرهبة ٠ ولم تلبث هذه السيدة أن انصرفت وانتهى كل شىء عنها ، ومر ذلك سريعا وواقعيا ٠

وهذا اليأس الحلو الذى لم أشعر به من قبل يؤرقنى لقد تغيرت منذ الأمس ، الحياة الانسانية والحقيقية الحية ، لقد عرفتهما كما يعرفهما الجميع ، كنت أمارسهما منـذ خروجى الى الدنيا والآن يتملكنى شعور بالايمان ممتزجا بشىء من الخوف ، الخوف الالهى ٠

وصعدت الى حجرتى فى هذا الوقت الطويل الممل ، ومع ذلك فقد حل المساء ، ومن نافذتى أخذت أتطلع الى السماء ، السماء الذى تسلل الليل اليها ، الليل الجميل ، جميل سواء نظرنا اليه أو لم ننظر ، ورأيت الجموع التى تنفض على قارعة الطـريق ، والمارة يعـودون أدراجهم الى مساكنهم ٠

وأرهفت أذنى لأسمع شيئا من الحجرة المجاورة ، سمعت ضوضاء خفيفة صادرة من الناحية الأخرى للمزلاج ، وتوجهت الى الحائط ، وكالعادة، نظرت من الفجوة واليوم كالأمس يخيم الغيم على الأشياء ، ولكن هناك امرأة ، امرأة غامضة ٠

واقتربت من نافذتها ، كما فعلت أنا منذ قليل ، فكل انسان وحيد ، أو يشعر بالوحدة ، يقيم فى غرفة بمفرده كثيرا ما يفعل ذلك ٠

انى أراها ، أراها أكثر فأكثر ، حتى تعودت عيناى عليها ، تبدو واضحة ، ويخيل الى أنها ستتجه نحوى ٠

نحن الآن فى بداية الخريف ، ومع ذلك كانت ترتدى ثوبا فى لون الفسق ، وترتديه النساء عادة فى أيام الشمس الساطعة ، ويضفى عليها الشعاع الذابل الذى ينبعث من النافذة بانعكاس خافت يميل الى الظلمة ، فبدت كأنها حورية من حوريات القصص الخيالية ٠

ومن خلال الفجوة ، هبت على نسمة تجمل أريج عطرها ، عطر الزهور ممزوجا برائحة كرائحة البخور ، وعرفتها من رائحة عطرها الذى يميزها عن غيرها من النساء ، كأنه اسم لها ، عرفت فيها السيدة التى كانت تجلس بجوارى منذ قليل فى القاعة وانصرفت دون أن أعرف عنها شيئا ، والآن ٠٠ ها هى خلف الباب الذى أنظر منه خلسة ، ها هى ٠٠ قد أصبحت فريسة لنظراتى ٠

شفتاها تتحركان ، ولا أعرف اذا كانت تحدث نفسها أو تتمتم بشىء ، أم انها تترنم ببعض الألحان ؟

هاهى ، هناك ، أرى أنعكاس صورتها فى المرآة ، تقف بجوار النافذة ذات الضوء الحزين ، ها هى هنـاك بشحمها ولحمها ، وبوجهها الوضاء المشرق ٠٠ تزينه نظراتها أينما وجدت ٠٠ وتستند الى النافذة برأسها الذى تحمله رقبة بيضاء جميلة ، كأن يد فنان ماهر قد صنعتها ، فبدت سابحة فى ظلال تميل الى الزرقة الباهتة ، وكأن أفكارها التى تهيم فيها ، أفكار فى مثل لون السماء ، وتتراقص على خصلات شعرها هالة هزيلة من النور المنبعث من الخارج ، فأظهر لونه الذهبى الجميل ٠٠ ثغرها ٠٠ يدها التى تستند الى النافذة ٠٠ خصرها النحيل كل شىء يميل الى اللون القاتم ، أخضرا كان أم أزرقا ٠

سيدة مجهولة لا أعرف عنها شيئا ٠٠ كأنها بعيدة عنى كما لو كان بينى وبينها أجيالا ودهورا تفصلنا ، كما لو كانت قادمة من العالم الآخر ٠

ومع ذلك ، لا يوجد بيننا شىء ، فأنا معها وقريب منها وتجعلنى أشعر بانشراح يمتزج به الخوف ٠٠ يخيل الى أن أمد لها يدى لأقبلها ، اننى رجل كسائر الرجال ، والكنى للأسف أتأثر بأول أمرأة اقابلها ٠

وتلك المرأة مثال خالص للمرأة التى نرنو الى حبها ، تلك المرأة التى لا نعرفها للآن والتى سنعرفها ، تلك المرأة التى تعد أعجوبة تعيش على وجه الأرض ٠

وكسحابة متعددة الاشـكال ، كانت هذه المرأة تروح وتجىء فى الغرفة ، أسمع حفيف ثوبها وهى رائحة غادية أبحث عن وجهها كما أبحث عن نجمة فى السماء ولكن ٠٠ لا أرى وجهها ، ولا أفكارها ٠

وحاولت أن أصل الى تفسير لحركاتها ، كانت الأفكار تهرب منى ٠٠ اننى قريب منها ولا أعرف ما تفعل ٠٠ ! ومن يفعل شيئا فى الخفاء ، أو بعيد عن العيون ، فهذا دليل على أنه لا يعنى ما يفعله ٠

أغلقت باب غرفتها بالمفتاح ، حتى تخلو الى نفسها ، ودون شك ، جاءت الى الغرفة كى تغير ملابسها ٠ ٠لن أحاول أن استرسل فى شرح الظروف التى أتت بها الى هنا ، كما أنى أطالب نفسى بتقديم حساب عن الجريمة التى أقترفها بعينى فى حق هذه المرأة ٠

ان الصدفة قد جمعتنا ٠٠ أعرف ذلك ، ولكنى أتمنى من كل قلبى، ومن أعماق نفسى ، ومن صميم حياتى أن تكشف لى عن نفسها !

يبدو عليها التردد ، تحاول جمع شتات أفكارها ٠٠ وأتصور أنها تنتظر أن ينشر الهدوء جناحيه فى كل مكان ، ويأوى كل الى داره ، حتى يمكنها أن تخلع ملابسها ، فهى لم تزل تشعر بالهواء يلفحها ، وكأن عيون المارة تختلس اليها النظرات ، لعلها تحتمى بين جدران حجرتها التى تأويها وتحميها من مثل هؤلاء ، حتى تطمئن الى نفسها وتخلع عنها ملابسها ٠

وسرنى ما لمسته فيها من أفكار عذرية شهوانية ، وشعرت بالرغم من الحائط القائم بيننا ، أن جسدى يميل الى جسدها ويحن ، واتجهت الى النافذة ، ورفعت يديها وجذبت الستائر وأسدلتها ، فاحتضن الغرفة ظلام تام ٠

لقد فقدتها ٠٠ يا له من ألم شديد قد أصاب كيانى ، كأن الحياة قد نزعت منه ٠٠ ولبثت هناك فاغر الفم ، متألما ، أتحين الفرصة وسط هذا الظلام الذى يختلط بأنفاسها ٠

وشعرت بها تتحسس باحثة عن شىء فى هذا الظلام ، وخمنت ، وشاهدت نورا يصدر من عود ثقاب بين أناملها فوضحت صورتها شيئا فشيئا ، وبزغ بياض يديها الهزيلتين وجبينها ورقبتها ، وبدا لى وجهها كوجه حورية ٠٠ ولم تتح لى الفرصة كى أميز ملامحها الدقيقة فى ضوء عود الثقاب الضعيف ٠ وركعت على ركبتيها أمام المدفأة ، وألقت بعود الثقاب بين قطع الخشب ، دون أن تنير المصباح فكان الضوء الوحيد فى الغرفة هو ذلك الضوء الصادر من أسفل ٠٠ من المدفأة ٠

وتأججت نار المدفأة ، وغدت كشمس غاربة ، تروح أمامها السيدة وتجىء ، أسمع صوت حفيف ملابسها ، كحفيف النسيم لأوراق الشجر ٠

كنت أراها تتحرك بقوامها الممشوق الأهيف ، كأنها طيف ، وظلها

يتسلق الحائط ويرتفع الى سقف الحجرة ، حيث تتراقص ألسنة النيران المندلعة من المدفأة فيبدو كأنه ملتهبا وتلاحقها أينما ذهبت ولكنها تحتمى فى ظلها ، وينسدل من حولها الثوب حزينا ، وجلست على الأريكة فأصبحت فى مواجهتى تماما ، وسبحت بنظرها فى أرجاء الحجرة ·· وتمر لحظات تتلاقى فيها نظراتنا ولكن دون أن نشعر أو نرى بعضنا ··

وأحيانا تنبعث من عينيها نظرات حادة ، نظرات فاحصة ، نظرات حادة ، ثم يرتخى ثغرها وينفرج عن ابتسامة خفيفة كأنها ارتاحت الى فكرة خطرت لها ، أو وجدت لها حلا ·

وأرى فمها ووجهها ، شيئان مجردان ، ثغرها أحمر قانى ، كقلب دامى ، انه جرح ، جرح أن ترى ثغر امرأة ·

وبدأت أشعر بالرعشة تسرى فى جسدى بسبب هذه المرأة التى ينفغر فاها عن ابتسامة قانية ·· وعانقت الأريكة ردفيها العريضين الدافئين ، عناقا حارا ، ودنت ركبتيها البضتين من بعضهما حتى اتخذ جسدها شكلا يشبه القلب ·

وتمددت على الأريكة مستندة بنصفها الأعلى الى المسند ، ومدت قدميها فى مواجهة نار المدفأة ، ورفعت رداءها قليلا بيدها حتى كشفت عن ساقيها يغطيهما جوربا أسود ·· وصاح لحمى ينادى ، وكأن قضيبا من الحديد الساخن يلهبنى ·· انها النار ·· نار الشهوة ·· انه شعور اللذة ·

ولويت أصابعى ، ونظراتى الممزقة تتساقط على جسدها الممدد أمامى ، وجبينها مضىء وسط الظلام ، وهى تتثاءب متثاقلة ، بينما نظراتى الدامية تزحف على الأرض ، متجهة نحوها ، وعندما تصل اليها تحتضنها ثم تلتهمها ·

وانسدل الرداء ثانية على ساقيها ، وعادت كما كانت ·· لا ·· لم تعد كما كانت لأنى جرحتها بنظراتى ·· لقد رأيت جزءا من لحمها الحى البض المحرم ، اننى أقف دائما بالمرصاد لهذا اللحم ، فى كنف هذه الظلمة التى تغمر غرفتينا ··

وانحسر ثوبها ثانية عن ساقيها ·· لقد صدرت منها هذه الحركة التى يحبها الرجال ، بل يعبدونها ، كحبهم وعبادتهم العقيدة دينية كتلك التى يبتهلون ويتضرعون لها كأنها هدف أو مأرب يسعون الى تحقيقه ·

وللمرة الثانية ، نهضت من رقدتها ، وتهاوت فى الغرفة ، وشعرت بحفيف ثوبها كأجنحة طير ترفرف بين أحشائى ·· أما نظراتى فقد تركت

كل شيء فيما عدا شيء واحد ·· تركت وجهها البريء براءة الطفولة ، ونظراتها الساهدة ، وابتسامتها الهادئة ، نحيت كل هذا جانبا ولم أشته سوى دماءها ·· دماءها ·

وحاصرتها نظراتى من كل جانب ، حتى لا تهرب منها ، حاصرتها كما تحاصر النيران ضحيتها ، لكن نظراتى لا تصل الا الى قدميها ، وبلطف تداعب أطراف ثوبها ، وتخدشها كما يخدشها لهيب النيران الصادرة من المدفأة والتى تتصاعد الى السماء فى جداول صغيرة ·

وها هى تكشف لى الآن أكثر من ذى قبل ، كشفت لى عن أكبر جزء من جسدها ، لقد وضعت احدى ساقيها الرقيقتين السجينتين داخل حذائها المكشوف وجوربها الحريرى الطويل ، وركبتيها الدقيقتين ، وسمانتيها البضتين المتلثتين قليلا ، كثمرتين ناضجتين على كاحلين رشيقين ·

وشاهدت أعلى ردفيها حيث ينتهى الجورب ·· يا له من كأس أبيض جميل تحجبه غيوم ·· لم أتحقق جيدا مما أرى ، هل هو لحمها الحى الناضج ؟ أم ملابسها الداخلية الرقيقة الجميلة ؟ لم أدقق النظر جيدا لاختلاج نور المدفأة ·

وكنت أسائل نفسى ·· هل هذا الذى أراه ، هو كل شيء ؟ أم جزء منه ؟

ثلاثة يتنازعون هذا الجسد شبه العارى ·· نظراتى والظلال التى تخيم على الغرفة واللهب الذى يتراقص فيها ·

ان عينى لتتعذبان ، وجبهتى وراحة يدى وصدرى يستندون الى الحائط محاولين عبوره أو اختراقه أو تدميره ، حتى أتمكن من رؤية الأشياء واضحة جلية ، لأرى أكثر ، وأفضل ·

وغمرنى هذا الليل الطويل ، ليلها ، تحت رفرفة أجنحة ثوبها المثير ، الذى يبعث الدفء ويبعث الرهبة ، وفى حركة من حركاتها ، انفرج سروالها عن فتحة عريضة مظلمة حيث ألقت نظراتى بنفسها بعد أن أصبحت حمقاء محمومة ·· كأنها عثرت على ضالتها المنشودة فى هذه الفتحة الظليلة ، فى هذا الظل العارى ، محور جسدها ، فى وسط ملابسها الدقيقة هذا الظل الذى يتبخر بخفة حاملا شذاها ، كسحابة من البخور تتوسط جسدها ·· هذا الظل الذى يعتبر مأربا ومنالا لا حد لهما ·

مر الوقت وأنا ما زلت مستندا الى الحائط أمام هذه المرأة ، أستعيد ما بدر فيها من حركات وسكنات ، تلك المرأة التى تتخذ وضعا تتجلى فيه

عفتها ووحدتها ، أمام نظرات رجل مشدوه ، جذبته هذه العفة ، وشدته هذه الوحدة ٠

انطفأ لهيب المدفأة فى اللحظة التى همت أن تنضو الثوب عن جسدها ، فلم أتحقق منها ، ومرت اللحظة التى طالما تمنيتها ، انقضت فى الظلام ، هذه اللحظة التى كنت أعدها عيدا كبيرا لى ولها ٠

رأيت نصفها العلوى فارعا لا يرحم ، بجماله الشاحب ، بطىء الحركة ، يصدر عنه صوت خفيف عذب ، صوت مهدهد دافىء ووقع نظرى على ذراعيها كأنهما شعاع هزيل ، ومن حركات ذراعيها الرخوتين ، عرفت أنهما عاريتان ٠

وكانت تلقى بالملابس التى تخلعها فى خفة وبطء على السرير قطعا رفيعة حريرية ناعمة الملمس ٠٠ ها هو الكورسيه الذى كان يحتضن جزءا من جسدها ٠٠ وفتحت الجونلة القاتمة وتركتها تنساب حتى قدميها ، فأضاءت ما تحتها بضوء باهت فى أعماق الظلام ٠٠ ولما نضت الثوب عنها بدت كزهرة متفتحة ، واستطعت أن أتحقق من ساقيها ٠

هذا ما اعتقدته ، ولست أدرى ان كان حقيقة أم لا ، فعيناى لم تسعفانى ، ليس فقط بسبب الظلام ، بل أيضا لما أصاب قلبى من ظلمة وخفقات ومن دياجير حياتى ، انها ليست كعينى التى تلاحق هذه الصورة السامية ، بل انه ظلى الذى يتقابل مع ظلها ٠

وما راعنى شىء منها وملك على احساساتى مثلما راعتنى (بطنها) ، أكثر من ثدييها وساقيها ! لقد نبهت شعورى فطرحت وجهها وأفكارها جانبا ، وأصبحت هى كل ما أشتهيه هى كل ما أحاول الحصول عليه ، فيها خلاصى وفيها منجاتى ٠٠ بطنها ٠٠

ان نظراتى تتقلص كيدى ، تنادى بكل كيانها ٠٠ أشتهى بطنها ٠٠ لا القوانين التى سنت ولا الملابس التى ترتدينها ، تستطيع أن تحميك من نظـرات الذكور التى تندفع وتتسلل خفيـة تلبية لنداء الجنس ، نظرات كأنها أفعى تسعى مندفعة الى جحرها ٠٠ ليس لى من هذه المرأة سوى جاذبيتها وأنوثتها ، فهى لى بمثابة جرح غامض وقلب دامى وقيثارة ناعمـة ٠

أما الرائحة التى تفوح منها فلها مصدران : أولهما العطر الصناعى الذى تتزين به ، وثانيهما الرائحة المنعمة التى تنبعث من كيانها قوية ، نفاذة ، عنيفة ، كتلك الرائحة التى نتنسمها من البحر ٠

انها رائحة الحب ، رائحة الوحدة ، رائحة الدفء والحرارة ، رائحة السر الذى يطوى أحشاءها ·· وعيناها المحتقنتين كالشفاه الشاحبة ·· وثغرها وثغرى يتلاقيان فى قبلة طويلة ، قبلة طويلة لكنها عقيمة ·

وتسرى فى جسدى أحيانا رجفة ، وينتابنى شعور قوى ورغبة جامحة فى أن ألمسها أو أحطم الحائط الذى يقف بيننا حائلا ·· أو أترك غرفتى وأقتحم عليها غرفتها فى خلوتها هذه وألقى بنفسى فوقها ·· ! لكنهـــا تجلس صـــامتة بلا حـــديث ، هادئة بلا حـــراك ، ساهمة واجمة فى لا شىء ·

لا ·· لا ·· لا ·· هتف بى هاتف وأعادنى الى صوابى ، واستولى على خوف عميق وتوالت على مخيلتى صور هذا العمل الشائن ، وسرت فى جسدى الرعشة المعهودة ·

وسرعان ما تولدت فكرة أخرى ، وحلم يمزق جسدى فربما هى أيضا فى نضال مع مثل هذه الأفكار ، أو لأنها أمامى يخيل الى أنها مثلى ، تائهة مع نفسها وأفكارها !

لا ·· لا ·· انها فتاة قبل كل شىء ، والفتيات لا نحصل منهن على كل ما نبتغيه فمن السهل واليســـير ، وفى أى وقت ، تجـــد امرأة بين يديك تفعل بها ما تشاء ، فمثل هذه الفحشاء معروف ثمنها ، كما توجد أيضا بيوت حيث يستطيع كل منا أن يقض الليل مع امرأة مقابل مبلغا من المال يدفعه ·

ولكن الأمر هنا يختلف لأنها فتاة ·· وفتاة غير عادية ·· تنفرد بنفسها فى خلوة ملائكية ·

يجب على أن أضع هذه الحقيقة نصب عينى ، واذا كـــانت هذه الأفكار تتسلل الى ، ذلك لأنها بعيدة عنى ويفصلنى عنها حائط ممزق ، وتزيدها الوحدة تألقا واشراقا ، لكنها بعيدة المنال ، وهذا الوحى ما هو الا نتيجة لحقيقة واحدة هى حقيقتها كعذراء ·

والعزلة التى تعيش فيها بعيـــدة عن العـــالم تظهـــرها من خلال فضيلتها ، فلا هى تستسلم أو تبيح نفسها ، فتبدو كأنها تحفة رائعة ، ، أو تمثال بارع الجمال ، أو كلحن موسيقى جميل ·· طبيعتها لا تتغير ، تظل لابثة فى هدوء ، وهى على شفا هاوية ·

يا للأسف ·· كل شىء يجذبنى ويمنعنى من الاقتراب من بائس لا مفر له من أن يكون لصا أو أن يكون ضحية ·· ولا مفر لى من أن أظل أتمنى وأشتهى ، وما على الا أن أتمادى فى رغباتى وأحلامى وآمالى ·

ومنذ برهة ، أشحت بوجهى بعيدا عن الفجوة ، ان الخيار بين شيئين لمهمة شاقة ، فمن هذه الفجوة « اللامحدودة » أقلعت عن الاستماع الى الضجة الخفية الحلوة التى كانت تصدر منها ٠٠ ماهذا ؟ هل جننت أنا ؟ ٠ ٠لا ٠٠ انها الحقيقة نفسها هى التى أصابها الجنون ٠٠ !٠

واستعدت قواى وقهرت جسدى وأفكارى ، وكبحت جماح ضعفى وشهوتى ، وهدأ لحمى ، وامتنع عن الأحلام ، ومن فوق أنقاضى ، بدأت أنظر ثانية ٠

كم هى رحيمة بى ! لقد ارتدت ملابسها وأخفت كل شىء والآن أضاءت المصباح وارتدت ثوبا ، وحجبت عنى ما تحجبه عن الآخرين من اسرار ، وعادت الى حداد حياتها وعفتها ٠٠ مع بعض التصرفات المشتتة المبعثرة ٠

هاهى تقف أمام المرآة ، متخذة عدة أوضاع مختلفة ، منها الصالح والطالح ، فمثلا تضع بعض الأصابع الحمراء على أذنها ثم تمحوها ، كأن تقف بطريقة مغرية أو بطريقة أخرى وتبتسم اذا ما راق لها وضع من الأوضاع التى تجربها ٠ ٠ابتسامات ٠٠ وحركات اغراء ٠٠ وحياء وغيرها ، كلها تتسم بطابع واحد يزيدها جمالا : هو طابع الوحدة ٠

وكثيرا ما كانت تتلاقى عيوننا ولكن دون أن ترانى أو تشعر بى ٠

واستندت باحدى يديها على المنضدة ، ووقع ضوء المصباح على وجهها وذراعيها فازدادوا بهاء واشراقا كأن الشمس قد خلعت عليها قناعا وكدت لا أعرفها ، فعيناى تعودتا على رؤيتها فى الظلام ٠٠ وعن كثب لم أرشيئا غامضا ٠

وبقيت قابعا في مكاني ، تجذبنى بوجودها كأن عينى لم تقعا على امرأة قط من قبلها ٠

وقبل أن تتلاقى نظراتنا ، بدرت منها ابتسامة حلوة جعلتنى أحس القيمة غير العادية لهذه الابتسامة ، والثورة التى يتمتع بها وجهها ٠٠ وانصرفت ٠ ٠لقد أعجبت بها وقدرتها احتراما وعبدتها ، والآن أكن لها حبا من نوع خاص حب لا يهدف الى شىء ، حب لانهاية له ٠٠ وأقول الحقيقة ٠٠ لم أكن أعرف ماهى حقيقة المرأة ٠

لم أرها أثناء تناول العشاء ، وفى اليوم التالى رحلت عن الفندق ، وشاهدتها فى لحظة انصرافها ، كانت تهبط الدرج ، وقد ارتدت قفازا ناصع البياض شبيها بفراشة تنزلق على الدرابزين القاتم ٠

وبدت لى أكثر طولا عن اليوم السابق ، لكنها لم تتغير كثيرا عن أول مرة رأيتها فيها ، بفمها الصغير ، وهى ترتدى ثوبا رماديا ، ومرت أمامى سريعا كأن ثوبها يغرد ، واختفت عن ناظرى كأنها تبخرت ولم يبق الا آثار عطرها ٠

وأثناء مرورها بجوارى لمستنى لمسا خفيفا وكان يمكنها ، رؤيتى ، لكنها لم ترد ، فهنا الموقف يختلف تمام الاختلاف عن الغرفة ، فلا حائط يفصلنا ، لكن هناك الفضاء الواسع « اللا محدود » ، والزمن الأزلى ، والقوى المحركة للكون ٠

هكذا ودعتها بنظرى ، وكانت النظرة الأخيرة ، دون أن أفهم معنى رحيلها ! ٠٠ يا للأسف ٠٠ لم أرها بعد ذلك ٠٠ ! ٠٠ كم من مآثر تزدهر ثم تخبو ، وكم من ضعيف حلو لذيذ ، وكم من سعادة نحصل عليها ، ثم لا تلبث أن تتبدد !

لقد هربت الى الحياة الغامضة شيئا فشيئا ، ومنها الى الموت المحتم الذى لا مفر منه ، ومهما طالت الأيام فستذهب حتما لتلاقى يومها الأخير٠ هذا كل ما أستطيع قوله عنها ٠

وفى هذا الصباح ، عندما أحاطنى ضوء النهار ، ضوء النهار الذى يخلع على كل شيء حقيقته المجردة ، أجد قلبى يئن ويشكو ، ففى كل مكان أشعر بفراغ يمتد بلا نهاية ، اذا ما انتهى شيء ، ألا يدعو ذلك الى الشك بأن كل شيء قد انتهى ؟!

و ٠٠٠ ذهبت ، ذهبت ولا أعرف حتى اسمها ، ذهبت الى مصيرها فى الدنيا كمصيرى فيها ، واذا ما ارتبط وجودنا نحن الاثنين ، فلن يتلاقيا أو يتعارفا مطلقا ٠

أما الآن فيا له من ليل ! ٠٠ لن أنسى ما عشت تلك الليلة التى قضيناها معا ٠٠ ليلة لا مثيل لها ٠

٤

وفى صباح هذا اليوم ، أخذت أستعيد فى ذاكرتى ما مر من أحداث يوم أمس الأول ، كأنى أراه الآن دون أن يؤثر فى ٠٠ والآن قد ابتعدت هذه المرأة عن قلبى فقد مضى يوم بأكمله على رحيلها ٠ هل ذهبت لتقضى نحبها دون أن أستطيع شيئا نحوها ؟

أن رغبة عارمة تتملكني في أن أكتب ما أشعر به ، وأن أدون كل ما أحس به بالتفصيل ، حتى لا تذروه الأيام ، كما تذرو الريح الهشيم ٠

ولكن عندما وقع بصرى على الورقة الناصعة البيـاض ، تبـددت الأفكار ، ولم يعد عندى ما أقوله ! واستجمعت أشلاء أفكارى المشتتة ، بالرغم مما يعترينى من اعياء ٠٠ وكتبت ٠٠ كتبت كل شيء بحماس وحرارة ، وأعتقد أني عبرت ، وأجدت التعبير عن حقيقة الأشياء ثم أعدت قراءة ما كتبت ٠٠ ولكن ٠٠ لا شيء ٠٠ لم أجد سوى كلمات ماثلة أمامى دون انسجام ودون توافق فيما بينها ؟

أين اذن سلاسة المأسـاة ، والتعبير عن الضيق الذى يعيش فى صدرى ؟ أين كل هذا ؟! ان ما كتبته لا يعدو أن يكون اطارا من الألفاظ حول حقيقة المعانى ، فالعبارات على الورقة كسلسلة سوداء ٠

ماذا أفعل حتى أبعث الحياة فى هذه الألفـاظ لتعطينى الحقيقـة ؟ بحثت عن التفاصيل الملهمة ، وهبط على شعور أحسست به فى بادىء الأمر متمثلا فى ضوء النافذة وأود لو أظل فى هذه النافذة : « النافذة سابحة فى جو من الألوان المختلفة منها ما هو أزرق وما هو أصفر وما هو أخضر » ٠٠ لا ٠٠ ليس حقيقى ، فالحقيقة فى ذاتها ليست كلعب الأطفال، ولكى نصل الى الحقيقة ، يجب علينا أن نصف صلبها وجوهرها ، وعصرت ذهنى لأعبر عنها بدقة وقارنت عدة مرات بينهـا وبين تمثـال أثرى ، وللمرة الثانية أعدت قراءة ما كتبت ٠٠٠ وفى ثورة غضبى ، وبجرة من قلمى ، هدمت ماكتبته ، لبعده عن الحقيقة وعدم تناسقه ٠

ثم أعدت المحاولة ببعض الكلمات الناضجة الحية ، كما أراها أنا ، واسترسلت فى بعض التفصيلات مستهدفا حدة ومضاء الذكريات ٠٠٠ « وكانت تتخذ أشكالا شهوانية فاسقة » ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ ليست هذه هى الحقيقة ، أنها مجرد كلمات جامدة ، ليس بها حياة ، تفرض نفسها دون أن تعبر عن قيمة الأحداث التى وقعت : فهذه الكلمات ما هى الا مملة لاقيمة لها ، كنباح كلب ، أو صوت لفرع شجرة فى مهب الريح ٠

فتركت القلم يسقط من يدى ، وأصابتنى الرعونة ، وشـعـرت بالاعياء والسأم ٠٠ كيف لا يستطيع المرء أن يصف ما يحسه وما يراه ؟! ولم تتهرب الحقيقة كأنها ليست من الحقيقة فى شيء ؟ وألا يكون المرء صادقا بالرغم من صدقها ؟ والمرء عندما يطلق اسما على شيء من الاشياء ، فلا يعنى ذلك أنه يناديه به ، وجميل أن نعرف الكلمات منذ طفولتنا ، ومع ذلك فالمرء لا يعرف شيئا ٠

لقد افتقدت كآبتي وحزني وقشعريرتي وحكمت على نفسي بالنسيان، والناس تتجاهلني أثناء مرورها أمامي دون اكتراث لما يمكنني أن أقوم به ، فوجودي على وجه الأرض ما هو الا وجود مؤمن ٠

وظللت بضعة أيام لا أرى شيئا ، وكانت أياما شديدة الحرارة ، والسماء ملبدة وممطرة ، كما هي الحال دائما في آخر شهر سبتمبر من كل عام ٠ ما هذا ٠٠ ؟! اليوم الجمعة ، أي أن هذا يعني مرور سبعة أيام على اقامتي في هذا الفندق ؟!

وذات مرة بعد وجبة غذاء دسمة ، غصت في المقعد ، واستسلمت الى أحلام شبيهة بقصص الجن الخرافية ٠٠ بالقرب من الغابة المتاخمة ، وعلى البساط الأخضر الزمردي الذي يمتد بين أشجار الغابة ، هناك عند نهاية السهل المنبسط ، ربوة عالية ، تكسوها النباتات الخضراء وتنمو عليها متجعدة ، وترسل عليها الشمس أشعتها في دوائر ساطعة فتخلع عليها ألوانا كالأصفر والأخضر القاتم ٠ ٠وهناك جانب من حائط وبرج صغير ذو ترابيع وتكعيبات مزركشة يهيم فيها وجه كأنه طائر جميل ٠٠ وصوت من بعيد كطنين الذباب ٠ انها جوقة الملك التي يخرج فيها للصيد ٠٠ كنت أرى أشياء غريبة لكنها حلوة ٠

وحل اليوم التالي ، شبيها بالأيام السابقة المتلظاه ، وذكرتني بسنين مضت ، كأن شدة الحرارة قد قضت عليها وعلى كل ما تمخضت عنه هذه الأعوام ٠

أما الحجرة المجاورة ، فكانت تقريبا مظلمة ، والنافذة مغلقة ومن خلال الستارة المزدوجة التي صنعت من نسيج خفيف ، كنت أرى قضبان النافذة متلألئة كقضبان أتون متوهجة ٠

وكالأمس ، وككل يوم ، وفي السكون الخانق ، الذي يكتنف هذا الفندق ، يخيم عليه السبات العميق ، وضحكات تتصاعد سدا ، وأصوات تعلو ثم تخبو وتتلاشى ٠

وسمعت وقع أقدام متجهة نحوي ، وأرهفت سمعي ، واذا بباب الغرفة يفتح ، وينزلق الى الداخل خيالان هزيلان ، ترددا في بداية الأمر ، وتوقفا برهة على العتبة ، ثم دخلا وكأن أحدا يتبعهما ٠٠ وسمعت الباب يغلق ٠

ها هي الغرفة قد دبت فيها الحياة ٠

دققت النظر في النزيلين ، واستطعت تميزهما أثناء دخولهما على ضوء هالة صغيرة من النور تسربت معهما عند دخولهما ، أثناء فتح الباب،

فتاة صغيرة يصحبها غلام فى الثانية أو الثالثة عشرة من عمره قريبى الشبه من بعضهما ٠

وجلسا على الكنبة ، ينظران الى بعضهما ، ولبثا صامتين دون أن يتفوها بكلمة واحدة ٠

همس أحدهما الى الآخر وهو يشير الى السرير الخالى من الغطاء : « ترى لا أحد هنا » ، فالمشجب خال من الملابس المعلقة ، والمنضدة خاوية، فالغرفة معفرة وحالها كحال أية غرفة مهجورة ولا يقيم فيها أحد ٠

ورأيت هذه اليد التى أشارت الى السرير ترتعش كورقة شجرة ٠٠ فخفق قلبى ٠٠ ثم همست الأصوات :

« اننا بمفردنا ٠٠ ولن يرانا أحد ٠
ــ يقال اننا بمفردنا ٠٠ للمرة الأولى ٠
ــ ومع ذلك فنحن نعيش دائما مع بعضنا ٠٠٠ » ٠
وفى هذا السكون علت ضحكة خفيفة ٠

من الواضح أنهما كانا فى حاجة الى هذه الخلوة للمرة الأولى ليذهبا الى المجهول ٠٠ لقد خلقا هذه الخلوة بعيدا عن عيــون الآخرين ، لقد أوجدا هذه الخلوة المحرمة ٠

وبالرغم من نجاحهما فى تحقيق هــذه الخلوة المنشودة الا أنهما لا يدركان حقيقة ما يسعيان اليه ٠

ثم تناهى الى سمعى صوت يختلج ببعض الكلمات كأنه ينتحب : « اننا نحب بعضنا ٠٠ » ، وارتفع صوت آخر لاهث بعبارة رقيقة كطائر صغير : « وأود لو أحبك أكثر » ٠

فكان الناظر اليهما ــ وهما فى هذا الوضع ، وأحدهما مستندا الى الآخر تحتويهما الظلال الحارة ، وتخفى عمريهما عن وجهيهما ــ يعتقد انهما عاشقان كانا على موعد لقاء ٠

عاشقان ! هذا هو ما يرنوان اليه ويحلمان به ، دون أن يدركا معنى العشق ٠٠ ؟ تفوه أحدهما بهذه الكلمات : « للمرة الأولى » ٠٠ فبالرغم من أنهما يعيشان معا ، الا أن هذه هى المرة الأولى التى يخلوان فيها الى بعضهما ٠

فربما كانت هذه هى أول مرة بدون شك ، يرمى فيها أصــدقاء الطفونة الى التحرر من أواصر هذه الصداقة ، أول مرة تتدخل الشهوة بين قلبين كانا للآن ينامان جنبا الى جنب ٠

ولما اعتدلا فى جلستهما ورفعا هامتيهما ، مر خيط رفيع من ضوء الشمس عند قدميهما ، فألقى عليهما ضوءا باهتا ، متميزا ، كما أضاء وجهيهما ، فأضفيا على الغرفة كلها ، مسحة من الضوء ٠

ترى ، هل سيذهبان ويتركانى وحيدا ؟ لا ٠٠ لن ينصرفا ، فكل شيء احتوته الظلال ، والغموض ، والحقيقة ٠

وكلما تأملتهما ، وجدت فيهما صورة شبيهة بماضى أيامى ، وماضى كل انسان فى الدنيا ٠٠ أين هما ٠٠ ؟ فى كل مكان وزمان ، كانا وما زالا ، تجدهما على ضفاف النيل ، وفى بلاد الهند ، وعلى شواطىء مجرى الحياة الأزلية ، من قديم الزمان عند الرومان ، وعند الاغريق ، حيث نشأ العشق وترعرع على شواطىء الريحان !

كان حديثهما يشبه طنين أجنحة النحلة بالقرب من ينبوع رطب ونضر ، فى وقت تلتهب فيه الحرارة ، فتأتى على الحقول بينما تمرق عربة من بعيد ، محملة بزرقة السماء ، وباقات من النبات الأخضر اليافع ٠

ها هو الجيـل الجـديد يتفتح ، حيث تربض الحقيقة المختلجة ، ويسـتولى عليهما الارتبـاك والخوف من أن يفاجئهما أحـد ، سعيدان تعيسان ، يقدم كل منهما للآخر كل ما فى وسعه ، لكنهما يجهلان حقيقة ما يقدمان ، لصغر سنهما ، وقلة تجاربهما وفى داخل كل منهما سر تضيق به نفسه ٠٠ فهما كسائر الناس ، مثلى ، ومثلك ، يتمنيان ما ليس بين يديهما ويستجديانه ، يستجديان الرأفة ، ويستجديان الغوث ٠

هو ، كرجل تأثر بصحبة الأنثى التى معه ، مشدودا اليها ، يمد يديه نحوها دون أن يجرؤ على النظر اليها ٠

أما هى كأنثى ، فقد ألقت برأسها على المسند ، وعيناها تبدوان لامعتين ورديتين ، منتفختين قليلا ، مخضبة القلب هادئة ، ورقبتها ، ببشرتها الحريرية الملمس ، تنبض وتخفق بالحيـاة ، وتصل صـدرها بوجهها ٠٠ انها أثمن وأرق موضع لانبثاق نبضاتها ٠٠ تفوح منها رائحة الرغبة ، كأنها وردة تتنفس ٠

وكشفت عن ساقيها الرقيقتين ، ذات الجوارب الصفراء تحت ثوبها الذى يحتضن جسدها ويقدمه كباقة من الزهور ٠

أما أنا فلم أقدر على أن أبعد نظرى عنهما ، وعن حركاتهما ، فكنت أتمسك بهذا المشهد ، ووجهى ملتصق الى الحائط كأنه خفاش مصاص للدماء ٠

وبعد صمت طويل ، قال هامسا : « هل ترغبين فى أن تستمر الكلفة بيننا ؟ » .

ـ لمـــاذا ؟

ـ « لنبدأ ثانية » ، وكرر « أتريدين » بعد أن غرق فى التفكير .

وارتعش جسدها بوضوح لهذه الطريقة الجديدة فى مخاطبتها بتكلف مستعملا لفظة « أنتم » وليس « أنت » !

فمثل ذلك الشعور ينتاب المرء عنـد أول قبلة . ولكنها جازفت وأجابت : « كنا سنقول أن هذا شيء يحول بيننا ثم نحيناه جانبا .. » .

هنا لم تواته الجرأة أكثر من ذلك .

وقال لها مضيقا عليها الخناق : « أتريدين أن نتبادل قبلة ؟ » ولم تستطع أن تبتسم ابتسامة كاملة ، وأجابت : « نعم أريد » وتشابكت يداهما ، وتلامس كتفاهما ، ومدا شفتيهما هامسين باسميهما كطائرين :

ـ « جـــان ..

ـ هيلين .. » .

وكانت هذه القبلة هى أول شيء ابتكراه ، أليس جميلا أن يقبل الانسان من يقبله فالقبلة شعور رقيق مرهف يعبر عن الود والألفة ، وتوثيق الصلة فى أضيق حدودها .. ومع ذلك فهى محرمة .

ولمست للمرة الثانية أن الخبرة تنقصهما ، فهما فى وضعهما هذا ، يشبهان الى حد كبير جميع العاشقين ، متحاضنين ، ووجوههم ملتفتة تماما ، تسرى فى أجسادهم الرعشة ، وهم هائمين فى ظلال القبلة .

وانتهيـا من القبلة دون أن يستكملاها على أكمل وجـه ، وتبادلا الحديث ، تحدثا عن الماضى ، ماضيهما القصير والقريب ، لقد تركا جنة طفولتهما ، ومقـام جهلهما بالحياة وتبادلا الحديث عن منزل ، تحيطه حديقة ، عاشا فيه ، وكان هذا المنزل شغلهما الشاغل ، كان محاطا بسور كبير تكسوه الأشجار ، فلم يكن يظهر منه سوى سقفه العالى .

وهمسا قائلين :

ـ والغرفة التى كانت كبيرة عندما كنا صغيرين ..

وكنا لا نشعر بتعب اذا سرنا فيها عن أى مكان آخر ..

وكانت حوائط هذا المنزل تحتضن شيئا غامضا منتشرا فى كل

مكان ، كاله رحيم وترنمت هي بلحن موسيقي وقالت ان للموسيقى ذكرى أفضل من ذكرى الانسان •

وتعمقا في ماضيهما ، ماضيهما الصغير الحلو ، كصغيرها وحلاوتها ، وانغمسا في ذكرياتهما ، وازداد تأثرهما بها ، وتماديا فيها : « وفي اليوم السابق على الرحيل كنت ممسكا في يدي مشعلا وأتنقل في المنزل على مرأى ممن فيه بعد أن يستيقظوا من نومهم على وقع أقدامي ••• » •

« ••• وفي الحديقة الهادئة المنمقة ، ما كنا نفكر في شيء سوى أزهارها ، لا شيء غيرها • كنا نشاهد المستنقع ، والممر المفروش ، ونرى شجيرات الكرز المثمرة بينما تذبل غيرها من الشجيرات » •

ان المرء عندما تتقدم به السنون ، لا يلقى بالا الى ماضيه ، أما اذا كان فتيا فهو يحاول تحطيمه • فالحياة تغيرت بالنسبة لهذين الصغيرين، بالأمس كانا شقيقين يمرحان في الحديقة ، واليوم يحيان حياة جادة يحاولان فيها القضاء على ماضيهما •

بعد أن اعتدلت فى جلستها قالت له :

ـ « لا أريد منك أن تذكرني بالماضي » •

ـ « لا أرغب في أن نكون أقارب ، ولا أريد أن نتشبث بأننا أخان » •

واتسعت عيناها شيئا فشيئا ، فقال لها وهو يختلج :

•• « لا تلمسي سوى يدي

ـ أن نكون أخان ، فهذا لا يعني شيئا » •

لقد جاءت ساعة الأماني الحرجة ، والثمار « المحرمة » حلت الساعة التي يهتمان فيها بأمورهما ، ويتملكان فيها نفسيهما ، ولم يكن ذلك في وسعهما من قبل ، حلت اللحظة التي احتضر فيها الخجل والحياء ، اللذان كانا يعترضانهما ، ويقفا حائلا بينهما ، ويمكنهما الآن أن يتصرفا كيفما أرادا •

ومنذ بضعة أيام ، قرب المساء ، كانت تسيطر عليهما رغبة ملحة في أن يعصيا والديهما ويخرجا عن طاعتهما ، ويذهبا الى الحديقة •

« وجاءت جدتي من أعلى الدرج ، تنادي علينا لنعود •• » •

« ولكننا ذهبنا نحن الاثنين ، وتخطينا السياج الى حيث يعشش طائر ، بالقرب من أحد الشقوق ، وطار الطائر وتلاشت صيحته ، أغصان الشجر هادئة ، والثرى يرقد على الأرض دون حراك ، فلا ريح ولا ضوء ، وطوقتنا الظلال من كل جانب كأنها تحدثنا » ٠

« وبسط الظلام جناحيه علينا ، واعترتنا الرهبة ، فلا ألوان للأشياء ، الا بصيصا من الضوء يقع على الزهور وعلى القمح الفضي اللون ، وعلى الطريق ، وكانت هذه هي أول مرة يقترب فيها فمي من فمك ٠٠ فقالت :

ـ الليل ٠٠ حيث تهيم الروح في جو من الجمال ٠٠ الليل الذي يلاطف الشعور ويدلل الأحاسيس ٠

ـ وأخذت يديك بين يدي ، وشعرت بما تشعرين به ٠

« من قبل كنت أدعوك ابنة عمي هيلين ، لكني ما كنت أعي ما أقول، الآن ، اذا قلت شيئا ، سأكتفي بأن أقول : هي٠وستكون كل شيء ٠٠ » ٠

ومرة أخرى تلاقت شفتاهما وعيناهما ٠٠ كآدم وحواء ٠٠ وتذكرت التاريخ الذي لا ينتهي ، التاريخ الانساني المقدس ، كأنه يسيل من نبع لا ينضب ، عندما كانا يسبحان في أنوار الجنة دون أن يلويا على شيء فكانا لا يشعران بنفسيهما ٠

وعندما انتصر الفضول الذي نهى عنه الله ، عرفا السر ، واكتشفا الفراق ، ولمسا سر عظمة ارادة الانسان وحساسيته ، فأظلمت السماء ، وتوعدتهما بمستقبل مؤلم ، لا مفر منه ، وملائكة كالطير الجارح ، ملائكة كالنسور ألقت بهما ، وضربا في الأرض يوم بعد يوم ٠

ولكنهما ، رغما عن ذلك ، قد أوجدا الحب وابتدعاه ، واستبدلا الثروة المقدسة بحاجة الانسان لأخيه الانسان ٠

وأصاب الصغيران نصيبا من هذه المأساة ، وتبادلا حديثهما دون تكلف ٠

« أريد أن أحبك أكثر ٠٠ وأود أن أحبك حبا أقوى ٠٠ ولكن كيف ؟! » ٠

ولبثا صامتين كأن الكلمات قد نضبت ، وكان حاله كحالها ، وارتعشت يداهما ، واستجابا لرعشتهما ، وواصلا سعيهما ـ دون أن يشعرا ـ نحو سعادة يشوبها الحزن والقلق ، وسارا في طريق الخطأ ، الطخأ الحلو الذي نقترفه ونحن عارفون به ، واندمجا والتصقا كأنهما

شخصا واحدا لا هيئة له ·· كنت أراه ، لكن دون وضوح ، كأنه يضع يديه عليها ، بينما العيون تتألق وتتلألأ واستطعت التحقق منه فى هذا الظلام ، كان شبه عارى وملابس ملقاة على الأرض متناثرة ·· وجزء رقيق كزهرة غريبة فريدة فى نوعها ، من طبيعة أحشائه ومن طبيعة قلبه ولحمه ، يبدو بينهما كأنه سر حى ، كأنه معجزة كأنه طفل صغير ، أما هى ·· فساكنة بلا حراك ·

·· وبدون شك ، رفع ثوبها ، وأدركت ذلك من الصوت المنخفض الذى ينبعث مختنقا ومختلطا ، كأنه يبذل نفسه فى وسط هذا السكون المخيف :

« هذا هو فمك الحقيقى » ·

أما عن نفسى ، فان كيانى يختلج ، بينما حب مخيف ، حب هائل للحقيقة ، يمزق جسدى على الحائط ·· كأن هذا الانغماس يحرقهما ويثبت فيهما الذعر ، كان الخوف يتملكهما ·· ونهضا ·· بعد أن انتهى كل شىء ·· وانتهت أمامى المغامرة الى سمة التى بدأت مصادفة ، وليس هنا فقط ، بل فى كل مكان أيضا ·

وما أن نهضا متثاقلين حتى فتح عليهما الباب ·· انها الجدة العجوز ، التى ينحنى ظهرها ، كأنها شبح عاد من الماضى ، تبحث عنهما ، كأنهما تائهين ، ونادت عليهما بصوت خافت ، صوت يتناسب مع حالتهما، صوت ذو نبرة حانية تقريبا ــ ويا للعجب ! مائل الى الحزن :

وقالت وهى تبتسم ابتسامة صغيرة صافية دون أن يتسرب اليها أدنى شك : « أنتما هنا يا ولدى ؟ » ماذا تفعلان ؟ تعالا فنحن نبحث عنكما ·· » ·

انها امرأة متقدمة فى السن ، ترتدى ثوبا مقفولا حتى الرقبة ، يصبغها بصبغة ملائكية ·

وعندما رأياها ، ارتميا فى أحضانها ، ورفعا جبينيهما الى فمها المقدس الذى لا يقربه أحد ، كأنهما يودعانها ·

هذه العجوز لا نفع فيها الى جانب هؤلاء الذين يتأهبون لاستقبال حياة مليئة وجادة ··

وانصرفت ، وبعد قليل انصرفا هما أيضا ، مسرعين كما قدما ، انصرفا وقد ارتبطا برباط سام لا يراه أحد ، لكنه رباط شر ، يختلف عن الرباط الذى كان يربط بينهما عند مقدمهما ·· وتوقفا قليلا عند عتبة الباب ، وتبادلا النظرات ··

وخلت منهما الغرفة .. بعـد أن رحـلا .. وأصبحت كمحراب مقدس ، تذكرت أول نظرة حب تبادلاها ، والتى لم يرها أحد سواى ، كنت بجوارهما ولكننى بعيد عنهما قرأت وفهمت لأنى كنت معهما بشعورى وأحاسيسى كنت معهما بكيانى ، ولم يشغلنى شىء آخر عنهما وهـذا ما جعلنى أرى تلك النظرة .

أما هما فلم يدركا أن هذه هى أول نظرة حب بينهما ، فالمحب لا يستطيع أن يحس بأول أو آخر نظرة حب فباستطاعتى أن أعرف متى يتذكران أو لا يتذكران .

حتى أنا أيضا لا يمكننى أن أتذكر أول نظرة حب ومع ذالك فقد حدث .. واحتجبت عنى هذه الأشياء المقدسة .

الهى ، ماذا تبقى لى من هـذه الأشياء ، ومن ذا الذى يمكنه أن يقدرها ! لقد انتهى أمرى كمخلوق صغير ، لقد عشت فعلا ، فهذه حقيقة لا شك فيها ، لكننى عشت مغلوبا على أمرى ، هدنى الحزن ، وما كنت أعرف ما أريد وكل ما أتذكره لا يعدو أن يكون خاضعا للصدفة ، لكن : ان أحلى وأجمل شىء فى الوجود هو العدم ؟

والآن ، ، حسنا ، كأنى استمعت الى نشـيد دينى مقدس يملأه « اللا محدود » وتحيط به ابتسامات جديدة من كل جانب ، هذا النشيد القيم تعلمته وصنته وتملكته ، فهو يخفق فوق فؤادى ، وحلقت ، ولكنى أنقذت شيئا من الحقيقة .



وظلت الغرفة خاليـة يوما بأكمله ، وفقدت الأمل فى أن يشغلها نزيلا جديدا ، وانتظرت ، انتظرت حتى أصبح الانتظار شيمتى ومهنتى ، وأهملت كل شىء ، وأرجأت مصالحى وعرضت وظيفتى للضياع ، وأصبحت لا أبارح غرفتى الا لتناول الطعام ، ولم يكن هناك شىء يلهينى ، فكان حالى كمن يتأهب لحب جديد .

وفى اليوم التالى ، أعدت الغرفة لاستقبال أحد النزلاء الجدد ، ورسمت فى مخيلتى صورا عديدة لهذا الضيف الجـديد الذى تحتفظ الغرفة بسره .

وأعقب الغسق المساء ، ولم يتغير فى الغرفة شيء ، لكن يأسى تبدد بعد أن رأيت الباب يفتح ويدخل منه شبح لرجل .

وحال الظلام بينى وبين تمييزه ، فكان يرتدى ملابس سوداء ، أو تميل الى السواد وأساور قميصه البنية اللون باهتة تتدلى منها يدان منسولتان ، وياقة قميصه ناصعة البياض ، وعلى وجهه الرمادى الشاحب المستدير ، ترتسم محاجر عينيه ، ويظهر ما تحت ذقنه وفمه ، كفجوات مظلمة ، بينما يبرق جبينه الذهبى ، ويغطى وجنتيه حاجز مظلم ، فكان يبدو لى كأنه هيكل عظمى .

ما هذا المخلوق ذو السحنة الممسوخة ؟

وعندما اقترب قليلا ، دبت فيه الحياة ، وازداد وضوحا ، كان يتمتع بوجه جميل وجذاب ، تعلوه سمات الرزانة ، تحيطه لحية سوداء رقيقة ، ونظراته نفاذة ، وجبهته عريضة وحركاته بحساب ورقة وهدوء .

وبعد أن خطا خطوتين داخل الغرفة ، استدار واتجه ثانية نحو الباب الذى لم يزل مواربا ، واهتز ظل الباب ، وظهر على عتبته شبح ، شبح امرأة ، وضعت يدها الصغيرة ذات القفاز الأسود على مقبض الباب، وانزلقت داخل الغرفة ، تعلو وجهها أمارات الدهشة !

لقد كانت منذ بضع لحظات تسير خلفه فى الطريق ، وتجنبا دخول الغرفة معا حتى لا يراهما أحد ، ودفعت الباب خلفها ، واستندت بكل جسدها الى المقبض ، لتحكم الباب ولتطمئن الى أنه قد أوصد جيدا ، وأدارت وجهها ناحيته ببطء ، خوفا من أن ترى أمامها شخصا سواه ، وأصبحا وجها لوجه أمام بعضهما ، وصدرت عنهما صيحة مكتومة ، تعبر جراحهما المشتركة :

ـ « أنت !

ـ أنت ! » .

وألقت بنفسها على صورة خائرة القوى ، ألقت بنفسها بين أحضانه وسط عاصفة من الانفعال ، ولم يكن لديها من القوة الا القدر الذى يمكنها من الارتماء بين يديه .

ورأيت يدى الرجل الهزيلتين تلتفان حول خصرها ، واعترت جسديهما اختلاجة ، كأن ملاكا يملأ الغرفة برفيف جناحيه ، باحثا عن مخرجا ليهرب الى الأبد .. لكن دون جدوى وخيل الى أن الغرفة صغيرة لا تسعهما ، بينما الظلام يملأ أرجاءها ، ونطقا بنفس الكلمة التى سبق أن سمعتها فى اليوم السابق من الغلام والفتاة : « لم يرنا أحد ! » .

فقال لها مجيبا : « تعالى » وأخذ يدها واتجها الى الأريكة حيث جلسا بجوار النافذة ٠

جلسا على الأريكة ذات النسيج الأحمر ، تغمرها الظــلال من كل جانب ، وتشابكت يداهما كأنها قيود تربطهما ، لا دخيل بينهما سوى ٠٠ الليل ٠٠ والخلوة ٠

يا لها من بداية ! يا لها من بداية ٠٠ ! يا للعنة !

ولما رنت فكرة الخطيئة الى رأسى ، اعتقدت أن المرأة عندما ظهرت على عتبة الباب ، واندفعت ناحية الرجل ، انها تسعى الى لقاء يعمه السرور ، ويتسم بالتقوى ويملأه الجمال ، سرور طبيعى ، سرور بدائى وفطرى ، ولكن هذا اللقاء كان كوداع ممزق ٠

قالت وهى تخرج الكلمات بصعوبة : « اذن سيستولى الرعب علينا دائما ٠٠ ؟ » قالتها وهى قلقة ترتجف ، وتنتظر أن يجيبها ، كانت ترتعد ، وكان جسدها متكورا فى قلب الظلام ، وأخذت يديه واعتصرتهما باضطراب وتوهج ، ونصــفها الأعلى منتصــبا ، وذراعاها متصلبتان ، وحنجرتها تعلو وتهبط كموج البحر ، ودنا كل منهما من الآخر ، حتى التصقا ببعضهما ولكن شيئا من الهلع والعفاف كان يقف بينهما حائلا ٠

وقالت وهى شاخصة تنظر الى الفضاء ، وتفوهت بكلمات كأنها تهيم فى زرقة السماء : « ٠٠ الخوف ٠٠ الخوف دائما ٠٠ بعيــدا عن الطريق ، بعيدا عن نور الشمس ، بعيدا عن كل شىء ٠٠ أنا ٠٠ أنا التى كانت ترنو دائما الى حياة مشرقة ، وأيام طويلة ! » ٠

ان الخوف يتملكهما ، وينقب عنهما أينما وجدا ، ويستولى الرعب على كل جزء فيهما : على عينيهما ، على أحشائهما ، على قلبيهما ، وخاصة حبهما ٠

ولاحت على وجــه الرجل ابتسامة حزينــة ، وقال الها متمتما : « أتفكرين فيه ٠٠٠ ؟ » ٠

واعتدلت فى جلستها واتكأت بمرفقيها على ردفيها ، وأسندت وجهها على كفيها ، ولم تجب بشىء ، وظلت واجمة كطفلة صغيرة ، تنظر الى بعيد ، تنظر الى لا شىء ٠٠ وقد تقوص كتفاها ٠

واذا ما تخيــلا الصــورة التى يخافانها ، فهى ذلك الشىء الذى يرهبانه ، ذلك الشىء الذى لا وجود له ، لكنه يجرحهما ويدميهما ، ويستولى عليهما ، ويتحكم فيهما ، ذلك الشىء الذى وجد فى كل مكان ، الا حيث

يوجدان ، ويشغل كل ذرة داخل الغرفة وخارجها ، واذا ما ذكر اسمه ، أطبق على نفسيهما وأصبحا له فريسة ومغنما ٠٠ ذلك الشيء هو ٠٠ الخـــوف ٠

وعم الليل الغرفة وطوى الخوف والخجل بين أحضانه ، ووقع الظلام على الرجل والمرأة ، حيث قدما الى هذه الغرفة ليدفنا سر لقائهما ، كأنهما يقبرانه فى مقبرة ليعيش فيها العالم الآخر ٠٠

قال لها : « أحبك » ٠٠ وترامت هذه الكلمة واضحة الى سمعى ، وهزت كيانى هذه الكلمة التى خرجت من أعماق هذين المخلوقين المندمجين، هذه الكلمة ٠٠ أحبك التى تقدم القلب واللحم ، انها صيحة تنادى الوجود والمخلوق ٠٠ أحبك ! ٠٠ ها أنا ذا أمام الحب وجها لوجه ٠

ثم أخذ يحدثها حديثا زائفا ، بعيدا كل البعد عن الحقيقة والصراحة، مستغلا اياه فى التودد اليها ، والالتصاق بها تمهيدا لمعانقتها :

« لقد خلق كل منا للآخر ، وتربط بيننا الصداقة التى تربط روحينا معا ، يجب أن ننتصر على مصيرنا ، لا يستطيع أحد أن يدخل بيننا ، ويشتت جمعنا ، ولن يتسن لأحد أن يحول بين شفتينا من أن تتلاقيا عند اقترابهما من بعضهما ٠٠ فى هذه الغرفة التى تسبب لنا الكدر والهم والعزلة ، هذه الغرفة التى سببها المجتمع ، والعهـد الذى قطعناه على نفسينا ٠٠٠ ان حبنا حبا سرمديا ، حبا أزليا لا نهاية له » ٠

وتفوه بكلمات رخيصة ، ينادى بها « اللا محدود » ، وينادى بها الأزل ، لكن دون جدوى ٠٠٠ كلمات غير نابعة عن صدق وخلاص ، غير صادرة من قلبه ، كلمات ترددها شفاه فقط ، كلها نفاق ، فمثله كمثل الذى يؤدى صلاة يومية من غير نية صادقة ٠

وتركا الحديث يختلط ببعضه ، الكاذب منه بالصادق ، والصالح منه بالطالح ، وكانت المرأة صادقة ، مخلصة فى عباراتها ، لا مراوغة ولا نفاق ، وبدا عليها الانشغال والتفكير ، وقالت عن صدق عاطفتها : « انى بائسة وحزينة ٠٠ » ٠

أما عن نفسى ، فقد فهمت أنه يغويها ، بعـد أن وزنت كلمـاته وتفهمتها ، رأيت أنه يريد التغرير بها ٠٠ آه ٠٠ لقد أضحى الحب وثنا ، وأصبح شيئا لا حياة فيه ٠

واستهلت حديثها قائلة : « فمنذ زمن طويل ٠٠ » كان همها دائما أن تسرد قصة حياتها ، كالتى تؤدى صلاة ، أو تفضى بعمل أدبى ، تتحدث

بسرعة وبصوت خافت ، كمن تقف أمام كاهن وتعترف اليه ، كأنها واقفة في هذا المكان الذى يجمعهما دون سابق تمهيد ٠

كانت تبدو فى الثلاثين من عمرها ، ذات وجه مميز ، وشعر ناعم حريرى ، يخيل الى أنى عرفتها ، ولما يتسنى لى معرفتها ٠

كانت ترتدى ملابس بسيطة ، وتخلصت من « جاكتتها » وقبعتها ، وكذلك خلعت قفازها ، وكانت « الجونلة » التى ترتديها ذات لون داكن، وصديرى أحمر اللون تحليه بسلسلة ذهبية ٠

ثم استرسلت فى حديثها عن نفسها ، وعن حياتها ، وهى تستعيد ماضيها المثقل بالآلام ٠

« يا لها من حياة مليئة بالفراغ ! حياة تسير على وتيرة واحدة ! حياة لا يطرأ عليها أى تغيير ، المدينة الصغيرة ، والمنزل ، وغرفة الاستقبال، تنتظم فيها المقاعد هنا وهناك ، دون تغيير لمواضعها أو تبديل ، ثابتة راسخة كأحجار المقبرة ٠٠٠ وذات يوم حاولت أن أغير وضع المنضدة الصغيرة ٠٠٠ ولكن هيهات ! » ٠

وبعد أن نطقت هذه العبارة ، شحب وجهها ، فازداد اشراقا وبيانا ، وهو ينصت اليها ، تتأرجح على وجهه ابتسامة صبر وانتظار مبعثها الملل ٠

آه ٠٠ ! انه جميل بمعنى الكلمة ، بعينيه الواسعتين ، اللتين تستحقان أن تعبدا ، وشاربه المسترسل ، ومظهره الرقيق ، وهو يشبه الى حد كبير هؤلاء الذين يتحلون بذهنهم النشط ، وقد تعودوا على ارتكاب الآثام ٠

فأثناء حديثها عن نفسها وشكواها ، لم يكن معها بكيانه وحواسه ، ومع ذلك فالرغبة تحركه لينال منها بغيته ٠٠ وهو ما زال ينتظر ٠

وفجأة ٠٠ تمزق ثوب الحقيقة وتجردت من ردائها أمامى : لقد لمست أن هناك فارقا شاسعا بينهما ، وعدم توافق لا حد له ، يصعب تفسيره لطول مداه ، وسعة مغزاه لكنه مؤثر ومؤلم الى درجة انتفض لها قلبى ٠

وكان كل ما يرنو اليه هو أن ينالها ، ويحقق رغبته ، حتى تخرج من حياته ، فلم تكن مآربها متشابهة ، وان تشابه ظاهرها ، فباطنها متباين ، فاذا ما تناولا الحديث عن شيء ، اختلف كلاهما فى التعبير عنه ، وكلاهما لا يفهم الآخر ، وقد بدا لى ذلك منذ أن جمعتهما الغرفة فهو كاذب ، لا يصف لها حقيقة شعوره ، ويظهر ذلك واضحا من نبرات صوته ،

وكلماته المعسولة المنمقة ، ولهجته اللينة التى يهدف من ورائها الى الحصول على اعجابها والتأثير عليها ، وبذلك كان يسمو عليها ، بينما هى صادقة فيما تقول ، طبيعية فى انفعالاتها وشعورها ، تقدم نفسها الى من ملك عليها كيانها ٠٠ اليه ٠

واستطردت تصف حياتها الماضية :

« ٠٠ وكنت أتطلع الى الميدان من نافذة حجرة الطعام ، حيث تتوسطه النافورة بظلالها ، فكنت أتطلع الى الشمس وهى تغرب على هذا الميدان الصغير ، فيبدو كأنه ميناء بيضاء صغيرة ، أو لساعة مستديرة ٠٠ وأمام باب الترسانة يقف جندى ، يقف دون فائدة فاذا ما حان وقت الظهيرة يدق دقات حزينة ، ولا أرى وجها لانسان على قارعة الطريق ، فيبعث هذا الوقت من اليوم ، الحزن فى نفسى ، ويكتمل الهم » ٠

« لم يكن لى شىء ، ولم يقع لى شىء ٠٠ ان المستقبل ليس لى ٠٠ وان استمرت أيامى هكذا ، فلن يفرق شىء بينى وبين حتفى » ٠

« لا شىء ! آه ، لا شىء ! فالسأم والهم هما الموت ، ومع ذلك ، فيجب على أن أعيش ، أى أن هذا يعنى بالنسبة لى انتحارا ، والانتحار وسائله عديدة ، فبينما ينتحر البعض باغماد السلاح فى صدورهم ، يتعاطى آخرون السم ، أما أنا ، فتقضى على الدقائق والساعات » ٠٠ « ما علينا ٠٠ فمن فرط ما أرى الأيام وهى تتمخض عن الصباح ، ثم تلد المساء ، أخشى الموت ، وكان هذا هو أول خوف شعرت به ، وأشعر به دائما ٠٠ عندما أقوم بزيارات ، وليلا اذا ما عدت الى منزلى ، أو بعد ركوب الخيل الى جانب سور الدير ، لقد جعلنى الخوف أرتعد اذا ما خطر على فكرى أى أمل ٠٠ » ٠ « ولكن ، من سيخرجنى من هذا ؟ ومن سينقذنى من هذه الدوامة التى لا أستطيع أنا نفسى الخروج منها ؟ كأنها مكيدة مدبرة لى ، أساسها الرغبة ، ووسيلتها الشر وموت الضمير ٠٠ رغم أن كل ما كنت أراه وألمسه ، كان يهدينى الى الطريق القويم » ٠

« ٠٠٠ قالت لى صديقتى الوحيدة والقريبة منى ، مدام « مارتيه » ، وأنت تعرفها ، فهى تكبرنى بعامين فقط ، قالت لى ان الانسان يجب أن يقنع بما هو فيه ، فأجبتها :

ــ هل تعنين حقا ما تقولين ؟ واذا كان كذلك ، أى يجب أن نرض بما نحن فيه ، اذن فلن يجد الموت ما يفعله ، فحديثك هذا يضع حدا لنهاية الحياة !

فقالت هذه المرأه القذرة : نعم انى أعنى ما أقول ٠٠ لكن هذا لا يكفى ليبعث الخوف فى النفس ، بل ، يجب أيضا أن أمقت الهم وأن أبغضه ٠٠ فكيف يمكننى ذلك ؟ لست أدرى !

« اننى فى حالة تيه عن كل شيء ، عما يدور حولى ، وعن نفسى ، وأكاد لا أعرف حتى من أنا ؟ أو ما هو اسمى ؟!

٠٠ أتذكر منذ يوم مضى ــ بالرغم من أنى لست شريرة ــ أنى رأيت فى منام لذيذ أن زوجى قد مات ، زوجى المسكين الذى لم يسىء الى ، اذ كنت حرة ، حرة بمعنى الكلمة ، وكنت فى نظر نفسى ، أفضل انسانة ٠

ولم يدم هذا طويلا ، ولم يكن فى مقدورى أن أعاف سنة الحياة ، وما يعتريها من اقفار ودأب ، فالدأب (العادة) كانت من أكثر الظلال حقيقة ٠

والليل فى نظرى لم يكن اليلا ، اذا ما قارنته بغيره من الظلال ٠٠

كيف يمكن ملء هذا الفراغ ؟ عن طريق الايمان والدين ؟ لا ، بل عن طريق الحياة ذاتها ، أم عن طريق المعتقدات ؟ وأفكار يجب على محاربتها ؟ ، أيضا لا ، انما يتأتى ذلك عن طريق الانسان ذاته ، عن طريقى أنا نفسى ٠

حينئذ أكون قد عثرت على الدواء » ٠

وصاحت بصوت مبحوح :

« الشر ! الشر ! الجريمة ضد الكدر والسآمة ، والخيانة لتحطيم الملل والقضاء عليه ، الشر لأضع حدا لحياتى ، ولأصبح امرأة أخرى غير التى كنتها ، ولأكره الحياة أكثر مما تكرهنى ٠٠ حتى لا يوافينى الموت !

وقابلتك ٠٠ قابلتك أنت ، فأنت تنظم الأشعار ، وتؤلف الكتب ، وتختلف عن الآخرين ، فصوتك له نبرات مختلجة جميلة ، وكنت دائما أمامى ، فلم يكن لى بد من أن أفتح لك ذراعى ، وحينئذ أحببتك بكل قواى ، ومن الجائز يا صغيرى أن يكون هذا هو الحب ٠

وكان طبيعيا أن تحبنى أنت أيضا ، وعندما تسللنا سويا الى الفندق للمرة الأولى ظننت أن الباب مفتوح تلقائيا ، وهنأت نفسى على تمردى ، وهنأت نفسى أيضا على انى مزقت مصيرى كأنى أمزق ثيابى ٠

٠٠ وبعد ! اننا لا نمقت الكذب ولا نبغضه ــ برغم ما يسببه أحيانا من آلام ــ اذا ما أعملنا أذهاننا وعقولنا ، فالكذب ، والمخاطر والمجازفات

التى تعطى لذة للوقت الذى نقضيه ، وللمشاكل التى تملآ الحيـاة ، وهـذه الغرف والمخابىء ، وهـذه السجون المظلمة ، قد وهبت اللشمس النزعة المثالية التى تختلج فى نفسى ٠٠ » ٠

قالت هذه العبارات بصوت هادىء ، خفت حدته عن ذى قبل ، وكانت تلاطف يد صديقها وتداعبها ، وكأنها تداعب شيئا صغيرا فى يدها ، ثم زفرت زفرة حارة خرجت من أعماق نفسها ٠٠٠ فهى لا ترى أمامها شيئا جميلا ٠

وبعد أن استعادت جأشها واستجمعت قواها قالت :

« هكذا نكون ٠٠ فبسبب شعرك الذى نظمته ، شعرت بحب مفاجىء جذبنى اليك شىء خارج عن ارادتى ، وجئت اليك ، والآن ، ها أنا ذا بين يديك ، أغمض عينى » وأضافت :

« اننا كثيرا ما نكذب فيما يتعلق بالحب ، ولا نقول الحقيقة ٠٠
٠٠ ربما توجد هنالك جاذبية بين الرجال والنساء ، ولا أعنى بذلك أنه لا يمكن للحب أن ينشأ ويترعرع بين مخلوقين ، لكن هذين المخلوقين ليسا أنا وأنت ، فاننا لم نفكر مطلقا الا فى نفسينا ، فأنا أحبك ، وأنت تحبنى ، لا شك فى ذلك ، الا أن هناك صفة تتمتع أنت بها ولا أجدها فى نفسى ، فأنت تشعر بالسرور والسعادة ، أما أنا فلا ، ألا ترى أننـا نساوم بعضنا ؟ فكلانا يعطى للآخر شيئا مقابل شىء آخر ، أنا المتعة ، وأنت الخيال والحلم ٠٠ ولا صلة لكل هذا بالحب » ٠

كان يلوذ بالصمت ويكتفى بالتعبير بقسمات وجهه وبحركات تنم اما عن الشك ، واما اعتراضا لمـا تقول ، واذا تحدث فيكاد صـوته لا يسمع ، قال :

« هكذا يكون دائما أمر الحب ، فى أروع وأرق أنواعه ، فالانسان لا يستطيع أن يهرب من نفسه » ٠

ـ لا تقل ذلك ، ليس هذا كل شىء ٠٠ قالتها بشىء من الحماس ادهشنى ٠

ويخيل الى أن الأسف والندم قد سادا لهجتها وفى نظراتها تشع تباشير حلم جديد

وهزت رأسها كأنها تبدد ذلك وتطرده بعيدا عنها ، وقالت :

« كم كنت سعيدة ! كنت أشعر بشبابى قد تجدد ، وبأنى بدأت من جديد ، بنية صادقة ، وبقلب أبيض ، وأتذكر أنى لم أكن أجرؤ على

اظهار شيء ، من أخمص قدمي حتى شعر رأسي ، وحتى الكلمة كانت شدة الحياء تمنعني من النطق بها » •

وبعد الاعتراف الذي قدمته ، تناول هو الحديث من الطرف الآخر الذى لم تمسه ، فحدثها ملاطفا عن اللحظات الأولى فى لقائهما ، وعن ذكريات هذا اللقاء الذى يطوقهما •

« أتذكرين •• عندما كنا بمفردنا فى اللحظات الأولى للقائنا •• »•

فنظرت اليه • فاستطرد فى حديثه :

« كان ذات مساء ، كنا نسير سويا ، أتأبط ذراعك وكنت تميلين على بجسدك ، لدرجة أني شعرت بثقل جسمك وأحسست بحرارة لحمك ، وكانت الناس منتشرة في كل مكان ، لكننا لم نشعر بأحد منهم ، كنا وحيدين ، وكل ما حولنا يبدو خاليا الا منا نحن الاثنين وكان يخيل الينا ـ نحن الاثنان ـ اننا نتهاوى على سطح الماء » فقالت :

ـ آه •• ما كان ألطفك ! لقد كان لك وجه غير وجهك الذى عرفتك به بعد هذه الليلة ، حتى فى أجمل اللحظات وأسعدها •

ـ وتحدثنا فى أشياء كثيرة ، بينما كنت أضمك الى بقوة كأنى أضم باقة من الزهور ، وحدثتينى عن أناس نعرفهم ، حدثتينى عن كل شيء ، عن الشمس ، وعن النهار ، وعن جمال الليل ونسيمه •

ولكنك في الواقع قلت أنك جئت من أجلي •• وعباراتك التى ذكرتيها أثناء اعترافك لمستها خلال حديثك ، وان لم تقوليها لى » •

« آه •• كم تكون البداية دائما عظيمة • •خالية من كل وضاعة وصغر ••

« وذات مرة ، عندما التقينا في الحديقة ، وطفنا في أطراف المدينة ، وكانت الشوارع هادئة ساكنة الى درجة انه خيل الينا أن وقع أقدامنا يغير الطبيعة بأجمعها ، وأعاق حناننا مشيتنا ، وانحنيت عليك ثم قبلتك » •• فقالت :

ـ « هنا » •• ثم أشارت بأنملها الى رقبتها ، وزادت هذه الحركة رقبتها تألقا ونورا •

وشيئا فشيئا ، كانت القبلة تنتقل من مكان الى آخر حتى وصلت الى شفتيك ، حيث توقفت عندهما ، فأخطأتك فى القبلة الأولى ، بينما فى القبلة الثانية تظاهرت بالخطأ •• وشيئا فشيئا شعرت بشفتيك » ••

ثم خفض صوته حتى صار كأنه همس :

« ·· تزدهر وتتفتح بين شفتى » ··

وخفضت رأسها ، ورأيت شفتيها حمراوين فى لون الورد ، وقالت وهى تزفر متأثرة :

« كم كان هذا جميلا ، اذا ما قارنته بالسجن الذى أعيش فيه » ··

انها دائما فى حاجة الى ذكرياتها الماضية ، لتستعيد أحزانها وآلامها والأهوال التى لاقتها ، وتستعيد حبها لهذا فهى تسرد قصة حياتها ·

أما هو ، فيستدرجها الى غرام يملأه الحنان ، بعد أن تولاه الحماس ، والآن فهما يبحثان عن الذكريات الرنانة ، قبل أن تتحول الى حقائق ·

« وفى اليوم الثانى ، كان يوما حزينا بالنسبة لى ، وكنت مدعوا عندك مع جمع من الناس ، وكنت أنت سيدة المنزل ، مكتملة المظهر ، توزعين مجاملاتك على الجميع ، مرحبة بهم ، يعتريك شيئا من الخجل ، وكل منا يصيبه بعض من حديثك ، وقسط من جمال محياك ·

كنت ترتدين ذلك الثوب الأخضر الذى يبعث البهجة فى النفس ، وكان هذا الثوب محور الحديث ، يجاملونك فيه ويمتدحونك ، وأتذكر عندما كنت تمرين أمامى لم تواتنى الجرأة على أن ألاحقك بنظراتى ، فكم كنا متسرعين فى اللحظات الأولى من تأثرنا ، فقد قلت فى نفسى :

آه ، لو أخذت قلادتها التى تضعها حول ساقها العارى وطوقت بها رقبتى ، ولو طوقت جسدها الأملس المشوق بين ذراعى ، وعانقتها جسدا وروحا ، لكان هذا كسبا عظيما ! ولكنه لم يكن كسبا هينا طالما كنت أتمناك فى هذه اللحظة ، ولم أتمكن من الحصول عليك ·

وبدون شك كنت سأعانقك ، ولكن للأسف لم يتحقق ذلك ، فضلا عن أنك كنت ضالتى المنشودة ، واعترانى الحزن وقتها ·

وبعد ذلك ، من يدرى ؟ اذا حصل الانسان على شىء أو اذا كان يملك شيئا ، فهل يدوم هذا الشىء ؟ وهل فى مقدوره أن يحصل عليه مرة أخرى ؟ » ·

ـ آه ! كلا · قالت ذلك وتنهدت من أعماق نفسها ، من أعماق ماضيها وذكرياتها ·

ـ فى الحب ليس كل شىء يقال ، أنا أيضا هزتنى بعض الأحزان وكان يجب على أن اكتمها وأخفيها فى قلبى ، واتظاهر بالسعادة ، ففى

الأيام الأولى ، لم أكن أجرؤ على النوم مخافة أن أتفوه باسمك فى أحلامى ، وكنت أبذل قصارى جهدى لأتجنب ذلك ، ولأنتصر على جنون النوم ، فكنت أفتح عينى ساهرا لحراسة قلبى ٠

« كنت اخشى أن يكتشف أحد أمرى ويرى الصفاء الذى يغمرنى ٠٠ نعم الصفاء فعندما يستقيظ الانسان من حياته ، ليستقبل حياة أخرى ، ليرى ضوءا جديدا ، ويرى كل شىء قد خلق من جديد ، فانى أسمى هذا :

« الطهارة والنقاء » ٠

وهل تذكرين يوم مركبة السباق فى باريس ؟

ــ آه ٠٠ نعم ٠ أجابت وهى تشعر بسعادة متناهية « لقد كان اعظم يوم » !

كان يحدثها بصوت مرتعش النبرات ، تختلط به خفقات قلبه ، هو الذى يتحدث :

« وكنت تجلسين على المقعد بركبتيك ، وتنظرين الى الوراء من خلال فتحته وأنا أداعب جسدك بيدى وأنت تصيحين :

« آه ! لقد اقترب ! ها هو قد ابتعد ٠ ٠يا للآسف لقد فقدا ! « ٠ ومع هذه الحركة تلاقت شفتاهما فى قبلة ٠ وقالت كنسمة عابرة :

« انها المرة الوحيدة التى استمتعت فيها » ٠

فأجابها قائلا : « سنكون دائما خائفين »

وأصبح حديثهما متقاربا ، وتحولت عباراتهما الى عناق وقبلات ، وتحول الى وشوشة وهمس ٠ لقد كان متعطشا اليها ، وشفتاه تناديها بكل ما أوتيا من قوة وسكنت يداها ، وتركزت حياتها فى شفتيهما ٠٠ وتلاشى كل شىء وتوارى أمام الشعور بالرغبة ، وحلت روح الشر ٠

نعم ٠٠ انهما فى حاجة الى بعث ذكرياتهما من جديد ليحافظا على حبهما من الدمار ، ومن سنة الحياة ووتيرتها التى لا تتغير ، وحتى يقاوما ويحولا دون تقدم السنين بهما ، وسمات الموت اليهما ٠

وتعـانقا يعتصر كل منهما الآخر ، والتحم وجهاهما بقسماتهما الشاحبة ، ولم أتمكن من التحقق من كليهما ، ولكن يبدو منظرهما أكثر وضوحا لالتصاقهما ببعضهما ٠

وانفردا ببعضهما وسط هذا الظلام ، وسقطا فى الهاوية التى طالما تمنياها ، ودفنا نفسيهما فى دياجير الليل التى ينشدانها على وجه الأرض، وتمتم قائلا :

« سأحبك دائما » .

ولكن ، أنا وهى ، كنا نحس كذبه ، ولم يخدعنا حديثه المعسول كما كان يفعل منذ برهة ، والكن ماذا بهما ؟ ماذا بهما ؟!

وهمست وهما متعانقان ، والشفتان على الشفتين :

« سيعرف طريقه ولن يستغرق وقتا طويلا »

وبعد التصاقهما ، لم يكن هناك سوى الرجفة التى تشترك بينهما ، والتى تزداد اضطرابا ، ولكن الجهد الذى يبذلانه ، لينصهرا روحا وجسدا كان على وشك الانتهاء .

وبدأت المرأة تستعد لاستقبال العيد المظلم ، بوجهها المبتسم الباكى، تغمره ظلال الاستسلام والخضوع .

وتوقف الكلام .. وحل محله العناق والتصـــاق اللحم باللحم ، والهدوء التام ، والتنهيدات ، وحركات غير منتظمة ، وصوت صادر عن الملابس التى يرتديانها .

ونهضت ، نصف عارية .. لقد أصبحت بيضاء .. هل هى التى تعرت ؟ أم هو الذى جردها من ملابسها ؟ انى أرى فخذيها العريضين ، وبطنها الغض الذى يضىء كالقمر فى الغرفة المظلمة ، يحيط به خط أسود طويل ، انها ذراع الرجل .. وفمه بجوار فمها ، وأخذها فى أحضانه واعتصرها وهو جالس على الأريكة ، وأخذ شفتيها بين شفتيه فى قبلة وحشية ، وبجسده الأسمر جلس على ركبتيه أمام جسدها الشاحب ، وتركت هى نظراتها تنساب عليه ... ثم همست بصوت تملأه الفرحة :

« خذنى ، خذنى مرة أخرى ، خذنى بقوة عن ذى قبل ، أن جسدى ملكى ، وسأهبه لك ، لا ؟ انه ليس لى ، لذلك أقدمه لك وأنا راضية ! »

ومددها على ركبتيه ، وأظن أنها عارية تماما ، فليس فى مقدورى أن أميز الخطوط والأشكال .

ولكن رأسها ملقى الى الخلف ، تعكسه النافذة ، وأرى وجهها فى الظلام حيث تتألق عيناها وفمها أيضا . هذا الوجه الذى ينيره الحب !

وأخذها عليه عاري أيضا ، ووسط هذا الرضا المتبادل والمشترك ، كان هناك نوع من الصراع ، صراع مقدس وضاري ، وتأثر غير عادي يسودهما . ومع أني لم أره فقد عرفت اللحظة التي دخل فيها لحمه في لحمها .

وأنا .. شعرت كأن عضلات كتفي وصلبي تسحقان وتصلبت في موضعي ، ولكنني تغلبت عليها واستطعت أن أبسطها على الحائط ، وألصقت عيني بالثغرة الصغيرة لأمتع نظري بهذا المشهد الرائع الشنيع ، وأقبله بكل وجهي ، وأعانقه بكل كياني ، وكان الحائط يردد خفقات قلبي .

وكان يطوق كل منهمـا الآخر ، ويهتزان كشجرتين متداخلتين ، تأخذهما لذة الشهوة ، بعيدا عن كل شيء ، عن القوانين ، وعن اخلاص العاشقين ، تلك الشهوة التي تحاول انجاز عملها ، عملها الخلقي الذي يتميز بحدة الطبع والشؤم ، عملها المشين .

وأعترف ، على الأقل ، أن الله لا يرضى أن يميت المخلوقات ، وأن يمنعهم عما يرتكبون !

وبرغم أنهما كانا متشابكين ، فقد رفع رأسه وألقاها الى الخلف ، في ضوء مكنني من أن أرى هذا الوجه ، فاغرا فاه ، عن أنات متقطعة منغومة منتظرا قمة الشهوة .

ووصلت الشهوة بلذتها ، متخفية ولا صوت لها ، استطعت أن أحدد وقتها ، وقت وصولها كحدث جلل ، وكنت أعد حتى الرقم أربعة خلال هذه الفترة ، ولم أترك وجهه يغيب عن عيني ، وهو بجسـده الأسمر ، رافعا احدى يديه كأنه يضرب في الهواء ، كان يبتسم ويبدو كأنه شهيد ، أو كملاك تلقى أمرا ساميا ودار حول نفسه في وجل ثم انطلق طائرا .

ثم أخذ يطلق صيحات قصيرة خافتة ، صيحات فيها عجب ودهشة ، كأنه رأى شيئا جميلا لا يتوقعه قد بهره جماله ، وهو لا يصدق ما هو فيه ، وما يتمتع به من فرط سروره وفرحته .

وفي هذه اللحظة زاد انصهارهما روحا وجسدا ، وهي ؟ ربما لم تكن سعيدة ، ولكن لامراء في أنها تتمتع بما تحسه من لذة ، وبما تشعر به من انسجام ، ولكن هناك معجزة أنثوية يصعب وصفها والتعبير عنها .

ولما سألته . « أسعيد أنت ؟ » تملكني شعور غريب فقد خيل الى أنها توجه الى هذا السؤال ! وكنت تقريبا على حق في هذا الاحساس ، طالما كنت الى جوار فمها العاري ، نعم ، انها تتحدث الى .

وهمس ، وهو ما زال شاخصا الى السماء ، ولحمه لم يزل موثوقا بلحمها • « أقسم أن هذا هو كل شيء في الوجود ! » •

وحالما شعرت بانتهاء السعادة التي كانت تغمرها ، ستذهب عنها ، وأن وهمها سيحتجب عنها ويتركها ، قالت حينئذ وكأنها تنتحب:«فليبارك الله البقية الباقية لنا من تلك اللذة وهذا السرور ! » ••

صيحة بائسة •• رجاء مهين وشائن ، هذه أولى بوادر السقوط الكبير • أما هو فكان يردد بطريقة آلية : « كل ما في الوجود ! » ••• ها هما صديقا الشهوة قد أنحطت قواهما ، وأشبع الرجل رغبته •

ولمحت على وجهه علامات الندم والألم التي تسببت له في الاعياء ، وفي اقصائه عن جثة هذه المرأة التي لا تحس هذا البعد : لم تكن مثله ، لقد نضت عنها فجأة لذتها ، وأيقنت أنه لم يكن يبحث أو يأمل في شيء أبعد من ذلك ••• وأنه حقق مآربه •• وامعنت هي الفكر ، ولم يساورها الشك في أن هذا سينتهي في يوم من الأيام ، وأن ما يخفيه القدر لها لن يكون أفضل مما مضى •

وفي هذه اللحظة ، كما يبدو لي من شدة تبصري بالأشياء ومن متابعة الجزر التي تطرأ على فرحتهما تارة وعلى حزنهما تارة أخرى ، وما يملأ عينيهما من عبارات : وقال وهو يئن :

« كل شيء في الوجود » وصاح « آه ! هذا لا شيء ، لا شيء مطلقا!»، فكل منهما يشعر كأنه غريب عن الآخر وتطوف نفس الخواطر بذهنيهما ، وبينما لا تزال هي مستندة اليه بجسدها ، كانت نظراتها اليه ـ بلفتة من عينيها ـ تتنقل بينه وبين بندول الساعة وبين الباب ، كأنها تفكر في الانصراف •

ولما كان فمه قريبا من فم عشيقته ، فقد نحى وجهه بلطف ـ (وكنت أنا وحدي أستطيع ملاحظة ذلك) ـ بانقباضة خفيفة علت وجهه نتيجة لانحراف مزاجه ، لقد جنى زهورا كان متعطشا اليها قبلات كانت تحبس في هذا الفم منذ دقائق كأنها حبست في تابوت •• ثم نطقت •• نطقت الآن فقط ، بثغرها المسكين ، أجابت على ما قاله لها من قبل المتعة التي كانا يعيشان فيها : « لا ، انك لن تستمر على حبي ، ولن تدوم لي دائما ، وستتركني ومع ذلك فلست آسفة أو نادمة على شيء ، وبعد هذه اللحظة التي جمعت بيننا ، وعندما أعود الى حزني الكبير ، الذي لن يخيفني بعد ذلك سأقول لنفسي :

« كان لي حبيبا ! » وسأنضو عني شعور الندم ، لأعيش لحظات سعيدة » •

وهو صامت لا يريد ولا يستطيع الاجابة ، ولكنه تمتم قائلا :

ـ « لماذا تشكين فى ؟ » ، ولكن نظراتهما اتجهت الى النافذة ، ان جسديهما قد أثلجا وتولاهما الخوف ، ينظران بعيدا الى المنازل التى تظهر من النافذة ، وبقايا الشفق الذى ولى الأدبار هاربا كأنه سفينة قد حققت نصرا ، وكما أرى فان النافذة قد أصبحت طرفا ثالثا لها دورها فى هذا المشهد ، وهما يتأملانها : كبيرة ، باهتة ، كل شىء حولها قد تبدد ، بعد التوتر الشهواني الممل ، واللذة الدنسة الصغيرة ، ظلا محطمين أمام زرقة السماء دون نور ، ثم تلاقت نظراتهما ، **فقالت :**

« ألا ترى أننا نجلس بمفردنا ، وحيدين ككلبين ينظر كل منهما للآخر ، ويتأمل كل منهما حال الآخر ! » ، وتداعت يداهما ، وامتنعت ملاطفاتهما وتوقفت ، وسكن عناقهما وهدأ ، وخار لحمهما ، وابتعدا عن بعضهما ، وجلست هى على الأريكة ، وهو على مقعد آخر ، يكسو الحزن وجهه ، وتتباعد ساقاه وتهدل بنطلونه وهو يلهث ببطء ، تدنسه المتعة التى لا حياة فيها ٠

وانفغر فاه ، وتقلص وجهه وانكمش ، كما بدا ذالك واضحا على قسمات وجهه ، ويمكن أن يقال أن الهزال قد أصابه فى لحظة وعـاد الى سابق عهده كهيكل عظمى ، لقد بذل جهدا شاقا ومضنيا ، وبالرغم من الصمت الذى يلوذ به ، فقد بدت عليه الرغبة فى الصياح ليملأ ذرات أعماق هذا الظلام ٠

وتشابه الاثنان فى كل شىء ، ليس بوجهيهما فقط ، بل أيضـا ببؤسهما !

وغرقا فى ظلام دامس ، لم يمكننى من رؤيتهما جيدا ، ولكم كانت دهشتى عندما تنبهت الى أنى أراهما حتى الآن ! وكان حتميا أن يحميا جسديهما وروحيهما ، يخلع عليهما نوع من النور ٠٠

فأين الله اذن ؟ أين الله ؟ لماذا لم يتدخل فى هذه الأزمة المشينة ؟ لماذا لم يتصدى لهذه المعجزة المخيفة ؟ لماذا ؟ باحدى معجزاته ، بعد أن أصبح ممقوتا ومبغضا ـ ان آجلا أو عاجلا ـ ما كان يستحق العبادة ؟!

لم يحفظ هذا الرجل من حداد أحلامه ، ومن أحزان شهواته وسآمتها التى مزقت جسده ولحمه ، وكان وقعها عليه وقعا مهينا وسافرا !

« كل شىء ! ، لا شىء ! » هاتان العبارتان لهما صدى يرن فى أذنى ، دون ولولة أو صياح ، بل كانتا بصوت خافت ميزته بصعوبة ، يعبر عن عواطفهما ، وعن الفارق الذى يفصل بينهما » ٠

وربما لأني رجل مثله ، وككل رجل ، وربما لأن كل ما هو عنيف وحيواني ، يستحوذ على انتباهي فى لحظة كهذه ، يرهبنى التراجع الذى لا مفر منه أمام اغراء الجسد واللحم !

من يعرف ؟ ومن يدرى ؟ ان المرء يجب عليه أن يسمو على الآخرين مثلى ، ويجب عليه ألا يجاريهم فقط ، بل وينعزل أيضا عنهم حتى يمكنه أن يرى الاندماج وهو يتفكك ويرى الابتسامة وهى تتحول الى كـرب وحسرة ، لأن المرء ان لم يجرب هذا وذاك ، فلن يتعلم شيئا ، ولن يكتسب شيئا من الحياة ، وسيتخبط فى دروبها ، وينهض من هوة لتتلقفه أخرى ·

ويدل على ذلك ، ما سمعته من صيحة الرجل « كل شيء ولا شيء » ! « وهذا هو المرء الذى يناقض نفسه وأملى الوحيد أن يعى الجميع ذلك ؟ ولكن ·· من سيعيه فمهما تكن الكلمات والعبارات ، ومهما يكن التوافق والتناسب بينها ، ومهما جمدت وتيرة الحياة الراسخة منذ أجيال وكذلك المواهب والعبقرية ، على مفارق هذه الصفات ، فيبدو أنهما حرما كل هذا ·

وأنجح طريقة لنشر هذا ، هى عمل أدبى ، ليعرفه الجميع ، الخاصة منهم والعامة فالهدف الوحيد هو الاشارة الى القوة الخلاقة لأفكارنا وآمالنا ، ففى اللحظة التى تتجلى فيها هذه القوة الخلاقة ويتبلور جوهرها ، سوف يحدث انقلابا هاما فى كل من مفهوم الحقيقة والوجود ·

ما هو الشيء ، وما هى الصدفة التى لها قيمة كبيرة يمكن أن نهبها الى هذين العاشقين هذه هى قصتهما الوحيدة بل هى واحدة من القصص العديدة ·

سيحاول كل منهما أن يقاوم حياته ، ويصارع مصيره ، بكل ما أوتى من قوة ومقدرة ، حتى ينتصر فى النهـاية على الموت ·· ومن جديد ، سيبحثان فى جسديهما المختلطين عن تفريج لكربهمـــا ، وخلاص من حسرتهمــــا ·

ومن جديد أيضا ، ستشدهما سكرات الاثم الفانية ، التى تتملك الجسد كأنه شريحة من اللحم ، ··· ومرات أخرى ستحلق أحلامهما ، وسيصبغ الشـك رغبتهما الجنـونية بالفراق ، وسيسمو انحطاطهما ، ويتعطر جسداهما الآثمان ، وستتطهر أجزاءهما الملعونة والأكثر ضلالة ، والتى يمارسان بها ارتكاب آثامهما ، وأعمالهما الضالة الملوثة ·· وفى برهة قصيرة ستحل عليهما لحظة يصبحان فيها أهلا للعزاء ·

وكذلك سيقتص كبرياؤهما منهما ، اذا ما خلطا بين الرغبة والشهوة من ناحية ، و « اللا محدود » من ناحية أخـــرى ·

آه !اني غير آسف أو نادم على أني هتكت هذا السر الكبير والبسيط، فربما يكون هذا هو مجدى الوحيد ، أني قبلت هذا المشهد ، وطوقته ولثمته في كل خطواته ، وفهمت منه أن الحقيقة الحية أكثر حزنا وأكثر اكبارا مما كنت أعتقد من قبل ٠

٦

انتهى كل شيء وانصرفا ، واختفيا حيث لا أدرى ٠ ويخيل الى أن زوجها لابد أن يأت ليبحث عنها ، انني لست على يقين مما قالاه ، فلست واثق ان كنت قد فهمت أم لا !

وأخذت أطوف بغرفتي ، بعد أن أصبحت الغرفة المجاورة خالية ووحيدة ، ثم تناولت العشاء ونادتني الطبيعة الى الخروج ٠٠ فخرجت ٠٠

سرت في الطريق حيث المساكن جامدة ومغلقة ، وكل مكان تقع عليه عيني ، أرى فيه الناس كأنهم يبتعدون عني فلا أرى سوى حوائط ووجـــوه ٠

وجدت نفسي أمام مقهى ، جذبتني اليها أضواؤها الباهرة ، فهذه الأضواء تعجبني ، وأطمئن اليها ، ومع ذلك ، تشعرني بالغربة ٠٠٠ وكان لابد لى من أن أسلك طريقي بين المارة ، لأجلس في هذا المكان العـام ، وأطلب ما أشتهي ٠٠ فذهبت وجلست وأسبلت عيني ٠

فالناس أمامي متجمعين هنا وهناك ، مبتهجين ، بسطاء هادئين ، لا يهتمون بشيء ، وليس لديهم ــ مثلي ــ عمل معين يؤدونه ، وكنت أجلس بمه دى ، وأمامي كوب مملوءة ، أتنقل ببصرى بين الحاضرين ، وهناك ، رأيت فتاة زينت وجهها بالأصباغ ، واضعة على ركبتيها « كلبة » صغيرة تظهر رأسها من خلف المنضدة الرخامية ، وتتسلى بالنظرات والابتسامات التي يرميها المارة على هذه « الكلبة » ٠

وبدا لى من نظراتها أنها تعيرني شيئا من الاهتمام ، فهي ترى أني لا أنتظر أحدا ، وباشارة ، وبكلمة ، جاءت هي ، وهي التي تنتظر الجميع، جاءت وهي تبتسم بكل جسدها ٠٠٠ ولكن لا ٠٠ ليس هذا ما أريد ٠٠٠ فانني أكثر سذاجه منها ، لست في حاجة الى امرأة ، وان كنت قد أخفقت في الحب ، فذلك ليس عن طبيعة ، وانما عن فكر ناضج ٠

اقتربت مني وهي لا تعرف من أنا ! فأشحت بوجهي عنها ٠ انني

لا أهتم بالتأثر السريع للجنس ، الملهاة الجنسية ! ٠٠٠ أراها فى كل مكان ، وعند كل انسان ، عند الرجال ، وعند النساء ، وأعرف ما يصنعون ، يا لها من ملهاة !

وامتزجت رائحة القهوة مع الدخان المتصاعد من السجائر مما جعل الجو خانقا ، كما اختلطت الأصوات مع بعضها محدثة ضوضاء وجلبة : من ارتطام أطباق الفناجين ، ودفع باب الدخول واصطدامه ، وصيحات الدهشة والتعجب الصادرة عن أحد اللاعبين ، واكتست الوجوه بلون أخضر شاحب ، أما وجهى فكان يختلف عن وجوههم ، فكان أكثر تعبيرا عما يراه ، ربما يعلوه من كبرياء ، ولما يريد أن يراه !

وفى الحال دعاها أحدهم مناديا اياها « محبوبة » ٠

ولا أدرى ان كان هذا اسمها ، أم هى حقيقة محبوبته ، لا أعرف شيئا عن التفاصيل أو الأسماء ، وأجهل كل شىء عن هذا النوع ٠

ان الناس تكشف لى عن خباياها ، وأنا أنادى كنه الحياة ، ومع ذلك أحس أنى مفقود ، هائم ، على صفحة الكون ٠

ومن خلال زجاج المقهى رأيت خيالا لرجل يسير فى الطريق ، عرفت فيه أحد نزلاء البنسيون الذى أقيم فيه ، فتراجعت بمقعدى الى الوراء ، فلم أكن فى حالة تسمح لى بالتحدث مع أحد أو الدخول فى مناقشات ، ولم يعترينى هذا الشعور الا فى هذه الأيام الأخيرة ، وأسندت رأسى على يدى المتكئتين على المنضدة ، حتى لا يتعرف على أحد من هؤلاء اذا ما ألقت بهم الصدفة فى طريقى ٠

تركت المقهى ، وأخذت أجوب الطرقات متنقلا من شارع الى آخر ، ومرت أمامى امرأة ، وبطريقة لا ارادية تبعتها ، كانت ترتدى ثوبا يميل الى الزرقة الداكنة ، وتضع على رأسها قبعة كبيرة زرقاء ، وكانت متميزة بمشيتها المرتبكة ، وثوبها ينحسر عن ساقيها بطريقة بلهاء ، تظهر ساقيها الرقيقتين ، وحذاءها المكشوف ، وجوربها الأسود الشفاف ٠

واذا ما قابلتنى غيرها ، أنظر اليها متفرسا ٠٠ وهناك امرأة ثالثة تعبر الطريق مرتدية ثوبا رماديا ، وخفق قلبى ، كأنه استيقظ من سباته وأفاق من رقدته ٠٠

اننى رجل كغيرى من الرجال ، لى نزواتى ، ورغباتى المكبوتة ، وفى الطريق الطويل حيث خيم الظلام ، وحيث كنت أسير ، ولا أعرف الى أين ، تملكتنى رغبة فى أن أقترب من جسد امرأة ٠٠

وهذه امرأة تكاد تمس الحائط ، تسير قريبة منى ، فتطلعت اليها وتخيلتها وهى عارية تماما ، لها قدمين صغيرتين ، لم أر مثلهما ، وتتشح

بوشاح خفيف وصغير ، وتحمل فى يدها ربطة صغيرة ، وتنحنى قليلا الى الأمام ، وتسير مسرعة كأنها تريد أن تسبق نفسها ٠٠ فتحت هذا الظل الحزين ، يكمن جسد من نور يشع أمام عينى ، ثم اختفى فى طيات أمواج الظلام التى تهتز برقة ٠٠٠ وكنت أفكر فى جمال نجمة ، يتمثل فى خصلات شعرها اللامعة التى تنسدل من تحت قبعتها النحيفة ٠٠٠ كما تخفى تحت قسمات وجهها الجادة ابتسامة عريضة ٠

ولبثت متسمرا وسط الرصيف بضع لحظات ، حتى ابتعد طيف المرأة ، ولحسن حظى لم تلتق عيناى بعينيها فان كان قد حدث لكان ذلك سببا فى آلام عظيمة لى ٠

ومن بعيد وقع نظرى على فتاة تجلس فى الترام وقد تعرت قليلا وتجمع ثوبها تحتها فكشف عنها كلها ، ولكن اعترضتنى سيارة ، فتسلل الترام واختفى كأنه كابوس ٠

وبوجه عام كان الطريق يعج بالسيدات من كل لون ومن كل نوع ، فمنهن اللاتى ترتدين ملابس خفيفة ، ومنهن من تقدمن أنفسهن ، ومنهن من تقصر أو تطول ملابسهن ، بحيث كان هناك توازن بينهن ٠

وأثناء سيرى ، فاذا بى أمام احدى المرايا ، فنظرت الى نفسى والى وجهى الذى كان شاحبا ، والى عينى المجهدتين ٠

اننى لا أريد امرأة واحدة فقط ، بل أريد كل النساء ، اشتهيتهن جميعا ، أبحث عنهن الواحدة بعد الأخرى ، كل منهن تمر أمامى رائحة غادية ، كأنها تقصدنى وتقترب منى ، ثم لا تلبث أن تتحول عنى ٠

أصبحت مغلوبا على أمرى ، وأذعنت لحكم الصدفة ، وتتبعت امرأة ، كانت ترمقنى من ركن عينيها ، ثم سرنا جنبا الى جنب ، وأمام المدخل ، عندما فتحت الباب اعترانى شعور بالمثالية اختلج له كل جسدى ، واستسلمت ، استسلمت لهذا الفعل الذى يأتيه الجميع ٠٠٠ وانتهى كل شىء بسرعة ولم يستغرق وقتا طويلا ٠

وجدت نفسى من جديد أسير على الرصيف ، ولم أهدأ كما كنت أتوقع ، بل على العكس من ذلك ، كنت أشعر بارتباك عميق ، وكان يقال عنى ، أنى لا أرى الأشياء على حقيقتها ، بل انى أراها كثيرة ومن بعيد ٠٠٠ ماذا هناك اذن ؟!

جلست على احدى المقاعد ، متعبا ، وقد أعيانى ثقل همى ، وبدأت السماء تهطل ، وأسرع المارة ، ووضع بعضهم مظلة على رأسه لتقيه مياه المطر ، وتتساقط قطرات الماء بغزارة وسط الطريق وعلى الأرصفة السوداء

اللامعة ، وخيم شيء من الصمت والهدوء ··· لشد ما يضايقنى أن أتخيل شيئا ، أو أحلم بشيء لا أحتمله !

يا لشقاء الذين يفكرون فيما لا يملكون ! لديهم العقل ، ولديهم الأسباب ، وهم بذلك يختلفون عن الآخرين ، فالبسطاء منهم ، والمتواضعون والضعفاء ، لا يعيرون اهتماما بما ليس لهم ، فهم يتقربون لبعضهم جماعات وفرادى ، دون توجس أو حزن ، (كذلك ذوو النفوس الصغيرة لا يتمنون الا الأشياء الصغيرة) ، ولكن ما موقف غيرهم ؟ ··· وأنا · !

أسرقة هي ، اذا ما رغبت في حيازة شيء ليس لى ؟! يكفينى أن أرى بعضهم يتنازعون عن ايمان من أعماقهم ، ليثبت اعتقادى بأن المرء يشبه الأرض في دورانها حول نفسها ؟

يا للأسف ! يا للأسف ! اننى لم أتعلم هذه البساطة الرهيبة فحسب ، بل جذبتنى أيضا فى مدارها ، فقد لحقت بى عدواها ، وازدادت رغبتى امتدادا وازدادت خطورة ، كنت أرنو الى أن أعيش الحياة بأنواعها ، وأثقل القلوب جميعها ، كان يخيل الى أن ما ليس لى ، سيتوارى عن عينى وسأظل وحيدا مهجورا ·

وجثمت على أحد المقاعد أحتمى به من هبة ريح قوية ، فى هذا الطريق الذى أصبح موحشا ، يموج بالأمطار ·· وتسرب اليأس الى نفسى ، لأنى انسان طيب وأحب كل شيء ·

آه ! لقد تجلى لى الآن كيف سيكون عقابى ، لاطلاعى على أسرار الناس ، وسأعاقب بقدر ما أذنبت ، سأعانى من الشقاء « اللا محدود » كذلك الذى أراه عند الآخرين سيكون عقابى على كل سر يستباح ، ولكل امرأة تمر ·

اننا لا نفهم ما هو « اللا محدود » ، اننا نضعه بارادتنا لبعض الأبطال الروائيين ، نتزين به كأنه حلة من حلل المسرح ، باستثناء « هملت » ··· فاللا محدود يعيش خامدا داخل هذا الرجل ، كما عكست لى المرآة التى وقفت أمامها منذ قليل فى الطريق ، وكما كان الناس يتطلعون الى فى صورتى المهزوزة ووجهى المعهود ، واسمى ، وكنت أتمنى ان أنال كل ما ليس لدى ··· وهكذا أمضى بخطى متئدة فى طريق « اللا محدود » هائما ، لا يحدنى أفق ، كأنى جرم من الأجرام السماوية ··· يهيم دون توقف ·· لأنه ليس هناك ما يدعوه لذلك !

ورفعت عينى التائهتين ، متألما من الخطأ ، أشعر بشقاء عظيم واذا

ما بكى المستحيل ، أشعر به كأنه يفتديني ، ولكنني لا أومن بالاعتداء ، لا أومن بهذه الأشياء المختلفة دينية كانت أم أخـلاقية ، انى أتألم فى أعماقى ، ولا غرو فى أن سمات الشهيد ترتسم على وجهى ٠

اذن ، فيجـدر بى أن أعود لأملأ فراغ هـذا الشهيد وأتأمله دون انقطاع ، وعوضا عن افتقاد الوقت فى الفراغ الذى يملكه الجميع ، يجمل بى أيضا أن أعود الى حجرتى الحية ٠

وقضيت يومين يملأهما الفراغ ، أنظر الى الأشياء ، ولا أرى شيئا ، وبدأت أستحث الأحداث ، وبعد مشقة تمكنت من الحصول على بعض الأيام جعلتها للراحة ، ولأنسى نفسى أيضا ٠

ومكثت بين حوائط هذه الغرفة هادئا محموما ، وليس لى عمل ، كأنى سجين ، أتمشى فيها وعيناى معلقتان بالفجوة الصغيرة التى لا أجرؤ على الابتعاد عنها ٠

ومرت الساعات طوالا ، وما أن حل المساء حتى بدوت مرهقا تعيينى الأفكار ، ويرهقنى الانتظار ٠

فى مساء اليوم التالى ، استيقظت فجأة ، وشعرت برعشة ، كانت غرفتى باردة كبرودة الطريق ، ووضعت يدى على الحائط لأتحسسه ، فكان باردا كمن لا حياة فيه ، ونظرت الى الغرفـة المجاورة ، وكـان (شيشها) مفتوحا ، مثل شيش نافذتى ، وانعكس عليه بصيص من ضوء القمر ، ولبثت واقفا فى المكان المعهود ، يغلب على النعاس ، متأثرا بهذا الجو الذى يميل الى الزرقة الفاتحة ، كتأثير التنويم المغناطيسى على شخص من الأشخاص فلم أهتم بالبرودة التى كانت تملأ المكان ٠٠ لا شيء ٠٠ اننىأشعر بالوحدة ٠

واخيرا هبت عاصفة كانت تنذر من قبل ، وزمجرت الريح شديدة عاتية فى كل مكان ، وملأ السماء قصف الرعد ، وهطلت الأمطار ٠

واشتد سقوط المطر شيئا فشيئا ، والريح تهب ، وحجبت القمر كثافة السحب واتشح كل شيء من حولى بظلام دامس ٠

واهتز مئزر المدفأة ، ثم توقف ، وكما لم أعرف لماذا استيقظت ، ولم جئت ، بقيت فى هذه الظلمة الحالكة ، طيلة الليل ، والكون يبدو لى كأنه حائط عظيم يحجب عنى نور الدنيـــا ٠

صدرت ضوضاء خفيفة من الحجرة المجاورة السابحة فى الظلمـة

الحالكة وحدثتني نفسي أن هذه الضوضاء صادرة عن العاصفة التي هبت ٠٠ لا ٠٠ فهناك دمدمة ، دمدمة قريبة جدا ووقع أقدام ٠

وأخيرا ، ها هي الحياة قد دبت في الحجرة ! وها هي حواسي لم تخدعني ، ومن شدة فرحتي أخذت أقبل السرير بشدة ٠

وبذلت عيناي جهدا شاقا حتى تريا ، ولكن الظلام حال بيني وبين ذلك ، ولكني تمكنت بعد مشقة ، في أعماق هذا الظلام الحالك من أن أتحقق من النافذة ، ولست على يقين ان كانت هي ، أم أن حواسي قد خدعتني !؟

وتناهت الضوضاء ثانية الى أذني أكثر وضوحا عن ذي قبل هناك خطوات ، نعم خطوات ، ووقع أقدام ٠٠٠ وصوت صادر عن ارتطام أشياء ، واصوات متقطعة غير مفهومة تقطع هذا السكون الذي يفرض نفسه على ٠

ومرت لحظة ، وتطرق الشك الى نفسي ، وتساءلت ٠٠ ربما تكون ارهاصات وتهيؤات صادرة عن خفقان قلبي ؟ ولكن وصلت الى أذني نبرات صوت آدمي ٠٠٠ كم هي خافتة هذه النبرات ! وعلى وتيرة واحدة! كأنها تنشد لحنا ربانيا أو قصيدة شعرية ٠٠٠ وحبست أنفاسي على أتمكن من تمييز هذه الأصوات ، والحياة التي دبت في الغرفة ٠

لقد ازدوج الصوت ٠٠٠ ! صوتان متجاوبان تشوبهما رنة حزينة ، حالهما كحال الأصوات التي تنساب خافتة في نغمات يملؤها الشجن ٠٠ لا شك أني أمام عاشقين جديدين ، يلجآن الى هذه الغرفة الخالية لفترة من الوقت ٠٠ اذن فهناك مخلوقان ، يجذب أحدهما الآخر ، تضمهما هذه الغرفة التي يكتنفها الظلام ، وتجمعهما الخلوة ، وتنتظرهما الهوة المجهولة، ولا يوجد ما يساعد على رؤيتهما بوضوح ، ورغما عن ذلك فقد شعرت بحركاتهما ، كما أشعر بحركات قلبي بين أضلعي ٠

وتحول كل انتباهي الى هذين الجسدين ، ولكن دون جدوى ، فقد أعماني الليل ، وعاقني عن الرؤية ٠

وبعد لحظة خيل الى أني أرى شبحا ، شبح حالك السواد ، يظهر أمام النافذة وكأن الليل والظلمة الحالكة ثابتان لا يتحركان ! أين هما ؟ أين كانا ؟ ماذا يفعلان ؟

وأخيرا ، انفجرت دياجير الظلام ببنت شفة ، نطق بها آدمي ، وهذه الكلمة هي : « مرة أخرى ! » ٠

« مرة أخرى » ، أرشدتني هذه العبارة اليهما ، فهذه العبارة لا ينطق بها الا لحمهما ! ويبدو وجهاهما عاريين بعيدين عن الظلام ٠

ومن بين الهمسات التي تبادلانها والتي تمتزج بشيء من المقاومة نبعت عبارة أخرى من صوت تغمر نبراته السعادة : « واذا عرفوا ! واذا علم أحد ! » وتكررت هذه العبارة الى أن تلاشت ، وحلت محلها ضحكة عالية رنانة ، وصوت آخر استطعت أن أميزه ، صوت صادر عن قبلة ، بزغت من أعماق الظلال الكثيفة التي تسبح فيها الغرفة ٠

وظهر فجأة وميض خاطف أضاء الحجرة بنور أصفر ثم اختفى ، وعاد الظلام ثانية ، وعلى نور هذا الوميض استطاعت نظراتي أن تغزو الغرفة ، ومع ذلك لم يقع نظرى عليهما ، فربما لجآ الى أحد أركان الغرفة أم أن الظلام قد ابتلعهما في جعبته ٠

ولم ينقطعا عن ترديد هذه العبارة : « واذا عرف أحد ! اذا عرف أحد ! ولم يفطنا الى النور الذى ومض واختفى ٠

لماذا انتابهما مثل هذا الخوف ؟! وما الذى يدعو اليه ؟ ولم يريدان الانفراد ببعضهما !؟ أليطلقا مثل هذه الصيحة التي تشبه الى حد ما صيحة استغاثة ؟ هل يستتران عن الأعين ليرتكبا احدى الرذائل الممقوتة ؟

آه ٠٠٠ يا لها من طعنة حادة تلقيتها في قلبي ! ان الصوتين يتشابهان تمام الشبه ! آه ٠٠ لقد فهمت ،انني أمام امرأتين تعشق كل منهما الأخرى ، وقد جاءتا الى هذه الغرفة المظلمة لممارسة شذوذهما ٠

أذكر أنني لم أعتمد مطلقا طوال حياتي على الليل مثل هؤلاء العشاق الهاجعين على فراش من الظلام ٠

وأحسست أن هناك رجفة مبهمة تستولى عليهما ، فقد همس أحد الصوتين : « ان الله يرانا ! الله يرانا ! » هما أيضا في حاجة الى أن يراهما الله !؟ هل ليزين لهما ما هما فيه وهما آسفتين تطلبان منه العون ؟!

وتسرب الشك الى نفسي ، انهما امرأتان ، ولكن يخيل الى أن الصوت الذى أسمعه صوت ذكر ، لا صوت أنثى ، وأخذت أقارن بينها وبين نغماتها وحاولت جاهدا أن أتخلص من هذا الظلام ٠

ثم سمعت ، وبوضوح ، التوسلات التي بدأت تلوح وتظهر ، تسابق الكلمات بعضها بعضا ، خافتة هادئة ، تعتصرها شفاه تبللها القبلات الدامية ٠

« أتريدين ، هل ترغبين ؟ » : ويحتل هذا السؤال مكانة هامة عند الفم الذى ينطق به ، سؤال من انسان يهب نفسه وهو متوتر فاغرا فاه .

وأجاب صوت قوى كضربات جناح طائر :

ــ « نعم » .

وتمتم الصوت الآخر :

ــ « آه ! » .

أن السؤال الذى يدور فى خلدى ويحيرنى : من أى نوع هذا الثنائى ؟ وعلى أى شكل ؟ وأى صيغة من صيغ الحب هذه ؟ ماهى وسيلتهما ليمارسا حبهما ؟! .. ونفضت عن نفسى هذا القلق وتلك الريبة ، ورأيت أنى أمام أكبر مأساة للحب .

ولكن هناك حقيقة واحدة هى أنهما متحابتان ، سواء حلت عليهما البركة أو اللعنة وسواء كانا فى حالة طبيعية أو شاذة ، وكل منهما تمتلك الآخرى ! ولا أهمية لغير ذلك .

تلتقيان فى الظلام هربا من عيون الدخلاء ، كأنهما تلتفان فى ملاءات تشبه الأكفان ، لقد حكمتا على نفسيهما بالسجن وتصبان جام غضبهما على الأيام وتهربان منها عقابا للشرف والأمانة .

« ماذا لو عرف أحد ؟ » انهما تكرران هذه العبارة كلما صدرت عنهما صيحات مكتومة ، أو بكاء أو ضحكات ، تتفاخران بتوحدهما فتارة تمجدانه وأخرى تدللانه ، ولا تلويان على شىء مما حولهما ، فليس للقانون أو الطبيعة ، أو التضحيات أو العدم من حساب عندهما .

وتحاولان جاهدتين أن تمتزجا ببعضهما ، وارتطمت الجبهتان العاجيبتان ببعضهما ، وكل مشغولة بجسدها ، تعبث يداهما وتتحس رغبة فى ايقاظ الشهوة النائمة فى ثغريهما المطبقين على بعضهما ، وفى قلبيهما البكماويين الأعميين .

أن العشاق جميعهم يتشابهون ، فبمحض الصداقة،يعجب كل منهما بالآخر ، وتلعب قسمات وجوههم دورا هاما فى هذا الاعجاب ، وتتسبب فى ارتباط كل منهم بالآخر ثم بعد اختيار شره ، شراهة تبلغ حد الجنون، يغيرون وجه الحقيقة ، فيجعلون الحقيقة باطلا والباطل حقيقة .

وفى هذه الأثناء تطرق الى أذنى همس ممزق :« أنت لى ، أنت لى ، اننى امتلكك وآخذك لى .. ــ نعم ، اننى لك » ..

ها هو الحب على قيد أنملة منى ، يرسل لهاثه الى وجهى فى غدوته ورواحه ، وكذلك أنفاس الحياة الحارة ، هذه الأنفاس واللهثات هى التى تقوم باتمام عملية الحب وجنونه ٠

وبدا الحديث مرة ثانية رقيقا حلوا ، وأكثر هدوءا ، وأنصت اليه جيدا كما لو كان موجها الى ، بدأ هذا الحديث بعبارة حالمة مرتعشة : « اننى أبغض النهار ، ولكنى أحب الليل » ٠

وبدت عليهما أمارات التفكير المشتت ، وأصابهما الوجوم ، كمن ارتوى وأشبع رغبته فأحيانا أجد معنى لكلماتهما وأحيانا أخرى لا أجد لها معنى ، وقد تقارب فوههما وشتاهما ٠

« ففى النهار ، يشعر الانسان بالتيه والفرقة ، بينما الليـل هو الوئام التـام » وأجاب الصوت الآخر :

ـ آه ، كم أتوق الى محبة النهار !

ـ ربما ٠٠ ربما يتحقق ذلك مستقبلا »

وكانت الكلمات ترن رنينا طويلا ولها صدى بعيدا ٠ ثم استطرد الصوت قائلا :

ـ قريـــبا

ـ ياالهى ! « قالها الصوت الآخر مختلجا باختلاجة أقل ٠

واستمعت الى شكواهما كسائر الشكاوى التى تنتشر فى موضوعاتها ٠

وقالت المرأة كأنها تئن : « أنا ٠٠ أنا التى كانت ترنو دائما الى حياة مشرقة !»

وتبادلتا بعض العبارات لم أسمعها جيدا ، من بدايتها ، ولم أتمكن من ربطها ببعضهـا ، تحدثتا عن مروج خضراء تسطع عليها الشمس ، وبساتين ذات حشائش خضراء قاتمة ، وممرات ذهبية كبيرة ، وأحواض زهور تخطف الأبصار فاذا ما وقعت عليهـا الشمس بأشعتها الذهبيـة لا يستطيع المرء أن ينظر اليها ٠

واستضاءتا بهـذه الظلال ، تفكران فى النهـار الذى أصبح لهما ، فكانتا تشبهان الصيف فى تباشيره ، والسماء فى زرقتها الباهتة ٠

وتحدثتا أيضا عن الشمس ، ثم بدأ الصوت يخبو شيئا فشيئا حتى خبا تماما ، وبعد فترة صمت طويلة ورهيبة سمعت « آه لو تعرفى كم

يضفى الحب عليك من بهاء ، وتضىء الابتسامة وجهك ! » وبعد ذلك توارى كل شىء ولم تبق سوى هذه الابتسامة .

ثم انتقلنا بعد ذلك الى الحديث ، صورتا ألوانا من حياتهما ، دون أدنى تغيير فى أنوارها وتجاذبتا الحديث عن صالونات ومرايا ومصابيح تطوقهاالزهور وعن أعياد احتفلتـــا بها فى زوارق تنزلق على ســطح المياه الهادئة فى ظلمة الليل ، تتطاير البالونات الملونة فوقها : زرقاء وخضراء وحمراء فكانت تبدو مظلة تستظل بهـــا ســيدة فى أحد البساتين من حرارة الشمس .

وخيم السكون مرة أخرى . ارتفع أحد الصوتين فى نبرة يملؤها الرجاء والتوسل تعبر عن مدى الضيق ومدى الحاجة الى تحقيق الحلم الى درجة الجنون : « ان الحمى أصابتنى ، ويخيل الى اننى أحمل الشمس على راحتى » .

ومر الوقت سريعـــا

« أتبكين ! خدك مبلل كفمك » . وقالت احدى المبتهلتين : اننا لا نحلم بمثل هذا مطلقـــا ، ولا بهذا النور الذى لا نراه فى الأحـــلام عندما نكون معا ، رغما عن وجودنا فى الظلام .

وصاحت الأخرى : سنراه فى يوم من الأيام ، وهذا الحزن سوف ينتهى .

وأضاف الصوت الآخر مستطردا : « هذا النور متوفر لدينا ، وانت تريه جيدا ! » .

ثم قالتا فى مرارة وندم لا يعرفهما أحد :

ــ آه ! لو علم أحـــد ! ستأكله الغيرة منا ، حتى الأشقياء منهم والسعداء . ثم عادتا الى قولهما : « الله يرانا » .

ان أهل الظلام والليل يحلمون دائما بأن الله يراهم ويعرف خباياهم، ويلمس تصرفاتهم بنور من عنده ، ونفوسهم المطوقة التى تعيش بطريقة يصعب على المرء ادراكها .

ثم سمعت هذه الكلمة « دائمـــا » .

وأخمن أن هاتين المخلوقتين المراهقتين اللتين لا تكرهان على شىء متحدثين تحت الفراش الى جوار بعضهمـــا البعض ، كأشبـــاح الموتى : « دائما » ! هذه الكلمة العجيبة لا تفارق ثغريهما وتفوق قوة البشر .

وكما تتشـــابه القلوب ، يتشابه الفكر الانسانى ، فنجــده ملء بالغموض والابهام ، ونجد الدماء قاتمة كسواد الليل ، والنيل شبيه بالرغبـــة ٠

فالعاشقتان تطوق كل منهما للأخرى ، وكأن كل منهما تدافع عن نفسها ، وتقولان : « أحبك » ، وتنتظران ، ثم تبكيان ، وتتألمان ، وتقولان أيضا : « اننا سعيدتان ! » ٠

وابتعدتا عن بعضهما ، مسترخيتان ، منهوكتا القوى ، والكلمــة المعهودة لا تفارقهما « دائما ! » ٠

وقد ذكرتنى حالتهما تلك ، بقصة «بروميثيه» اله النار فى الأساطير الاغريقية ، (وبروميثيه هذا له قصة فى الأساطير اليونانية ، فهو اله النار ، ابن « تيتان » و « جابيه » وشقيق « أطلس » وهو مؤسس الحضارة الانسانية ، بعد أن صنع الانسان من طمى الأرض وحتى تبعث فيه الحياة ، فقد سرق نار السماء (الشمس) ، وغضب « جوبيتير » وأراد أن يعاقبه على فعلته هذه ، فأرسل اليه « ماندور » وهى « حواء » عند اليونانيين صاحبة « صندوق الآلام » ولكن « تيتان » أحبط المؤامرة المدبرة ٠ وأخيرا قام « فولكان » بصلب « بروميثيه » بالمسامير ــ طوعا لأمر « جوبيتير » ــ على جبال القوقاز ، وسلط عليه نسرا هائلا ــ يقال فى رواية أخرى ان مناقره وجوارحه من المعدن ــ وكان هذا الطائر ينهش كبده وكلما انتهى ، تجدد غيره الى أن أنقذه « هرقل » بأن صوب سهما من سهــام جعبته الى قلب النسر ، فأرداه قتيــلا ، وأنقذ « بروميثيه » ليساعده فى الحصول على التفاحات الذهبية) ٠

كنت أبحث عنهما بعينى ، وأستمع الى أنفاسهما ، وكم كنت أتوق الى رؤيتهما فى هذه المحظة ! فرغبتى الجامحة فى رؤيتهما لا تقل قوة عن رغبتى فى الحياة ٠٠٠ أتوق الى اكتشاف هذه الحركات ، ومعرفة هذه الثورة العارمة التى تجتاح نفسيهما وتلك الجنة التى تسكنانها ، وهذه الوجوه التى تعبق رائحتها الغرفة ٠

ومع هذا ، لم أتمكن من الوصول الى الحقيقة ٠ كنت أرى النافذة من بعيد غير واضحة ، غامضة كطريق ابيض وطويل يمتد فى السمــاء ، تحفه النجوم وسط هذا الظلام الدامس الذى يغمر الحجرة ٠

وخفق صوتاهما الا همســات لم أفهم منها : هل هى صادرة عن رضا ، أم عن شكوى تنتزعانها من بين الشفاه ٠

ثم تلاشى هذا الهمس أيضا ، فهل هجعت كل منهما بعيــدا عن الأخرى ؟ أو ربما رحلتا بكنزيهما الثمين الى مكان آخر ؟

أما العاصـفة التى خيـل الى أنهـا هدأت ، فقد بدأت من جديد واستمـــرت ٠

قاومت الظلمة الحالكة ، ولكنها كانت أقوى وأعظم منى ، الى درجة انها وارتنى وأخفقتنى ، وهجعت الى فراشى مكسور القلب ، وبقيت فى هذا الهدوء المظلم ، واتكأت على مرفقى ثم تلوت الصلاة ، ووجدت نفسى دون شعور أتهته بهذه الكلمة « التضحية » ٠

التضحية ٠٠! ٠٠ لم هذه الصرخة ، صرخة أمل مفزع ، صرخـة شقاء ، صرخـــة عذاب وخوف صرخة تتصاعد منى ، من أحشائى ، الى شفتى ؟!

هكذا دائما تعترف المخلوقات ، مهما تكن العبارات التى يتفوهون بها ، ومثال ذلك هؤلاء الذين شاهدتهم وشـــاهدت مصيرهم بعينى ، وسمعتهم وهم يصرخون هذه الصرخة من أعماقهم ٠

وخلال الأيام التى كنت أنتظر لأتسمع ، ولأرى ، كان هذا ما سمعته ورأيته ٠

هذا هو النداء الذى يخرج من الظلمة الى النور ، باحثا عن الحقيقة الخافية ، وكما يرتفع من كل ناحية ، يسقط أيضا فى كل اتجاه ، هذا هو النداء الذى تملؤه الانسانية يقع على اذنى جهوريا رنانا ٠

أما أنا ، فلست أدرى ماذا أكون أو الى أين أذهب ؟ وماذا أفعل ، وصرخت أنا أيضا ، صرخت من أعماقى طالبا قليلا من نور الحقيقة ٠

٧

وفى صبيحة اليوم التالى ، كانت الغرفـة منداة بندى الصباح ، وكانت « ايميه » مع زوجها قد وصلا لتوهما من السفر ٠ لم أشعر بهما عندما دخلا الغرفة ! فقد كنت مجهدا ٠

كان زوجها جالسا على أحد المقاعد ، وقبعته على رأسه الى جوار الفراش غير المنظم ، ولكنى تمكنت من تمييز ظل محدد لجسد أو جسدين؟

أما هى فقد كانت ترتدى ملابسها ، واختفت فجأة خلف باب الحمام وتطلعت الى الزوج وكان يتبسـم بقسمات وجه تعـلوها صفة النبل ٠

فخطوط جبهته واضحة غاية فى الوضوح ، أما شاربه وفمه فيميلان الى السوقية قليلا ، وتبدو عليه امارات الصحة والقوة وهى أمارات لا تتوافر فى عاشق ، ويده التى تداعب العصا يد دقيقة ، فهو بشكل عام يتمتع برشاقة فائقة ٠

ها هو اذن الرجل الذى تخدعه وتكرهه ، وها هى القسمات التى تراها ــ هى ــ مبتذلة ، وتسبب تعاستها ٠

ظهرت فجأة ، واستطعت أن أراها ، فتوقف قلبى ، ثم عانقنى ، ثم عاد فجذبنى اليها ٠٠ وهى شبه عارية ترتدى قميصا شفافا ، قصير وخفيف ، يكشف عن ثدييها ويلتف حول جسدها مفتتنا به ، لقد عادت من الحمـــام وهى محملة بعدة أشياء : فرشاة الأسنان والمعجون ، وفمها المبتل ، وشعرها المبعثر على كتفيها ، وتمتاز ساقاها بالرقة والجمال ، وقدماها الصغيرتان منتصبتين على كعبيها الدقيقين ٠

الغرفة تبدو فى هذه الساعات الأولى من الصباح مقلوبة رأسا على عقب ، مختلطة بالروائح التى تتزين بها السيدة من ماء كولونيا ، وبودرة وصابون ٠

واختفت المرأة ثانية ، وعادت مرطبة مغتسلة بالصابون ومنتعشة وقد اصطبغ وجهها باللون الوردى ، وتجفف ما علق بوجهها من قطرات الماء ٠

أما هو ، فكان يتحدث وهو مادا ساقيه قليلا ، ويشرح لها أحد مشاريعه ، تارة ينظر اليها ، وأخرى يشيح عنها بوجهه ٠

خاطبها قائلا : « هل تعرفين عائلة برنارد ؟ لم توافق على عملية المحطة ٠٠ » فى هذه المرة كان يتابعها بنظراته أثناء حديثه اليهـــا ثم انتقل بنظراته الى مكان آخر ، وعيناه تجوب أرضية الغرفة ، وأحدث بلسانه « فرقعة » تنم عن خيبة أمل لفكرة راودته ٠

فبينما كان يتحدث ، كانت هى تروح وتجىء فى الغرفة ، تهتز ، وتبرز منحنى فخذيها تحت قميصها الخفيف وبطنها الضامرة ، والظلال الكثيفة القابعة أسفل بطنها ٠

ارتعشت أشداقى أمام هذا المنظر المثير ، ورنا لحمى الى هذه المرأة شبه العارية ، تلك المرأة الفاتنة المثيرة ذات الملابس الشفافة ، والتى ينبعث منها العطر ذو الرائحة الأخاذة ٠

وسمعت أيضا صدى العبارة التافهة التى يرددها الزوج ، هـذه العبارة التى تضايقها وهى تسمعها فى هذه الغرفة التى تحتضن عريها .

وشرعت ترتدى الكورسيه وحمالة الجوارب ، والسروال والجونلة، هذا والرجل لا يزال مستمرا فى بلاهته وعدم اكتراثه كأنه حيوان .

ثم جلست أمام مرآة المدفأة ، ومعها مجموعة من العلب وأشـياء أخرى ، ولم تكن المرآة ــ بدون شك ــ مناسبة لما تريد أن تفعله .

وأثناء زينتها كانت تتكلم وتثرثر سعيدة مسرورة ، مبتهجة تشع حيوية ونشاطا ، ذلك لأننا فى ربيع اليوم .

وبالغت فى العناية بنفسها ، واستغرقت ساعات طويلة فى هندامها، ولكنهـــا ساعات لها قيمتها ، وبالرغم من هــذا الموقف الطـويل الذى استغرقته ، فهى تسرع فى زينتها ؟ وشرعت تفتح دولاب المـلابس ، وأخرجت منه فستانا خفيفا ورقيقا حملته بين يديها كأنها تحمل أفراخ طائر حديثة الفقس .

وعندما همت بارتداء الثوب ، طرأت عليها فكرة أخرى وتوقفت ثم قالت : « لا لا بكل تأكيد » ، وبعد ذلك خلعت الثوب ، وبحثت عن غيره ، جونلة داكنة وبلوزة وتناولت قبعة ، وفردت شريطها قليلا ووضعت وردة لتزين بها القبعة ، ولتضفى على وجهها بهجة وجمالا ووقفت أمام المرآة ، ثم ترنمت ببعض الألحان ! فهى راضية اذن ، وقانعة .

أما هو ، فلا ينظر اليها ، واذا نظر اليها فهو لا يراها ، آه كم يهيبنى هذا ، انها مأساة عابسة ، وأكثر من هذا فهى تبعث الحزن فى النفس .

هـذا الرجل غير سعيد ، ولكنه فى نظرى سـعيد ويحسـد على سعادته .

خبرنى بربك ، كيف تفسر ذلك ، الا أن السعادة تكمن داخلنا ، وكلنا نشعر بها ، ومع ذلك فالمرء غير قانع ؟

حقيقة أن هذين المخلوقين يعيشان مع بعضهما ، ولكن كل منهما بعيد عن الآخر ويحول بينهما الفراق دون فرقة ! وطالما أن الحب بينهما فاتر ، فلن يقرب بينهما شىء وسيظلا فريسة لدسائس العدم !

فمن أشنع الصفات على وجه الأرض ، الغباء وعدم الادراك . أما الكراهية الظاهرة بين اثنين فهى أقل سوءا من أن يعيشا معا دون حب ، كأن يحلو القول مثلا بأن الموت أكثر وطأة من الألم .

ان قلبى ليشفق على أنواع ثلاثة من المحبين : الذين يعيشون جنبا الى جنب لا يشعر كل منهم بالآخر ، والقلب المسكين الذى لا يدوم له حال ، وهؤلاء الذين من خلق الله لهم قلبا لا يحبون به ·

وخلال لحظة ، أمام هذا المشهد البسيط الممزق كنت أقاسى من الآلام مثلما ذاق شهيد ألوانا من العذاب ·

بعد أن انتهت من ارتداء ملابسها ، ارتدت جاكت بلون الجونلة ، شفافة من أعلى ولونها يناسب جسدها ، ثم تركتنا وانصرفت ·

أما هو فقد أصلح هندامه استعدادا للنزول · ولكن الباب فتح من جديد ، هل عادت ؟ ·· لا انها الخادمة ، وعندما رأته همت بالعودة قائلة: لقد جئت لترتيب الغرفة ، ولكنى يا سيدى أخشى أن ···

فقاطعها قائلا : يمكنك البقاء ·

وبعد ذلك أخذت تجمع بعض الأشياء المبعثرة ، وأغلقت أدراجا كانت مفتوحة ، ورفع رأسه مسترقا النظر اليها ثم نهض من جلسته ، واقترب منها كأنه مأخوذ بها ، فألقت بالفرشاة والفستان التى كانت تحملهما ، واحتضنها من الخلف ، وطوقها بذراعيه ، ويداه على ثدييها تعتصرهما ·

« آه ·· ما هذا ؟ لا لا ما هذا الذى تفعله ؟ » ·

وهو صامت لا يجيب ، وصعدت الدماء الى وجهه وعينيه المحدقتان كأنه أعمى لا يرى شيئا ، ثم أفلتت منه صيحة مكتومة انخرس لسانه ، وشل تفكيره ، ولم يكن هناك سوى جسده هو الذى يذكر ويتكلم ، حابسا أنفاسه ، ويخرج من بين شفتيه المضطرمتين وصرير أسنانه كصوت آلة ، لقد تعلق بهذا اللحم ، كأنه فريسة ينشب أظافره فيها ، ويلصق بطنه بظهرها ، كنوع من القرود أو الأسود ·

وأطلقت ضحكة من وجهها الأحمر المحتقن بالدماء ، وانسدل شعرها على جبهتها ، وانغمست أصابعه فى ثدييها الممتلئتين تعتصرهما ·

وحاول أن يخلع عنها جونلتها أو يرفعها ، ولكنها ضمت ساقيها ، ووضعت يديها على فخذيها لتثبت الجونلة ، ولم تنجح ، انحسرت عنها الجونلة وكشفت عن ساقيهـا المستديرتين الممتلئتين ، وسـدل عليهما الجورب حتى وصل الى حذائها ، كما ظهر طرف قميصها ، ولم يشعرا وطأ فستان « ايميه » الذى سقط من يدها على الأرض ·

ولما وجدت أن الوقت قد طال قالت له : « آه ·· كفى يا صغيرى

كفى ! » وهو صامت لا يجيب ، وألصق أنفه برقبتها ، والرغبة تبدو واضحة فى فمه الذى يشبه فم الحيوانات ونهرته : « ٠٠ لا ، كفى ، اخرس ، ألا تسمع ما أقوله لك ! » ٠

انتهى ، وأرخى يديه عنها وابتعد ضاحكا ، ضحكة خجل وحياء ، يشعر كأن الأرض تميد تحت قدميه من تصرفه هذا ، ونتيجة لما يعتمل فى نفسه ٠

أن ماء الحياة يغلى فى داخله ، ويبحث عن مخرج له فان لم يخرج منه ما يضايقه ويلازمه ، فسوف يصعد الى رأسه كلبن الأم ٠

ولكن ليست هذه فقط الغريزة الجسيمة ، فمنذ بضع دقائق ، كانت أمامه المرأة اللطيفة ، الفاتنة الساحرة ، ولكنه لم يتمناها ، لم يكن يريدها لا بجسده ، ولا بعينيه ، عيناه اللتان لمعتا بمجرد أن رأى هذه الفتاة ، فينوس الكريهة ، بشعرها القذر وأظافرها الطينية ٠

هذا ، لأنها فتاة أخرى غير التى يعرفها ويعاشرها ، انها الفطرة هى التى تبعث على هذا التصرف ٠٠٠ التطلع الى ما هو محرم ، واشتهاء ما هو للغير ؟ فكرة أزلية تلازم الانسان منذ خروجه الى الدنيا حتى خروجه منها ٠

وهذه فكرة قديمة ، تجعل من الرجل أمام المرأة التى لا يعرفها ، وحش يتربص بها بعد انتظار مضنى ، بنظرات حادة كأنها مخالب ، وعناد ومكابرة ، كأنه يريد أن يفتك بها ، ليبقى هو ٠

وفهمت أنا الذى أشاهد هذه الأزمات الانسانية التى تحررت من قيودها ، أن الوجود لا فائدة منه ، وأن هناك أشياء كثيرة من التى نحسبها لا تتوافر فينا ، موجودة بداخلنا ، وهنا يتجلى السر ، وكم يسدل الستار وتتجلى البساطة والسهولة كما كانت تظهر ٠

جاءت ساعة الغذاء ، وكانت فرصة لى لكى أفحص الوجوه واتفرس فيها لأعثر على الحبيبتين اللتين كانتا تتبادلان الغرام فى الليلة الماضية٠

ونظرت الى الوجوه متسائلا ، أفحصها كل وجهين على حدة عساى أجد نقطة تشابه تدلنى وترشدنى ، ولكن للأسف لم أستدل على شىء ٠

لم أتمكن من التعرف عليهما لأن الموقف لا يقل عن حالهما عندما كانا سابحين فى بحر من الظلام ٠ توجد هنا خمس فتيات أو سيدات ، وعلى الأقل لا بد أن احداهن تحتفظ بالذكرى المتأججة سجينة فى

جسدها ، ولكن هناك ارادة أقوى منى قد أغلقت الطريق أمامى ، وداهمنى العدم من جديد ، وانصرفن واحدة اثر الأخرى .

وانقبضت يداى على لا شيء ، واعتصرت بين أناملى الشك اللامحدود، ووجهى شاخصا هناك ، لا لشيء ولا فى شيء ، بل فى كل شيء ولكل شيء.

كانت بالقرب منى سيدة عرفت فيها « ايميه » تتحدث الى مديرة البنسيون الى جوار نافذة ، ولم ألمحها فى البداية بسبب المدعوين الذين يفصلون بيننا ، وكانت تأكل بعض حبات العنب ، وتتحرك بحساب .

وعرفت اسمها ، مدام « مونتجيو » ولست أدرى لماذا أرى هذا الاسم شاذا لا يناسبها ، فكثيرا ما يثيرنى التصنع وتثير فى الكلمات والاشارات ، انتهى الطعام ، وانصرف جميع المدعوين تقريبا ، وتركوا فناجين القهوة وأقداح الشراب الصغيرة تتناثر على المنضدة يتسلل خلالها شعاع من الشمس جعلها تضوى وتبرق .

أشركت نفسى فى الحديث مع مدام « لومرسييه » ومعها ، وبعد أن كنت أرى نظراتها بصعوبة ، أصبحت الآن واضحة أمامى ، وأثناء الحديث جاء الخادم وأسر بحديث الى مدام « لومرسييه » التى اعتذرت لنا واستأذنت منا على أثره ، وأصبحت أنا بجانب « ايميه » ، كما كنت قريبا منها منذ ساعة ولم يكن فى الردهة سوى شخصين أو ثلاثة يناقشـــون مواعيد المســـاء .

لا أعرف ماذا أقول لها ؟ فالحديث بينى وبينها قد فتر ، ولا بد لها من أن تتظاهر بعدم الاهتمام بى ،تلك السيدة التى أرى قلبها ، وأعرف مصيرها الذى يعلمه الله ، امتدت يدها الى صحيفة على منضدة بالقرب منها وتناولتها وقرأت فيهـا قليلا ثم نحتها جانبا ونهضـت وانصرفت بدورهـــا .

وبقيت أنا بمفردى ، فأتكأت على مرفقى واسندت رأسى على يدى ، أفكر فى أمور الدنيا المبتذلة التى تغم المرء ، أفكر فى نفسى ، وأتساءل عما اذا كنت سعيدا أم بائسا ؟ وأفكر فيما هو حقيقة ، وما هو وراء الحقيقة ؟ وشعرت بالنعاس . وفى هدوء لمست حقيقة الأمور ولكن بعد فهم ثقيل ، وجلت بنظرى فيما حولى ، أتأمل كل شيء هادىء وبسيط وبعد ذلك ، أغلقت عينى ، وقلت فى نفسى ــ كمن وقع عليه الاختيار ويعمل حسابا لهذا الاختيار ــ فأما اللا محدود ، فهو حقيقة لا أستطيع الشك فيها ، وهذا الاثبات يفرض نفسه على ولا وجود لأشياء غامضة ، ولا أشياء خارقة للعادة ، فاللا محدود يوجد فى كل مكان ، يوجد فى الحقيقة

كما يوجد فى البساطة والسلام ، وهنا بين هذه الحوائط الراسخة بكل قواها ٠

فالطبيعة وما وراء الطبيعة شيء واحد ، فلا وجود لأسرار فى الحياة كالتى توجد فى السماء ٠

فأنا الذى لا أختلف عن غيرى ، قد ملأنى اللا محدود ولكن كل هذا يبدو أمام عينى مختلطا متداخلا ٠

وأفكر فى نفسى ، نفسى التى لا أستطيع أن أعرفها حق المعرفة ، وكذلك لا يمكننى التخلص منها ، نفسى التى تشبه ظلا ثقيلا بين قلبى وبين الشمس ٠

٨

عدت الى غرفتى بجوار « ايميه » وحبيبها تحوطهما ذات الظلال دون تغيير فى شيء من محتويات الغرفة منذ رأيتهما لآخر مرة ، يجلس كل منهما بجوار الآخر ، يتجاذبان أطراف الحديث ٠

كانت هى جالسة خلفه على الكنبة تخفيها الظلال ، ظل الليل ، وظل الرجل ، أما هو فكان شاحبا ، يضع يديه على ركبتيه منحنيا الى الأمام فى فراغه الشاسع ٠

كان الليل يكسو الحجرة بجو رمادى حريرى الملمس ، وبعد قليل ، سينضو الليل هذا الثوب الحريرى عن نفسه ويصبح عاريا ويبزغ النهار بنوره الذى يقضيانه وسيكون بمثابة مرض لهما لا يعرفان متى سيبرءان منه ؟ ويبـدو عليهما التوجس ، ويتأهبان ليدفعـاه بعيـدا عنهما ، ويتخذان حيطتهما فى الحديث والأفكار ، ويسرعان فى حديثهما دون حاجة الى هذا التسرع ، ويتحدثان حديثا لا معنى له ، وكان يصل الى أذنى حديثهما عن اشخاص وأسماء لأماكن وعن محطة ونزهة ، وبائع زهور ٠

وفجأة توقفت عن الحديث ، وخيل الى انها تخفى وجهها بين يديها ، ثم اقترب هو منها وأخذ يديها بين يديه ، كأنه معتاد على هذه الحالات ، وحدثها حديثا لا معنى له ، لانه لم يكن يعرف مايقول ، واقترب منها بقدر ما يستطيع وهمس اليها قائلا : « لم تبكين ؟ خبرينى ، لم تبكين ؟»

صمتت ولم تجب ، ثم سحبت يديها من يديه ورفعت عينيها اليه ، وقالت :« لماذا ؟ هل أعرف أنا لماذا ؟ أليست للدموع عبارات الها معناها ؟

كم يشدني اليها هذا وانا اراها تبكي والدموع تنهمر على خديها ، انسان عاقل يبكي مخلوقة ضعيفة ، غاية الضعف ، محطمة في بكائها ، تبعث في النفس الشعور الذي تحسه عندما تبتهل اذ يتضرع الى الله وعظمته،لأنها بضعفها هذا وانهيارها ،انما تسمو على كل القوى الانسانية.

تملكني شعور بالاعجاب أمام وجه المرأة ، هذا الوجه الذي لا تنضب دموعه ، هذا االوجه الذي يجمع بين الحقيقة والاخلاص .

توقفت عن البكاء ، ورفعت رأسها دون أن يسـألها هذه المرة ، وقالت ، « انني أبكي ، وسبب بكائي هو وحدتي ، أن المرء لا يستطيع أن يهرب من نفسه ، كما لا يمكنه أن يصرح بشيء ، انني وحيدة ، وكل شيء يمضي ، ويتغير ، ويولي الادبار ، وفي اللحظة التي يفقد فيها المرء كل شيء ، يصبح وحيدا .

لقد عشت ساعات مضت أفضل من غيري ، وأخيرا ماذا يحول بيني وبين البكاء ؟ »

ففي هذا الحزن الذي تغرق فيه من لحظة الى أخرى ، كانت تحتفظ بكبريائها ، وعلى وجهها المكتئب كنت أرى شبه ابتسامة تتحرك ببطء .

واستردت : « كم من أمور تمر أمام الناس دون أن تلقى منهم أدنى اهتمام ، بينما يكون وقعها في نفسي عظيم الأثر ، وفي لحظات يقظتي ، أنظر حولي فلا أجد سوى نفسي ، وحيدة ، وحيدة ، وحيدة » .

فلما رأى هذا الحزن الغزير الذي يتدفق منها ، حـاول أن يخفف عنها قائلا : « لا يمكن للانســان أن يقول ذلك ، ونحن ، الذين نصنـع مصيرنا .. وأنت ، أنت التي اكتملت ارادتك » .

ولكن هذه العبارات كان وقعها عليها كالعصف المذرور . فأجابته قائلة : « هيهات ، فبالرغم مما بذلته فأنا وحيدة لا يمكنني أن أغير حقيقة الاشياء ، مع أن هذه الكلمة ربما كانت حلوة .. وبالفضيلة تتحقق السعادة ، لا بالرذيلة ولا بالنار المقدسة أو الغريزة ، فلن يصل الانسان الى السعادة باي وسيلة من تلك الوسائل التي لها صلة بالشر .

وتوقفت كأنها تشعر بقدرها فوق رأسها ، وقالت : « نعم ، أعرف

انني ارتكبت أثما ، ويسامحني من يحبني اذا ما عـرف حقيقتي ، ..
وستشقى أمي اذا علمت شيئا من أمري .

أنا على يقين أيضا ان حبنا منبوذ من الجميع ، من كل عاقل وكل محب للحقيقة ، كما تنبذه ايضا دموع أمي .

ولكن هذا الخجل لن يفيد في شيء ، وستشفق أمي على سعادتي اذا عرفت حقيقة أمري » وقال بصوت منخفض في شبه تمتمة :» انك لشريرة » .

ولاقت هذه العبارة وقعا غير ذي بال ، وداعبت وجه الرجل بيدها وقالت له بلهجة الواثقة من نفسها ، : « انت على يقين من انى لا استحق هذه الكلمة ، كما تعلم جيدا ان حديثي هذا عنا ، عن انفسنا .

« واظنك ايضا تلمس جيدا وحدتنا ، وتذكر يوم ان كان حالك كحالي اليوم ، حزين ومهموم ،وكان حديثنا عن لذة الحياة وبهجتها ، هل تذكر عندما سألتني عن الدماء التي تتدفق الى وجهي ، هل هي نتيجة لخجلي ، أم انها من المساحيق والاصباغ التي اتزين بها ؟

« أن افكارنا العظيمة ، والبسيطة ليست لاحد سوانا وكل شيء لنا والينا ، وان كانت هناك ادانة فهي بيننا ولنا فقط .

وفي هذا اليوم ايضا قلت لي : « هناك أشياء تخفيها عني ولن تصارحني بها مطلقـا » وقلت لي « أن الحب ما هو الا حفل لوحدتنا » ، وبعد أن انتهيت من حديثك دللتني وأخذتني بين أحضانك ، وهمست لي « أن حبنا هو أنا » وأجبتك ، للأسف بنفس العبارة ، « حبنا هو أنا».

وحاول أن يتكلم ، ولكنها وضعت يدها بدلال على فمه بانسجام مضطرب ،« خذني ،خذني ، اعتصر اصابعي بين يديك ، أو بلحمك وضع صدري على صدرك ، وقبلني قبلة طويلة ، حتى تخمد أنفاسنا ، ولا نعرف فاهينا ، افعل بي ما شئت ، لاكن بجوارك ؛ بجوارك انني هنا لأتألم ، فهل تشعر بألمي ؟ » .

ولبث صامتا لا يجيب ، ولمحت رأسه من تحت الملاءة التي تغطيهما، يومىء بها ايماءة تدل على عدم الرضا ، وأحسست بالبؤس الذي ينبع من هذين المخلوقين اللذين يطويهما الظلام،وفي هذا الظلام لا يعرفان الكذب.
الكذب .

هناك حقيقة واحدة وهي أن كلا منهما وهو مع الأخر لا يجمعهما سوى الفراغ الذي يحسانه ، وسمعتهما يتبادلان حديثا عذب العبارات ،

وألمحهما تارة يتحركان وأخرى يثوران وثالثة يتشاجران ورابعة يتواعدان ولكن الوحدة تذلهما وتخضعهما ، ثم بادرته الحـديث قائلة : « كثيرا ما حدثتني أنت بنفسك وبلسانك دون أن أضيف شيئا من عندي : فلنترك الحديث عن الآلام ، وعن السعادة حيث يصعب اقتسامهما ، فيندر أن نجد شخصين يتبادلان حديثا ذا مغزى واحد ، حديث يصعب تغلغل الفكر فيه للفكر ذاته ، وأحيانا ، ودون مقدمات ، يتقرب انسان لآخر ، وبدون أسباب أيضا يفترقان ، وأحيانا أخرى يقع صدام بين شخصين ، ثم يتعاطفان ، وكثيرا ما نأت من التصرفات كالمشاحنة والقتل والتشويه ، وفي ظروف أخرى يجد الانسان نفسه وهو يضحك رغما عنه في الوقت الذي يجب عليه أن يبكي ، فاذا ما اجتمع اثنان معا يكون الجنون ثالثا لهمـــــا .

ولما كنت أنت تتمتع بلباقة ومعرفة ، فقد أخبرتني انه اذا ما اختلى اثنان ببعضهما ، أصابهما البكم والعمى ، واذا ما هام عاشقان ، ظلا غريبين عن بعضهما كالريح والبحر ، واذا ما اعترضت المصلحة الشخصيـــة ، أو اختلاف الفكر أو الملل ، أو أية رغبة جارفة تنتاب المرء تقوضه وتحول بينه وبين الصفاء ، وتجعله يصغي دون ان يسمع ، واذا سمع لا يفهم ، فعادة ، اذا ما اجتمع اثنان كانت الحماقة ثالثة لهما » .

وكان يبدو عليه أنه معتاد على هذا النوع من الشكوى الحزينة التي لا تتغير نغمتها ، كتوسلات تتكرر مرارا لتحقيق المستحيل ، يتصرف معها كأنها طفل صغير مريض ، يأخذها بين ذراعيه ويهدهدها ويدللها ، ويعطف عليها ويحنو ، ومع ذلك فعو بعيد عنها .

أما هو فكان مرتبكـــا ، وأما هي فكان جسدها يختلج بشدة وهي مستندة اليه وبالرغم من ذلك كان يشتهيها كما يشتهي الوحش فريسته .

رأيت عيناه تبرقان وهو ينظر اليها ، أما هي فحزينة ومطرقـــة رأسها ، وكل ما يطمع فيه ويرنو اليه : هي ، كانت هي شيء بالنسبة اليه ، كل شيء يتمناه ويبغيه ، أما حديثها فلم يكن ذا بال عنده .

أما أنا ، فكنت بمثابة متفرج يشاهد نوعا من المعارك القاسية التي تتمزق لها النفس ، فبالرغم من قربهما ، يختلف كل منهما عن الأخر ، بعيدان لا يسمعان بعضهما ، هي ، حزينة ، تحتفظ بشيء من الكبرياء ، وهو ، تتأجج الرغبة في نفسه كأنه حيوان ، فهما متجاوبان مع بعضهما فيما يفيد كل منهما ، ولا يستطيعان الاذعان لأمر الفراق ، ويحاولان التغلب على مجرد هذه الفكرة .

ولكنهـا فهمت رغبته ، وايقنت ما يرمى اليه ولحظت شـهوته ، وتظاهرت بالشكوى وقالت كأنها فتاة صـغيرة تدعى المرض : « انى مريضـة ... » ، ثم نهضت لتوها ، ونضت ثوبهـا وتخلصـت من سجنها ، واليه قدمت نفسها . عارية تماما كما ولدتها أمها ، مضحية بكل شيء قلبها وكبريائها .

ومرة أخرى التحمت الأجسام ، وبدأت المداعبات والأنغام ، ومرة أخرى أيضا رأيت وجهه تملأه الشهوة وتستولى عليه ، لا يفكر الا فى نفسه ووجهه المحتقن بالدماء ، وعروقه النافرة كأنه على وشك الاختناق ، مفتتنا بهذه المرأة بشهوانية ، مأخوذا بها ، انه سعيد كل السعادة يحس بها فى جسده وعقله ، وتنعكس نفسـه على مرآة وجهه تشع بالهنـاء والسرور غارقا فيها من شعر رأسه الى أخمص قدميه ، يهمس اليها بعبارات الحب والسعادة كأنه يباركها .

وبالرغم من انفصالهما عن بعضهما ، فهما ملتحمان بجزء صغير من لحمهما ، يئنا ويهتزا من فرط اللذة والشهوة كل منهما مفتتن بالأخر ، لا يشعران بشيء سوى انهما يتمتعان .. ياله من انفصال ... .

وفجأة أفاقا من حلمهما ، ضعفاء ، ملقيان على الأرض .

ونهضا ثانية مستيقظين من حلمهما العابس ، الذى كان يطرحهما أرضا ، وأصغيت جيدا لأتبين ما يقوله هامسا كأنه يتنهد : « آه لو كنت أعرف ... » .

وأعتقد أنهما يستعرضان بذهنيهما خطوات الجريمة التى اقترفاها تحت جنح الظلام وهما نائمين على الأرض يزحفان تجاه النـافذة التى يتسلل منها ضوء شاحب ، كم يتشابه ما اقتـرفـاه فى الليلتين على التوالى .

حقيقة لم أكن أتوقع أن هذه الأحداث ستشدنى اليها وانها ستمر مرور الأشباح .

فهو ، قد اعترته رجفة تغلبت عليه ، وقد تجرد من كبريائه ، ومن حياته ، ولم تكن لديه القوة الكافية ليواجه نفسه بالحقيقة المخجلة .

وتمتم ، وهو متخاذل : « انه القدر ، وليس فى مقدورنا اجتنابه» .

فحديثهما هذا يدل على مدى نظرهما الى الأمور ، فهما ينظران الى أبعد من الشهوة وأبعد مما ارتكباه ، فانغماسهما فى الجنس لم يحطمهما ، ولا دناءتهما أو ندمهما ، لا تقززهما أو اشمئزازها ، بل ما هو أبعد من

ذلك ، شعور بالحقيقة المجردة ، شعور بالفظاظة ، شعور بأقصى درجات العـدم ، اذا ما لاح لهما فى تفكيرهما ، أنهما كثيرا ما انغمسا بنفسيهما دون جدوى ، فيما يتخذانه مثالا هشا لشهوتهما .

لقد أصبحا يشعران ببداية كل شىء ونهايته ، وأن كل شىء يغنى ويبكى ، وان كل حى سيموت وملاقيا حتفه لا محالة ، وأن الروابط الخادعة بينهما ستنتهى حتما فى يوم من الأيام .

ويرى صدى الصوت كذكرى لصوت موسيقى عظيم لا ينتهى « ويصبح المرء وحيدا فى الوقت الذى يهرب فيه الجميع من حوله » .

وبالرغم من هـذا الخيال ، لم يقتربا بل على العكس فقد ظلت معنوياتهما كما هى : الرجفة والغموض والاندفاع الى اللا محدود ، يتألمان معا ، وقوة آلامهما هى التى تفرق بينهما ، يا للأسى يا له من تفكك .

وفى صيحة كمن فى نزعه الأخير ، خرجت وسالت منها عبارات اللوم على الحب قالت : « وحبنا الكبير العظيم اننى على يقين من أنه سيكون عزائى الوحيد .

وقالت وهى تلقى رأسها الى الخلف ، رافعة عينيها الى أعلى : « آه .. المرة الأولى » . ثم استطردت بعد أن شخصا بأنظارهما كأنهما يريان هذه المرة الأولى . عندما كانت يداهما تتلاقيان من بين الأشياء والمخلوقات : « اننى متيقنة أن هذا الشعور سيموت يوما ما ، وبالرغم من هذه الوعود الخافتة ، فلا أريد أن يمر الوقت .. ولكن الوقت يمضى والحب بيننا قد خفت حدته » .

ثم صدرت عنه ضحكة . واسترسلت فى حديثها : « وليس فقط أنت يا حبيبى الذى سيذهب بل أنا أيضا ، فى البداية كنت أظن أنك أنت فقط ، ولكننى فهمت أن قلبى المسكين لا يستطيع الزمن شيئا ضده » ثم قالت ببطء وهى تنظر اليه : « وأسفاه ربما أقول لك ذات يوم « اننى لا أحبك (مطلقا) » يا للأسف بل ربما أقول لك يوما : « اننى ما أحببتك قط » وهـذه هى الحاجة : الزمن الذى ينقضى ، ويغيرنا ويفرق بين الأحياء الذين يعيشون معا ولكن هذا لا يعنينى فى شىء ، فالمرء بالرغم من هذا ، يعيش ، ولكن ما يعنينى هو مرور الزمن فهو يجعلنى أفكر فى تقدمى فى السن وهذا بدوره يدفعنى الى التفكير فى الموت .

أتتصور ، لقد تقدمت بى السنون ، وأصبحت منيتى قريبة منى ، أنا ، وحاولت وقتا طويلا أن أدرك هذا ، لقد كبرت .. اننى لا أصدق هذا ، وتسرب الشيب الى رأسى ، أول شعرة بيضاء ، يا للمفاجأة .

فذات يوم ، بينما كنت أهم بالخروج ، فاذا بى ألمح شعرتين قد أصابهما الشيب متدليتين على صدغى ، فالأمر جد مهم ، وهذا هو الانذار الأول ٠

أما هذه المرة ، فقد كنت جالسة فى أحد أركان الحجرة ، أستعرض فى مخيلتى وجودى فى الحياة منذ البداية الى النهاية ٠

فرأيت أنى كنت أخدع نفسى فى كل ابتسامة ترتسم على وجهى ، مشيب أنا أيضا ؟ ومع ذلك أنا ٠٠ نعم أنا ٠

وأصبحت فكرة الموت تحوم حولى ، لم أكن أعرفها ولكنى لمستها الآن وعلمت أن المسألة الآن أصبحت تتعلق بنا أنا وهو ٠

« آه ، هل هذا التغيير الذى يطرأ على المرء يسلبه ارادته ويجعله لا حول له ولا قوة ، لما يعتريه من تغير فى لون الشعر ، كشحوب الموتى ، ويتخيل الهياكل العظمية على الوحة القبر ، حتى ليهرب الانسان منه » ثم صاحت : « أغربى عنى أيتها التجاعيد » ٠

« وكنت أحدث نفسى قائلة بكل هدوء ستلحقين به ، فجلدك سيفقد غضاضته ، ستذبل بطنك وسيذبل ثدياك ، وتتداعى عظامك ، وملل الحياة سيجعلك تتثابرين على الدوام ، وسترتجفين من البرد القارس يوما ، سيصبح وجهك مخيفا ، وحديثك الذى كان عذبا ساحرا ستتخلى عنه عذوبته ويذهب سحره ، ويصبح مبغضا ، والثوب الذى كان يخفى جسدك من أعين بعض الأزواج المجانين ، لن يخفى بعد ذلك عريك البغيض، وتتحول عنك الأنظار ولن يجرؤ أحد على مجرد التفكير فيك » ٠

ثم رفعت يدها فجأة الى فمها ، كمن تريد أن تخنق الحقيقة ، تريد أن تقول الكثير ٠ وفى هذا خوف وفيه عظمة ٠

أما هو فقد أخذها بين ذراعيه ، منهوكة القوى ، كمن يحمل عبء آلام العالم أجمع ٠

وما يقال فى هـذا المجال ، أنهـا أفاقت الى نفسها ، الى حقيقتها المشئومة ، كحداد جديد أو نبأ ردىء واستطردت تقول : « اننى أحبك ولكنى أحب الماضى أكثر منك ، أريده ، أريد الماضى ، حتى ولو كان فنائى ثمنا له ٠

الماضى آوه طالما ان الماضى لن يعود ، فسأبكى وسأتألم ، أترى ذلك ؟

« ولكنى أحبـه ، فهو لم يبعد كثيرا ٠٠ فالموت فى كل مكان ،

نراه فى الجميل الذى أصبح قبيحا بعد طول جماله ، نجده فى انطفاء ما كان وضاء قويا ونقيا ، وفى عقاب الوجوه التى كنا نعزها ونحبها ، وفى التعود ، وفى نسيان من هو بعيد أو قريب ·

وأما الحياة فنحن نحسها فى الصباح ، فى الربيع ، فى الأمل ، فما هنالك سوى الموت الذى يمكن أن نراه حقا فى كل وقت ، فمنذ بدء الخليقة والموت هو الشيء الوحيد الذى يمكن أن يكون محسوسا ، فهناك، عاليا ، يمشى الانسان واليه يذهب ·

ففيما اذن يضيرنا القبح ؟ أو بما يفيدنا الجمال ، ما دمنا سنطأه بأقدامنا ·

وفى باطن الأرض نجد من الأموات أكثر من الأحياء على وجهها ، أما نحن فالموت عندنا أكثر من الحياة ، ليس فقط أحياء دون آخرين ، بل جميعهم ، وعاما بعد عام يتقوض جزء كبير مما كان حولنا ومنا أيضا ·· حتى من لم يكن ، سيموت أيضا ، فالكل مصيره الموت » ·· اننى أبكى لأننى سأموت حتما ، وسيأتى اليوم الذى يقضى على وجودى ·

« الموت اننى أتساءل كيف يمكن للمرء أن يعيش ، وينام ، ويحلم ، طالما ان الموت سيواتيه حتما : كم هو متعب وثمل ·

« فبالرغم من الفراغ الشاسع ، والصبر والجلد ، والجهود المضنية، وجهود الطاقة المتداولة ، نلمس أكاذيب القدر فى العهود التى نقطعها على أنفسنا ، هذا ما أفهمه أنا ، ففى كل مرة على المرء أن يجيب بلا أو بنعم ، يتدخل القدر الى أقصى النهاية ، بقوة وحقيقة أكبر ، ويستولى على كل شيء لنفسه ·

« أواه ، هناك بعض اللحظات ، وخاصة فى المساء ، حيث يبدو أن الوقت غير ثابت ، لاطفته قلوبنا وأبلته ، ويلوح لنا السراب الجميل للأوقات الساكنة التى لا تتحرك ، ولكن هذا ليس حقيقة ، ومع كل فهناك عدم لا يقاوم ولا يقهر قد سمم كل ما نقضيه ·

« أترى يا عزيزى ، عندما تدور هذه الأفكار فى خلد الانسان ، يصبح متسامحا مبتسما فلا يتمنى مثل هذا لغيره ، ولكن هذا النوع من الصلاح هو أثقل شيء فى الوجود » ·

أما الرجل ، فكان كعهدى به ، دائما سيد نفسه ، انحنى عليها بهدوء دافيء وورع ولثم يديها بشفتيه · ثم قالت بصوت هدأت نبراته وتغيرت : « لقد فكرت فى الموت من قبل ، وذات مرة صرحت بهذا الى

زوجى ، لقد ذهب الى الحرب غاضبا ، وأفصح عن رأيه فى ، قال انى مريضة وسوداوية وأعصابى ضعيفة ، وأحتاج الى عناية ، وكان يريد أن أكون مثله ، لا ألوى على شىء ، ولا أفكر فى مثل هذه الأمور ويرجع ذلك الى أنه سليم ومتزن العقل •

« ولكن هـذا ليس حقيقة ، فالمريض هو ، مريض بالهـدوء وعدم التمييز : بالفاسج ، أو بمرض غامض ، وعدم تبصره هذا انما هو عاهة أو غلة ، والمسالمة التى به انما هى داء كلب يعيش لنفسه كالبوهيمى ، أو حيوان له وجه آدمى •

« ماذا يفعل ؟ يصلى ؟ لا » •

« أيلقى بنفسه فى مهمة تشغله ؟ أيعمل ؟ أليس كذلك ؟ فالعمل متوافر ، أيربى أطفاله ؟ فهذا يعطى شعورا بالبداية والنهاية فى الوقت نفسه دون جدوى ، ومع ذلك من يدرى ؟ » •

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تلين فيها • ثم استطردت : « ولكن تنقضى المثابرة والذلة والخضوع لأكون أما ، فربما وجهنى ذلك فى الحياة فأنا يتيمة لطفل صغير » •

وللحظة أسبلت عينيها ، وتركت يديها تعبثان ، وتركت الأمومة تستولى على قلبها ، واقتصر تفكيرها على أن تحب وأن تقدم على الطفل الغائب ، دون أن تلحظ ان فى اعتباره سلوتها الوحيدة ، فانما يرجع ذلك الى عدم وجوده فعلا •

ثم استرسلت فى حديثها :

« الكرم ؟ يقـال انه ينسى كل شىء » وبينما كانت تتمتم ببعض العبارات ، شعرت ببرودة المساء تسرى فى جسدها فالمساء كان ممطرا ككل شتاء كان أو سيكون •

« آه ، نعم فلأكن طيبة ولأذهبن معك فى الطرقات التى يفترشها الضباب وعلى كتفى معطف من الفرو ، نجول لنطلب صدقة » ثم بدرت منها حركة تدل على الملل •

« لست أدرى ••

« ان الأمر مختلط على ، مذهل ، لا يغير من الحقيقة شيئا لانه ليس حقيقة فى حد ذاته • من سينقذنا ؟ واذا أنقذنا بالفعل ؟ فماذا بعد ذلك ؟ سنلاقى حتفنا ، سنموت » وصاحت :

« أنت تعرف جيدا ان الأرض تنتظر رفاتنا ، وهذا ليس بعيد المنال عنها » •

ثم جففت دموعها ، ونفضت عنها حزنها ، واتخذت لهجة ايجابية هادئة ، توحي بشعور بالتيه :

« عزيزى ، أود أن أوجه اليك سؤالا ، وأجبنى عليه باخلاص : هل واتتك الجرأة ، حتى فى قرارة نفسك أن تحدد تاريخنا مطلقا وبعيدا نسبيا ، ولكن محدد بأربعة أرقام ، أقول لك : « اذا تقدمت بى السن حتى وصلت الى هذا التاريخ حيث توافينى منيتى ، بينما سيبقى كل شىء على ناموسه الطبيعى ، فهل الفراغ الذى سأخلفه من بعدى سيتقوض شيئا فشيئا أم سيظل قائما ؟ » •

تحت جلاء هذا السؤال ، تحرك ، ولكن على ما كان يبدو لى أنه يحاول أن يتحاشى اى اجابة تضايقها •

فبكل تأكيد هو محيط بكل هذه الأشياء وعلى يقين منها (هذا على حد قولها فقد تردد فى حديثها « ولكن يبدو عليه أنه يفهم نظريا على ضوء الأفكار العظيمة ، وفى حمى الفلسفة أو الفن المميز لحساسيته •

أما هى ، فقد أعياها ما تشعر به وحطمها ، كما أجهدها وأدمى عقلها •

ثم واصلت حديثها بعد أن استعادت رباطة جأشها وبعد تردد وبصوت منخفض وسريع ، وبحركة تنم عن اليأس الذى تشعر به ، وما سببه لها من ألم عظيم :

« ألا تدرى ما فعلته أنا بالأمس ؟ أرجو — اذا أفصحت لك — ألا توبخنى أو تؤنبنى ، ذهبت الى المدافن فى « بيير — لاشيز » ، تجولت فى الممرات أولا ، ثم بين المدافن نفسها حتى قبو العائلة ، وعندما رأيتهم ينزلون التابوت الخاص بى بالحبال ، من خلال فجوة كان يغطيها حجر كبير فحدثتنى نفسى : آه ، هاهنا ، ذات يوم ، قريب أو بعيد ، ولكنه أكيد ، سيكون مصيرى •

كان هذا فى حوالى الساعة الحادية عشرة ، فلما أضنانى التعب ، التجأت الى أحد القبور اتكىء عليها ، وتأثرت بالجو الذى يحيط بى : حزن ، وحشة ، خراب • فلاح لى اليوم الذى سأدفن فيه •

فالطريق ينحدر بشدة ، ولزاما على سائق العربة ، عربة الموتى ، أن يجذب سرج الخيل بشدة (وقد رأيت هذا مرارا قبل اليوم) •

أن هذا اليوم أمر يوجب البكاء ، فهذا الطريق سوف يختاره حتما في مثل هذه الظروف ، في هذا المكان حيث أرى الجميع ممن يعرفوني ، ويحبوني ، مجتمعين ومنتشرين حدادا بين المقابر ، يا للغباء كم تثقل هذه الاحجار الرخامية على الموتى ·

رأيت المقابر على أشكال مختلفة ، فمنها ما يغطيه الرخام الأبيض ، ومنها ما يشبه كنبة صغيرة ·· وأنا كنت هناك في عربة الموتى ، أو قل انه لم أكن أنا ، بل كانت هي هناك والجميع في مثل هذه اللحظة يحبونني بخوف ، والجميع يفكرون في ، وفي جسدي ، موت امرأة ـ طالما أن الأمر متعلقا بي ـ بها شيء من الفجور »

وانت أيضا هناك ، ترتسم على وجهك علامات الحزن ، وحبنا الكبير لم يكن سواك أنت وصورتي ، ولم يكن من حقك أن تتحدث عني ، وفي النهاية رحلت انت ، كأنك لم تكن تحبني مطلقا ·

« وعدت وقد أثلج جسدي وقلت في نفسي أن هذا الكابوس هو أكبر حقيقة من الحقائق ، وهو الشيء العظيم الحق ، البسيط ، ويختلف عن أحداث حياتي التي كانت سرابا » ·

ثم كتمت صرخة جعلت كيانها كله يرتعد لوقت طويل ·

« ما هذا الحزن والدمار الذي جلبته حتى المنزل أفبينما الشمس ساطعة ملتهبة ، أظلم الحزن كل شيء من حولي حتى أصبحت لا أشعر بأي شيء جميل من حولي ·· كل ما هنالك عالم آخر فالمنزل يبدو لي قاحلا وكل شيء في نظري أدان حقيقة ملاك سيىء » ·

وفجأة تذكرت شيئا كان هو قد أفضى اليها به بمهارة فائقة وبحذق غير عادي :

ثم جئت الى جواري ، وجلست على ركبتيك ، ووضعت رأسك على ركبتي· ثم بكيت وسمعت صوتك وانت تقول : « أعتقد أن هذه اللحظة لن نعوض ، واعتقد أنك ستتغيرين ، تموتين ؟ أو تذهبين الى غير رجعة ، ومع ذلك فأنت الأن هنا انني أفكر بكل حرارة ، كم هو ثمين الوقت وانت لؤلؤة غالية فريدة في نوعها انت التي لن تكوني في يوم من الايام على ما أنت عليه الان ، وأعبد هذه اللحظة لوجودك معي » ·

ثم أخذت راحتي بين راحتيك ، ولاحظت انهما بيضاوين وصغيرتين وقلت لي أنهما كنزين ثمينين وسيختفيان ، ثم كررت كلمة أعبدك ، بصوت مرتعش هو أعذب وأصدق ما سمعت ·

وهناك شيء آخر أيضا ، ذات مساء عندما كنا معا وقتا طويلا ، حدث أنك اخفيت وجهك بين يديك وتفوهت بعبارات استقرت فى قرارة نفسى ، كان حديثا مخيفا : « أنت تتغيرين ، لقد تغيرت ، لا أجرؤ على النظر اليك خوفا من ألا أراك ثانية أمامى » ٠

« أتذكر ؟ أنه فى مساء ذات اليوم حدثتنى عن زهـور قطفت ، اسميتها انت جثث الزهور وقارنتها بأجسام الطيور الصغيرة الميتة ٠

نعم ، لقد كان هذا المساء الملعون الذى لن أنساه مطلقا ، فقد كانت هذه الزهور المقطوفة تثقل كاهلك ٠

« كم كنت على حق عندما شعرت بأن الزمن قد نهرك وأذلك وفى قولك انا لا نساوى شيئا طالبا أن كل شيء يمر وينقضى » ٠

غزا الغسق الحجرة ، واحتـوى هذين المسكينين الذين يحـاولان جاهدين الوصول الى أعماقهما لمعرفة أسباب آلامهما ومصادرهما وبؤسهما٠

واستطردت :

« هناك شيئان يعترضاننا : الفراغ والزمن ، فأما الفراغ ، فهو دائما بيننا ، وأما الزمن فهو مرض يرتبط بنا ، وهو يفوق الفراغ ضراوة، ووحشية ، فالفراغ يغلب عليه طابع الموت ، أما الزمن فهو قاتل ٠

فكما ترى ، لكل شيء فى الزمن قبر حتى السكون والمقابر فالفراغ والزمن شيئان غير مرئيين يتسلطان علينا أينما كنا كأننا مصلوبين . ليس كالهنا الطيب الذى صلب جسده على صليب (قد شدت اليه يداه وجسـده الى صليب صـغير متقلص) أما نحن فقد صلبنا على الزمن والفراغ) » ٠

يبدو لى وحالتها هذه ، أنها قد صلبت وان صليبها هـذا يحمل المعنيين اللذين تضمنهما تضرعها ، وتحمـل بين طيات صـدرها الآثار الدامية للعذاب الكبير الذى تذوقه فى حياتها ، لقد صرحت ، وبكل قوة عما يجيش بين طيات صـدرها ، وما تحمله فى نفسها من آثار دامية للعذاب الكبير الذى تذوقه فى حياتها فكان مثلها مثل الذين رأيتهم من قبلها فى هذا المكان ، يريدون ان ينتزعوا انفسهم من هذا العدم ليعيشوا أطول مدة ممكنة ، ولكن أمنيتها الوحيدة كانت الخلاص ، فكانت حياتها المتدفقة الحلوة تتنقل بين الموت والحياة ، فأتجهت عيناها الى النـافذة المضيئة ووجهها شطر السماء تنشد هذا الخلاص ــ الذى هو أكبر الامانى الانسانية ــ فى اختلاجة شبه عذرية ٠

ولكنها استرسلت في حديثها قائلة : « أواه ، أوقف ، أوقف هذا الزمن الذى يمر ، أنك لست سوى انسان مسكين ، لست سوى قليل من الروح والفكر ، تائها فى اعماق حجرة ، وبالرغم من ذلك فأطلب منك أن توقف الزمن أو ان تمنع الموت » ٠

ثم خفت صوتها واختفى كأنها لا تستطيع ان تتفوه بشيء ، وتاهت فى سكونها المسكين ٠

فأجابها قائلا : « وأسفاه » ونظـر اليها ، الى دموعهـا ، الى هدوء فمها ٠٠ ثم نكس جبهته ٠ فربما استسلم الى قنوط عظيم ، أو استيقظت نفسه ، وعندما رفع وجهه ، خمنت بديهيا بأنه سيقول شيئا ، يجيب به على حديثها ولكن حديثه دائما ما يبدأ مقتضبا ، ورفعت رأسها ، كأنها طفل يطلب نجمة من النجوم أى تطلب المستحيل وقالت : « هذا هو حالنا » ٠

وتمتم هو قائلا : « من يدرى بحالنا ؟ » ٠

ثم بدرت منها حركة تدل على ملل لا محدود ، وصوت لا رنين له ، ونظرات خاوية ، قالت :

« اننى على يقين مما ستقوله لى ، ستحدثنى عن لذة الالم ، آه : اننى أعرف أفكارك الجملية ، ونظرياتك العظيمة ولكننى ــ بالرغم من انها حبيبة الى نفسي ــ لا أصدقها واعتقد فيها الا اذا استطاعت أن تواسينى وأن تنحى عنى الموت وتمحوه » ٠

وحاول هو جاهدا ، غير واثق ، أن يبحث عن مخرج ، فأجابهـا متعثرا : « ربما ، اذا آمنت بهذه النظريات والافكار ، فربما تمحو الموت» ٠

لا ، لن تمحوه ، لقد صرحت لى بأن كلانا ملاقى الموت بم تجيبنى على هذا ؟ آه أجبنى وأرجو أن تكون اجابتك مباشرة ؟ آه لو تريحنى باجابة تظهر حقيقتى كما هى » ٠

فالتفتت اليه ، وتناول هو راحتيها بين راحتيه ، وقد نفذ صبرها ، من الحاحها عليه ، ثم انزلقت الى جواره وجلست على ركبتيها ، كجسد لا حياة فيه ، على الارض محطمة ، غارقة تحت اليأس فى أعماقه ، وقالت له مستعطفة :

« كم سأكون سـعيدا اذا أنت ــ ان استطعت ــ أجبتنى عـلى سؤالى » ٠

وكانت تمد يدها وتشير بأصبعها ، الى الحقيقة المؤلمة ، التى لاح

لها شكلها ، كأكبر مفهوم للالم ، الفراغ الذى يحجبهما ، والزمن الذى يمزقهما • وفى الحجرة التى غزاها الغسق حتى بدت ضعيفه ومنخفضة، والفراغ الشاسع يظهر فى السماء ، ويؤكد بندول الساعة الزمن وينبىء عنه بأفعال وهو مستند اليها كأنه فى هاوية من الأ سئلة :

« أيعلم المرء من هو ؟ أن كل ما نعتقده ونفكر فيه ونقوله ،لا نعرف شيئا عنه ، ولا أساس له من الصحة » « انك تخدع نفسك » ويالأسف، مع الحياة ماهو مطلق وما هو مكتمل ، آلامنا ، احتياجنا ، شقاؤنا ، نراه ونلمسه وننفى ما تبقى بل تسولنا هو الذى بمقدوره أن ينفيها •

نعم أنت على حق ، فشقاؤنا هو الشيء الوحيد المطلق والذى هو كائن بالفعل » •

حقيقة ، اننى المس الشقاء ، فهو يبدو واضحا على وجهيهما •

***

ثم كرر ما قاله : « نحن الشيء الوحيد المطلق الذى •••• » ثم توقف عن الحديث كمن يشعر بنقطة ارتكاز بين طيات الزمن واردف « نحن » •• ها هو قد عثر على صرخة ضد الموت « نحن » وكررها « نحن » « نحن » •

والمرأة عند قدميه ، وكل ما فى وجههما يستطع ويتلألأ كالنجوم ، ها هو والمرأة عند قدميه ، وكل ما فى وجهيهما يسطع ويتلألأ كالنجوم ، ها هو قد بدأ يقاوم •• ياله من تقدم كبير بالنسبة له •

« أننا سنبقى •

سنبقى ! بل بالعكس سننتهى •

سنبقى ! وسنرى نهاية غيرنا » •

وهزت كتفيها بعد اكتراث ، واكتسى صوتها برنة فيها بعض الكراهية ، « نعم •• لا •• ربما أن اردت أنت فليس فى هذا شيء من المواساة »•

من يدرى ؟ ربما لا نكن فى حاجة الى غيوم ، أو الى حزن ، لنصنع البهجة والنور •

النور باق ، أما الغيوم فلا •

فأجابها بهدوء : لا •

وأردفت هى ثانية : « هذا شيء لا مواساة فيه » •

وفجأة تذكر ان كل هذه الاشياء قد دارت بخلده ، فقال لها بصوت يشبه الاعتراف ، بنبرة فريدة ، الى التمتمة قريبة : « اسمعى ، تخليت ذات مرة ، اثنين فى الأيام الأخيرة من عمرهما ، يعيدان ذكرى آلامهما .

هل جاء هذا فى قصيدة ؟

قال : واحدة من بعض القصائد التى لها قيمتها » .

عجبا هذه أول مرة يبدو فيها صريحا مخلصا ، تدب فيه الحيوية شيئا فشيئا ، لقد أقلع عن اختلاجات القضاء والقدر ، واسلم لخياله العنان ، واثناء حديثه عن هذه القصيدة اعترته رعشة ، واحسست بأنه سيتحدث بنية صادقة ، بينما أرخت هى رأسها لكى تستمع اليه .

وقال : « رجل وامرأة ـ مؤمنين ـ كآدم وحواء ، وفى آخر أيام حياتهما ، يعيشان فى سعادة ويتمنيان ان يموتا فى سبيل اشياء نعتبرها نحن حزنا ، يصدقانها ويفكران فيها ، فى الجنة التى سيبعثان اليها .

وقالت ايميه :

ـ وهل سنعود نحن الى جنتنا ، جنتنا المفقودة حيث البراءة والنقاء، والصفاء وأسفاه كم افكر فى هذه الجنة » .

فقال : « الصفاء ؟ .. نعم هو ذاك فالجنة هى النور بينما الحياة الدنيوية هى الظلام : وهذا هو سبب ما تغنيت به : ظلام سائد ، وانوار ينشدانها .

وقالت « ايميه » : « مثلنا » .

وكانا هناك ، هما أيضا فى الظلام ، لا يتحركان ويتحدثان بصوت هزيل :

« هؤلاء المؤمنون يتمنون الموت كما نتمنى نحن البقاء ، وفى هذا اليوم العظيم ، تغيرت كلمة : الموت ، بدلا من الخبز .

« وكنت أود أن يكون هذا الحديث بازغا بزوغ الفجر ، فهؤلاء يتضرعون الى الله بقلوبهم وبعيونهم وبأفواههم أن ينقذهم من الظلام الدامس وأن يشفيهم منه ، وأخيرا ، عندما يعلمون أنهم ملاقون ربهم لا محالة ، يشكرون .

« فهم بانسانيتهم لا يبغون من الله سوى أن يبعد عنهم الظلام

ويحميهم منه ، لأنه يعترض النور الالهى ، كما لا يرجون من الله سوى رضاه عنهم ، فهم لا يرون منه سوى علامات باهتة فى السماء •

يقولون : أحسن الينا بالشعاع الذى يتوالى من الأزل يلامس النجوم، والذى يعطينا انعكاسه أحيانا ، كأنه خمار ، وهم رافعون أذرعتهم الضئيلة كأنه بصيص من الضوء الخافت •

أما انا فكنت اتساءل أمام هذا المشهد الذى أراه : هل هما الان فى سكرة الموت ؟ أليست هذه هى روحهما المشتركة تعبر عما يجيش بنفسيهما حتى يصل الى أذناى ؟ الشعر ؟ الشعر يعبر عنهما ويشير اليهما ويعتليهما ، فهو يخرج بحياتهما من المجهول ، كما يتلاءم مع عمق اسرارهما فبالرغم من أن المرأة مرهقة الا أنها اسندت رأسها من جديد ، وبدا هو أكثر أهمية منها وجمالا •

واستطرد حديثه عن المؤمنين قائلا : « أنهم يحاسبون أنفسهم • فقبل أن يطأوا عتبة السعادة ، يراجعون ما اكتمل من أعمال فى حياتهم ، كم من احزان ! وكم من حداد وهلع يعترفون بكل ما اقترفوه ولا ينكرون منه شيئا ، من ماضيهم المخيف • أى قصيدة هذه التى تحوى البؤس كلــــه •

« أولا سنة الحياة الضرورية ، كميلاد الطفل ، المعرفة ، ثم المرض ، يليه الالم ، كل هذه الالام التى نعللها بقصور الطبيعة ، والكفاح من أجل العمل من الصباح حتى المساء ، ليتمكن المرء من العثور على قوته فى حالة عدم قدرته على العمل •

والأرض من ناحية تتعجل الاستيلاء علينــا ، حتى نوارى الثرى نهائيا ، ينهكنا التعب ، فتهرب الابتسامــة من الوجوه ، ويصبح المساء والمأوى فاعلين الا من الأشباح التى لا تهجع » •

هذا « وايميه » تصغى متقبلة الحديث ، وفى هذه اللحظة وضعت يدها على قلبها وقالت : « أناس مساكين » وتململت فى جلستها ، فهى ترى أن المرء يذهب دائما الى أبعد مما يجب ، وهى لا تريد تشاؤما أكثر مما هى فيه ، سواء كان المشهد مبالغا فيه أم مملا لها •

وبعد مزج بين الخيال والواقع ، تعترض المرأة فى هذه اللحظة على القصيدة أيضا :

رفعت المرأة نظرها ، وبحياء ، قالت معترضة : « الطفل الطفل الذى جاء لينقذنا » « الطفل الذى نعطيه الحياة ثم نأخذها منه » •

ويجيبها الرجل : ‥ هو لا يريد منا أن نكتم أو نتصنع الالم ، لان فى الماضى شقاء أكثر مما كنــا نتصور ، فللحيــاة تبريرات كثيرة ومعقولة ٠

« ويولد الطفل ، يولد قلب جديد ،يولد الشقاء وبســببه تدمى الجوارح الانسانية ، وأن ضحى بمخلوق يترك خلفه أكثر من شكوى انها آلام الحلقة لاتنتهى ، بل تتسع لتصبح كربا ‥ » ٠

وهذه هى عاطفة الامومــة ، البطولة والتضحيــة فى قمــة النفس المتذبذبة ، تحاول جاهدة أن تعيش سعيدة مبتسمة بالرغم من العذاب والدموع التى تسيل ‥ ولكن ‥ دائما الشك : تذكرى نهاية العمل عند الغروب ، والرقة الجزئية فى الهجوع ‥ أوه كم من مرة فى السماء تلصصت عيون على بعض العائلات وكم من مرة تعثرت يداى وهى تتحسس جبهات المحبين ثم أترك يدى الى جوارى حيث قهرنى ضعفى وبكيت ‥» وبكيت ‥ » ٠

ولم تستطع « ايميه » أن تمنع نفسها ، فقد بدرت منها حركة ، خيل الى انها ستقول له لقد كنت قاسيا ٠

ثم قال هو وعينيه تبرقان : « قابيل » وقالت هى بصوت منتحب : « هابيل » وتألمت لذكرى الأخوين اللذين كانا يبغضان بعضهما الى درجة انهما تقاتلا ، لقد كانا يعيشان فى قلبها ولحمها ‥٠

وخطرت لها فكرة أخرى آلمتها ، وهى صــورة كل طفل يموت : « الصغير الأفضل ‥ انى أراه دائما بالرغم من عدم وجوده » ، ومدت يديها الى لا شىء الى المستحيل ، تئن ، وتمزقها قبلة خاوية ، وقالت :

« ومع انه لا وجود له ، فانى أدلله » وقال الرجل مزمجرا : الموت صلاح مشئوم يتركنا ، شر للذين يحبون الى درجة العبادة ـ وصدرت منها صيحة سامية : « يا لشقاء الأمومة » ٠

أما أنا فقد أخذنى صوت الشاعر الذى ينشد بانسجام ، وهو يهز كتفيــه ، مأخــوذا به حتى حسبت أن الأحــلام تحققت ، وقال محادثا « ايميه » :

« ثم وجــدوا أنفسهم وقد تخلى عنهم أبنـــاؤهم ، بعدها كبروا وأحبـــوا » ٠

« فالطفل يتركنا حيا كان أم ميتا : لأن الصغير يمقت الشيخوخة طالما هو شاب قوى وحساس ، وطالما أن الربيع القاسى يوارى الشتاء ،

وأن القبلة لا تكون نابعة من القلب الا اذا كانت على شفاه شابة ·· سوف تتركين والديك وتهربين من العناق القوى وثقل أذرعهم ·· » ·

وفكرت مليا فى المشهد الذى رأيته ، فى الليلة الأخيرة وكان هذا الرجل يتحدث عن مأساة وقعت لى فى حياتى معهم ، فقد كان هكذا ، امرأة عجوز احتضنت اثنين من الشباب الذين لجأوا الى الظلام ليكونوا أحرارا فى عناق غير مجد ، عنـاق ضال ، لقد كان على حق هذا المفكـر والمتشرد الغامض · واستطرد :

« ولا رجـوع الى الشقـاء الذى لا ينضب من الحيـاة أو حتى من الندم ·· ينام الليل ، كنا ننسى ·· لا كنا نحلم ، والهدوء يفكر فى الأشباح الحقيقية فالنوم لا ينام مطلقا : فأحيانا يحتضر ·· وأحيانا أخرى يلاطفنا بأشكاله المختلفة ، الرؤية التى نراها ، فدائما تسبب لنا الآلام ، حزينة كانت أم حلوة ، فهى تدمى أيامنا ولياليـنا » ·

« لما كنا نحن الاثنين ؟ » قالت الزوجة هذا متمتمة ·· يتمتعون بالحب ، وفى نهاية العمل ، يذهبون معا ليستريحوا ويتمتعوا بالراحة والحنـان ··

« ولكن الليل ·· لقد كان كل منا للآخر فى لحظة ، وكنا نبحث عن طريقنا بين الطرق ، وكنا نستحث الخطى الى المسكن السيىء السياج ، كأننا ذاهبون الى بقايا حطام فى أحضان الأمواج ، وعندما عمت الظلال بطن الوادى ، كانت نظراتى تقع على نبضات قلبك تحت الشعاع المترنم ، وحيدين ، ماذا كنا نقول لأنفسنا ؟ ، كنا نقول : أحبك ·· » ·

« ولكن للأسف فان هذه الكلمة لا تحمل أى معنى طالما أن الكل وحيـد ، وطالما ان كل صوتين ، مهما كانا ، وهما يسران بأسرار غير مفهومة ، هـذه هى اللعنة التى يصبونها على الوحـدة ، الوحـدة التى تضطهدهم : « أيتها الفرقة التى تحول بين القلوب ، أيتها الأرض التى تثقل على كل منهم أيها الهدوء السخيف للأفكار ، أيها المجنون ، أيها العاشقون نحن نبحث عن أنفسنا فى المجهول ، لقد كنا هناك ولا شىء يجمعنا ، قريبين مرتعدين ، تتخالط الأصابع تحت الكواكب التى تستوى على العرش فلم نكن سوى صديقين ·

فقالت « ايميه » : انك تعترف بذلك فى قصيدتك ما كان يجب عليك ·· آه هذا أكثر من اللازم ··

(هو : ثم حلت لحظة القبلة والعناق بالرغم من صعوبة الفكر ولم تتعانق الأجساد أكثر من الأيدى بسبب الهذيان) فقالت وهى ترتعد وتحس بخجل مزدوج فى كل كيانها ، أعرف ذلك ·

هو : وفى ساعات اليـــأس ، ما كان من الهـدوء الا أن زاد من عزلتهما •

« فيطأ الهدوء فى أجسادنا كما نطأ نحن نعش أو تابوت ، وتمتلىء مقلتانا بالدموع وتبكى قلوبنا من الوحدة ، ثم •• رأيت اللامحدود هشا وعميقا •• وكل منا يعتبر عالم فى حد ذاته » •

واستطرد حديثه قائلا :

« ومن خلال كلام هؤلاء المؤمنون ظهر اليأس والألم فى ضمير كبير عظيم لا يعذر وانتهت اللعنة ، وفضلا عن ذلك فقد انتهت الحياة ، وكانت المرة الأخيرة التى يطرقان فيها هذه الموضوعات •

« فالمرأة ، بحب الاستطلاع الذى طبعت عليه تتطلع الى بعيـد ، عند خروجها الى الحياة ، وكما بدأت حواء ، انتهت ، وصعدت روحها الرقيقة الى سرها كأنها قبلة على شفتى حياتها ، وكانت تريد أن تكون سعيدة فعلا •• » •

« أما ايميه » فقد حلق فكرها مع حديث صديقهـا فاللعنـة التى ذكرها فى حديثه ، وهى ماثلة للعنة التى تحل بها ، قد أعطتها بعض الثقـــة •

ولكن يبدو لى أنها قد هدأت ، واستعادت رباطة جأشها ، فكانت تصغى وتسمع وتكبح جماح نفسها • وقالت : « ونحن أيضا ؟ أليس كذلك ؟ » •

كم يكون هذا النوع من الحياة الممزوجة بالفن مؤثرا نوع درامى وغنائى ، وهما يقومان فى وقت واحد بدور المؤلفين والممثلين والضحايا !

فنحن لا نعرف حقيقتهم ، فليس هناك سوى حقيقة واحدة عظيمة ، لكل من العبادات والقضاء والقدر ، هذه الحقيقة تبدأ من حيث تبدأ المأساة التى يمثلانها ويلعبانها والتى تلعب هى بها بدورها •

ثم استمر صديق « ايميه » فى حديثه عن المؤمنين قائلا : « ويستولى عليهم أمل كبير فى التقوى والورع ، فتقول المرأة لرجلها : « اننى أعتقد فى الله ولكننى لا أصدق نفسى ! » وذهب حب استطلاعها الى أبعـد من ذلك : « وكيف ستكون الجنة ، وكيف لن نشعر بألم » •

« فأجابها : اننا نلمح نوعا ولكن فقيرا من الجنة على وجه الأرض ، فالآمال والاحساسات وجزاء كبرياء النفس ، كل هذا يعد على هامش

الجنــة ، وهى كلحظات قصــيرة يهبها الله لنا ·· ولكن تحتجب سريعا فحزننا وفضيحتنا وسوداويتنا الانسانية ·· والآن سيقع طريقنا الحزين، وفى هذا سيكون الله بدون نهاية ·

وأجابته المرأة : « وماذا سأصير أنا ؟ » ·

فتدخلت « ايمية » وقالت : « انها على حق » ·

فاستطرد :

« وحدثها عن السعادة الكاملة موضحا لها ان هذه السعادة ما هى الا جوهرا تضيعه الطبيعــة علينا ولا يمكن أن نلمس الحيــاة الأبدية (الخلود) دون اختبارها ويجب أن نترك الله يعمل ، ونحن كأطفال نائمون فى أعماق الليل » ·

فقالت « ايميه » : هــكذا · ·

فأجابها صديقها : الا أن المرأة التى وقعت فريسة للكهنوتية الى درجة انها قد احتكرتها ، سألت سؤالها العضال : « ماذا ستكون ؟ » ·

« وحينئذ أجابها من جديد : لانهم لن يكونوا وبالرغم من انه كان يريد أن يقول شيئا ايجابيا الا ان الحقيقة قد هربت منه ووجهته الى السلبية : لن تكون أكثر من قطع بالية من اللحم والزفرات ·· » ·

« ولكنها صرخت مرتعشة : « ماذا ستكون » ، أكثر من ظل ؟ أكثر من فراق ؟ أكثر من مستقبل ؟ أكثر من رغبات ؟ ، وطالما أن الرغبة لا أمل لها ، فحالها يرثى له ·

ــ أكثر من أمل ؟

ــ الأمــل شــقيا طالما انه يتعشم ويأمــل : كثير من التضرعات والابتهالات ، فالتضرع هو أيضا مجرد بما أنه صيحة ، تخرج منا وتتركنا ·· أكثر من ابتسامة : أليست الابتســامة دائما شبه حزينة ؟ فالمرء لا يبتسم الا لكآبته ، وبسبب قلقه ، ووحدته السابقة ، وآلامه التى تهرب ، فالابتسامة لاتدوم ولو دامت فلن تكون ، فمن صفاتها الفناء » · ولكنها أعادت عليه سؤالها : « ولكن ما مصيرى أنا ، مصيرى أنا ؟ » ، فهذه الصيحة : « أنا » قد ملأت أرجاء المكان · ومرة أخرى ألقى عليهــا مجموعــة من العبارات الخياليــة · فأخذ يعرض من جديد الآلام المفاجئة كأنها شبح مخيف ، يخرجها من مدفنها المجهول ويعترف بما لم يعترف به من قبل مطلقا ·

« هناك أشياء كنت أخفيها عنك ، كنت أقولها لك ولكننى كنت أكذب » ٠

فكان يؤلف أشياء ليجد ما يجيب به على الأسئلة الساذجة ، ويعطى تفاصيلا للرغبات وكل همسة من حديثه ، تنبىء عن عذاب أليم ٠ لقد تمني كل شيء ، مجموعة من التمنيات الأزلية : الخير للغير ، نصيبهما من الحياة ، وكذلك المجد ٠ لقد عبر أيضا عن مأساة مدفونة فى نفسه بقصيدة صاغها بقدر المستطاع : « أيها الجحيم القاسى المتوحش ، كم تشبه ابنتنا فجرك فهو لم ينوء بحمل رغباته فكل ما هنالك أنه يتألم منها ، ففى هدوء تام ، كتم فى نفسه الرغبة الأبدية : « مثبتة فى نفسى ، بأكملها وبحجمها ٠٠ أوه ٠٠ تتشبث بقلبى ، مختفية تتعذب الألم الذى لا يمكن الاعتراف به من عدم اقتراف اثم » ٠

« ومع ذلك كله فهو يتمنى الماضى ، ويريد أن يتغلغل فيه كما يتغلغل فى القلب المحب ولكن الذكرى لا تخمد فهى لا شيء وهى ليست لها وجود ومن يبحث يتألم ، وتصيبه آلامه القديمة ٠

« هو كان أيضا ، بل هما كانا ، الاثنين ، بالرغم من الصلاح الذى غرس فى نفسيهما مع كبرهما ، تسيطر عليهما فكرة الموت ٠ فهذه الفكرة أصبحت فى كل مكان ، لأن الشيء المخيف ليس الموت ذاته ، بل فكرة الموت التى تهدم كل فاعلية عارضة ، ظلالا كأنها أنفاق ، فكرة الموت : الموت الذى يعيش ٠٠ » أوه كم أتألم ٠٠ كم يجب على أن أتألم ٠

« هذا هو ما كان وما لا سيكون ، هذه هى أنواع الظلام التى حالت بيننا ، وبين استمرار السعاد ة، فكل شيء ينقمع الى الطغى والشؤم اللذين تريد أن تهرب منهما الحياة ٠ فصاح : « اننا مثل هؤلاء الذين لم تستنير عقولهم مطلقا ، ويسودهم الغموض فى كل مساء ، هؤلاء من كانت دماؤهم سوداء ، هؤلاء الذين ما لمسوا شيئا ، يتسخ بسبب رؤيتهم المظلمة ، وعيون حالكة السواد لا ترى ، لسوادها وانطفائها وفراغها ٠٠ يحتاجون لنجدة كبيرة من السموات ٠٠ أتذكرين عندما اجتمعنا تحت عاصفة ليلية هادئة ، وتمنينا لو أن الليل يطول ، ووضعت ذراعك العضيف تحت ذراعى ، وضمتنا ستائر الليل ٠٠ » ٠

« وكان الليل يسودهما حقيقة كالظلال ، يتدفق منهما كجرح آدمى ، ومن أفكارها الطفولية ، قال صائحا : « سيتلاشى الليل ، وتصبحين أنت النور » ولكن الوعد المشفق للمرأة ، لم يكن لرأيه تأثير على ما تشعر به من رعب ، فلا زالت مصرة على أن تعرف : ماذا ستكون ، ما هو

مصيرها ؟ لان النور لا شيء ٠٠ فهى تحاول جاهدة دون جدوى ، أن تناضل ضد هذه الكلمة ٠

« ونسب اليها تعارضها مع نفسها لانها تنشد السعادة الدنيوية وسعادة الآخرة معا ، فأجابته بأنها ليست هى التى تتعارض مع نفسها بل الأشياء التى تتمناها هى التى تتعارض ٠

ثم تناول فرعا آخر من فروع الخلاص ، وأخذ يشرح بطريقة يائسة : ليس فى مقدورنا أن نعرف كيف يتسنى لنا ذلك ؟ أى ضرب من الجنون ، وأى انتهاك للحريات ان نحن حاولناه ؟ ان الأمريتعلق بنظام مختلف تمام الاختلاف عن الذى نتبعه نحن ، فالسعادة الالهية تختلف تمام الاختلاف عن السعادة الانسانية » فالسعادة الالهية خارجة عن طاقتنا » ٠

فقالت وهى ترتجف : « ليس حقيقة ٠٠ ليس حقيقة ٠٠ فان سعادتى ليست خارجة عن طاقتى أنا طالما أنها تخصنى » « وطالما أن الله هو رب عالمه ، لانه عالمه ، فأنا ربة سعادتى لانها تخصنى » وأضافت بلهجة قاطعة : « ان كل ما أبغيه هو سعادتى أنا كيفما كانت وكيفما كنت أتألم » ٠

وفى هذا الوقت كانت « ايميه » تختلج ، فقد فكرت فيما قالته المرأة ، « جواب يخصنى شخصيا كما أنا هنا الآن » فهى تشبه الى حد قريب هذه المرأة أكثر من شبهها الى نفسها ٠٠

وكرر الرجل : « أنا كيفما أتألم » ٠

« عبارة لها أهميتها فهى تقودنا غريزيا الى قانون عظيم : ان السعادة ليست تعبيرا حسابيا أو شيئا ، انما هى تتولد عن البؤس وتؤخذ منه عامة ثم تصبح الفرقة والألم كالظل والضوء لا ينفصلان « ففى تفريقهما ، استخلاص لهما معا » ٠

« أنا كيفما أتألم » كيف يكون المرء سعيدا وهو محاط بالهدوء الكامل والصراحة الصافية النقية والمعنويات كأنها صور ، لقد خلق الانسان بقلب غير منتظم ، فلو انتزع المرء كل ما يسبب له من آلام ، ماذا يتبقى اذن ؟ والسعادة التى ستعود علينا بعد ذلك لن تكون لنا ، بل ستكون لآخرين ، فهناك صيحة مختلطة تقول ومتى تعتقد أنها على حق : لدينا شعاعا منعكسا من السعادة طمست معالمه الظلال ، وان اختفت الظلال ، فتكون لدينا السعادة كلها ــ أكذوبة طائشة ، وأكذوبة طائشة أيضا اذا نحن قلنا : سنحصل على سعادة كاملة لم تستطع ادراكها ٠

« **وقالت المرأة :** « لاأريد من « السماء » فقالت « ايميه » : ما هذا (وهى ترتعد) أكان يجب أن نكون تعساء فى الجنة ؟

ورأيت « ايميه » تلوذ بالصمت وتنتحى جانبا ، مرفوعة الرأس وقد فهمت أخيرا أنه لكل هذا الحديث أجابها ببساطة وقد تكون فى نفسها فكرة سامية وأكثر حقيقة .

واستطرد صديق « ايمية » :

« والآن والرجل فى حالة ائتلاف ، وبالرغم من ذلك فقد كان يشعر منذ لحظة بأن أى خطأ سينهى غضبه ؟ وها هو ذا يعبر تعبيرا كاملا عن الحقيقة الدرامية التى نلمحها فى خبايا النساء فقالت له : والله ربنا ؟

ألا يستطيع شيئا لهؤلاء ؟ ألا يوجد ما يمكن عمله ؟ فهـو ليس مستحيلا ، وما هو الا الله .

« ماذا فعل هذان المؤمنان اللذان لا عزاء لهما بالرغم من هذا الا الله .. أعاد الذكريات التى مرت بهما فى حياتهما ، ذكرى تلو الأخرى ، يستعيدانها بالرغم من مؤسسها والى جانب ومضـات السرور هذه من البهجة والكبرياء ، فكانا حتى هذه اللحظة يقولان أنهما جزئيات من الله ، ورأيا الظلال التى تسمح لهما بذلك ، والضعف الذى يجهز له والمخاطرة والشك يحيطان بهما من كل جانب كأنها العناية .. وكذلك الرجفة التى تمنحهما بعضا من الحياة .. حقيقة أن مظهر قضاءهما وقدرهما يتمثل لهما فى حبهما ويبهر بصرهما .

فلو لم يكن هو فقيرا ، ما كان برهن على ما غمرته به من احسان عندما اقترب منها ، من نورها ، نورها الذى يعتبره شيئا ضروريا ، وثغرها ، ثغر المرأة الذى ينادى فى سكون « يبدو أنهم ـ المؤمنون ـ يعيشون من جديد ، لا يفهمون بعضهم البعض ولكن شيئا فشيئا سيفهمون، يبحثون عن الظلال فى كل مكان أى يبحثون عن أنفسهم ، وفى كل وقت ، نهارا ، وفى وقت الغسق ، فى أحضان الحجرة وفى ثنايا الغابة ، يتأملون الطبيعة ويتفهمونها بل كانوا يفهمونها ، ويعطونها أكثر مما تستحق ، كما يعطونها ما ليس لها .. ذلك عندما يكون شعورهم بالموت مصحوبا بابتسـامة فى جوف الليـل : « يا للأسى ، النهار وكل شىء من حولنا يحتضر » .

أما عن نفسى ، فلم أكن أدرى باسم من يتكلم هذا المخلوق ولا عما اذا كانت هذه المسألة تخص « ايمية » أو تخص الآخرين .

ثم استرسل صديق « ايمية » فى حديثه عن المؤمنين :

« كان الجو باردا ، وكنا خائفين ، وأنت ، كانت الظلال تحوطك من كل جانب : ليلنا ، وثوبك ، وحياتك ٠٠ ولكن أى فجر كان ، عندما توجهت نحوك » ، « آه ٠٠ وعندما أخذت رأسك الجميلة بين راحتى تحت ستار الليل ولمست فى حركاتك المتقطعة سكون فمك للقبلات ، وبشرتك التى تبدو فى الظلام بيضاء جميلة ٠٠ كملاك ٠٠ » « وعندما كنت أقترب من وجهك الذى تنعكس عليه ابتسامتى ، وعندما كنا مستندين الى بعضنا ، وأغمضت عينى وخبأتهما فى شعرك ، شعرك الذهبى الذى يبهرنى كما تبهرنى أشعة الشمس ، وأداعبك بيدى الثقيلتين ٠٠

« كان كل منا يحتاج الى الآخر ، وكل منا هو سبب آلام الآخر ، أوه ٠٠ سيكون حالنا دائما : أمل ودموع وشك ٠٠ وبالرغم من الضعف والعجز والنسيان ، فسيتصدر حبنا المسكين كل شىء ٠٠ » ٠

فقاطعته ايميه قائلة : « يجب على كل منا أن يراعى قلبه ويحبه ، وألا يندم أى ندم » ٠

واستمر دون أن يلقى لها بالا : « وكمن يقول عن نزعه الأخير : « ان الحياة يطول أجلها ولكنها تغرق بيننا بقدر المستطاع ، يا للأسف ولا تدمج مخلوقين لتجعل منهما مخلوقا واحدا ، حينئذ تخلقنا متشابهين الى حد ما ، ولنخلق الحنان والألفة بيننا حتى يشعر كل منا بالآخر ، فاكتسبنا بذلك الكثير : جمع شملنا ، الطقوس الدينية ، ودين متذبذب لشقائنا ٠

« شقاؤنا الذى نجده مع الموت فى كل مكان ، كنا نعيد الضعف الانسانى ، فى الريح التى نشعر بأنينها والتى تناهز وتقترب ، والتى تذهب دائما مع أفول الشمس فى فصل الصيف ويأتى الخريف الذى يبعث فى النفس بأوراقه الميتة حزنا قاتلا ، وحتى عظمة السماء تبدو ضربا من ضروب الجنون ٠

« وكنا نقاوم بأمل ، ولكن كان من الصعب الاعتقاد بأن قلب الحجر من حجر أيضا ، وأن المستقبل غير برىء ومعرضا للخطأ » ٠

« هل تذكرين عندما أسدل الليل ستائره وكنا نشعر بالشيخوخة وقد حلت بنا ، والتقت أيدينا وهى غير قانعة وتشابكت ، وبالرغم من هذا ، كنا ننظر الى المستقبل ! المستقبل !

وكانت غضون خديك تبتسم ، كل شىء كان جميلا جمالا مهتزا ، والحقيقة الراسخة تتساقط من عظمة السماء وكان آخر انعكاس لها على

جبهتك المضيئة ، وأهدابك النحيلة تتحرك متثاقلة ، ينقلها الماضى بعبئه، وكنا نأمل أن تلين الحجارة تحت جنح الليل ، ولكن عينيك كانتا فى مثل لون الذهب الى درجة أنى أحسست انك تموتين » .

« والحياة تتحرك تحت تأثير نوع من الحياة المتكاملة » .

« جميل هذا اللون الذى تتغنى به ، من الجميل أن يصل المرء الى نهاية الأيام وهكذا عشنا فى الجنة ، بل عشنا الجنة نفسها » .

« وظلا هكذا الى أن قالا ، وبحياء : « أحبك » .

وعلى شفا السماء الأزلية ، أخذا يبحثان تحقيق بداية لحياة متواضعة واستغفارية .

« كانوا يطمئنون أنفسهم بأن الله يتألم اذا رآهم يموتون ، وحتى الذين يتألمون ألما كبيرا ، يودعون أنفسهم وداعا مخيفا تنتهى به الدراما .

فصاحت « ايمية » من أعماقها قائلة : انهم على حق فأجابها صديقها الشاعر : هذه هى الحقيقة ، فهى لا تمحو الموت ، ولا تنتقص من الفراغ ، ولا تؤخر تقدم الزمن ، ولكن الفكرة الراسخة لدينا عنها هى أنها ــ أى الحقيقة ــ تخلق من كل هذه العناصر الأسس الجوهرية السوداء التى توجد فينا .

فالسعادة فى حاجة الى التعاسة ، والبهجة تشكل جزءا من الحزن ، وقلبنا يختلج بفضل صلبنا على الزمن وعلى الفراغ ، فلابد لنا أن نفكر مليا فيما هو ذو أهمية ، ولا نطرق الا ما يربط بين دمائنا وبين الأرض تذكرى « « نحن خليط أكبر كثيرا مما نظن : من يدرى ماذا نكون ؟ » .

ولاحت على الوجه النسائى ابتسامة ردت اليه الحياة بعد أن كانت ترتسم عليه امارات الموت ، وسألته : « لم لم تصرح بذلك عندما وجهت لك سؤالى ؟ » .

فأجابها قائلا : ما كنت ستفهميننى ، لقد ذهبت بك رؤيتك للحزن طريق لا نهاية له ، طريق مغلق ، فمن الضرورى أن أعطى الحقيقة وجها آخر حتى يتسنى لى تقديمها اليك من جديد .

ثم استطرد فى حديثه عن المؤمنين : « وهناك شىء آخر أيضا أراه فيهم وفى كل ما تحدثوا به ، عن الأحداث وعن الجمال والصلاح ، فكان يعلو رؤوسهم اكليل من النور قبل أن يفيقوا من حلمهم .

« **فقالت متنهدة :** عظيم أن يكون لدينا كل هذا الحديث الذى ألقى ضوءا على ما نرمى اليه .

ـ فقال هو : ان الشيء الذى يعطى شعورا بحقيقة العدالة هو أن يعبر الانسان عما يجيش فى صدره ، وأن يحس بما هو حى •

ثم لاذا بالصمت بعد هذا الحديث ، يتقارب مفهومهما للحقيقة السامية، التى يصعب ادراكها ، (لانه من الصعب أن تفهم ان السعادة هى أن تكون سعيدا وتعيسا فى وقت واحد) ومع ذلك فقد صدقت هى الثائرة ، هى ، التى لا تصدق شيئا ، هى التى لها قلب حقيقى يلمس ويفهم •

٩

كانت النافذة مفتوحة على مصراعيها ، يغشاها المساء ، وعلى الأضواء المتناثرة لمحت ثلاثة أشخاص يجلسون تحت الانعكاسات الذهبية الداكنة،

رجل حزين ، عجوز ، محطم ، قد ملأت الغضون والتجاعيد وجهه كأنها الأخاديد ، يجلس على مقعد كبير بجوار النافذة وامرأة قد تركت سن الشباب ، بشعر ذهبى ، ووجه كوجه تمثال للعذراء مريم •

وعلى كثب منهما كانت تجلس امـرأة أخرى ، حامل ، شاخصـة بنظرها ، كأنها تنظر الى المستقبل ، وكانت تجلس منعزلة لا تشاركهما الحديث ، تبدو هيئتها المتلئة قليلا فى بعض الضوء الذى يسقط عليها •

أما الآخران فكانا يتبادلان الحديث ، فالرجل يتحدث بصوت متهدج ومتقطع بنبرة غربية ، وأحيانا تعترى كتفيه حركة لا اراديـة ، ويداه مكتوفتان ، أما المرأة الشقراء فكانت تجلس هادئة كهدوء أهل الشمال ، يشع النور من وجهها الأبيض الشاحب ، والهالة التى تنبعث من شعرها الذهبى تشبه تلك التى تحيط الملائكة •

واذا نظر اليهما أى شخص يتساءل : هل هما أب وابنته ؟ أم شقيق وشقيقته ؟ اننى أحس حبه لها الى درجة العبادة ، ولكنها ليست زوجته ، ينظر اليهما بعينيه المنطفئتين ويقول : « يولد انسان ، ويموت آخر •• » وتململت المرأة الحامل ، أما الأخرى فقالت :

« ماذا تقول يا فيليب •• » كأنها غير راضية عما يقوله •

ربما لم يكن عجوزا ، فشعره يبدو رماديا ، ولكن هناك آلام غامضة تستولى عليه ، فالجو المحيط به ، والشفقة عليه من المحيطين به ، والحداد الذى لا يطاق كلها تدل على أن أيامه فى الحياة قد أوشكت على الانتهاء •

وحتى يقطع الهدوء الذى عم الحجرة ، يواصل الحديث بعد أن بذل جهدا واضحا ، والموضع الذى اتخذه مجلسا له بينى وبين النافذة جعل الحديث ينتشر فى فضاء الحجرة ، فتناول موضوعات شتى ، تحدث عن أسفاره وعن زواجه ولكننى لم أسمع ما قاله بالتفصيل ٠

ودبت فيه الحيوية وارتفع صوته حزين النبرات عميقا ، يملأ التأثر كل كلمة تخرج من فمه ، وفى كل حركة ، وفى كل نظرة مما جعل حديثه كبيرا ومؤثرا ، ومن خلال حديثه وحركاته استطعت أن أتبين طبيعته قبل أن يفاجئه المرض ، طبيعة نشيطة مملوءة حيوية ٠

ثم اعتدل فى جلسته ، وأدار رأسه حتى استطعت أن أسمع صوته جيدا ، كان يسرد أسماء البلاد التى زارها ايطاليا ـ مصر ـ الهند ، ثم توقف قليلا كأنه يهرب أو يختفى أو يستريح وتحدث أيضا عما يرغب فى مشاهدته ورؤيته ولكن الشفق كان قد تغلغل شيئا فشيئا ، وتبدد الدفء كأنه حلم جميل ، وفكر فى كل ما رآه فقط : « كل ما شاهدناه ، وكل ما حملناه معنا فى الفضاء » ٠

كان حديثهم كحديث هؤلاء الرحالة الذين يجوبون البلاد ولا يهدأون مطلقا ، كأنهم فى هروب أبدى ، ثم توقفوا لحظة ضيق الكون بهم ٠

ولما كان الرجل لا تواتيه الجرأة على أن يتحدث عن المستقبل أخذ يتحدث عن الماضى بلذة المخمور المنتشى ، وكنت ألحظ فى حديثه المجهود الذى يبذله ليعثر على ذكرى من ذكرياته فى الأيام التى ولت ، وسمعته يقول كمن يحلم :

« باليرن ٠٠ سيشيل ٠٠ « وتوقف قليلا ثم قال : « كاربيا ٠٠ كاربيا ٠٠ هل تذكرين يا «آنا » ذلك الصباح الجميل الساطع حيث كان سائق الذورق وعائلته يجلسون الى منضدة وسط الحقول ، كم كانت الطبيعة حانية دافئة والمنضدة مستديرة شاحبة كأنها كوكب والنهر يتلألأ متألقا تحت أشعة الشمس ، وأشجار الفاو الوردية وأشجار التمر هندى على شاطئه ، وهناك الخزان غير بعيد ، تسطع عليه الشمس التى تزدهر بأشعتها أوراق الشجر ، وتضفى على الحشائش لونا ورديا باهتا ، والايكات تبدو كالحلى ، والرياح هادئة ضعيفة أقرب الى الابتسام منها الى التنهيد » ٠

وأثناء حديثه ، كانت المرأة تنصت اليه بانتباه ، وتتلقى عباراته بهدوء ، ورباطة جأش ، كلها صفاء ونقاء تنعكس من نفسها كأنها المرآة ٠

واستطرد : « ولم تكن عائلة السائق كاملة العدد فكانت الفتاة مبتعدة

عنهم حتى لا تسمعهم ، تجلس على مقعد ريفى ، ترتدى ثوبا متواضعا بسيطا ، تظلها ظلال شجرة ضخمة خضراء ، حالمة ، كأنها على شاطىء غامض تحيطه ألوان الغابة البنفسجية اللون ٠

« وكنت أسمع طنين الذباب ، ذباب الصيف فى « لمبارديا » ، حول النهر الذى يجرى متعرجا تارة ، وتارة أخرى مستقيما ثم قال هامسا : « من يترجم طنين الذباب هذا الى شعر هذا محال ، ربما لان الطنين لم يكن أبدا بمفرده ، بل كان مصحوبا فى كل مرة بموسيقى الطبيعة » ٠

واسترسل فى حديثه قائلا : « وهناك تحت شمس الوسط ، واتتنى ذكريات أخرى ، كان ذلك فى لندن ، فى متحف ، أمام لوحة تعبر عن الريف الرومانى بشمسه المشرقة وشاب ايطالى صغير يقف مادا رقبته ٠

وبين جمود الحرس وانقباضهم ، وتيار الزائرين الذين بللهم المطر ، وفى الضباب والرطوبة ، كان يتلألأ ، كان صامتا واجما تملأه شمس غامضة ، يداه معقودتان تقريبا ، كأنه يبتهل الى اللوحة المقدسة ٠

وقالت آنا : ورأينا كاربيا مرة أخرى ، فقد سنحت الفرصة لنا بالمرور منها فى رحلاتنا فى نوفمبر حيث كان النهر متجمدا ، وكنا جميعا نرتدى معاطفنا ذات الفراء من شدة البرودة ٠

ـ نعم ، وكنا نسير على الماء ، كم كان هذا عجيبا وموحشا ، الناس الذين كانت الماء مصدرا لرزقهم كانوا يسيرون عليه : سائق الزورق ، والصيادون ، والملاحون ، والغسالات وأزواجهن ، ثم توقف وقال : « لماذا تبقى بعض الذكريات خالدة لا تفنى ؟ » ودفن وجهه بين يديه الحزينتين العصبيتين وأخذ ينشج ويقول : « لماذا ٠٠ لماذا ؟ » ٠

أما هى ، فقد كانت ترغب فى مشاركته ذكرياته ، فقالت له : « وكان قصرك فى « كييف » بأرضه الخصبة وفى ركن من أركانه أينعت أشجار الزيزفون والصنط » ٠

« وكان كل مكان فيه تفترشه البسط الخضراء ، مزدهرة فى الصيف ، مورقة فى الشتاء » ٠

ـ وهناك أيضا رأيت والدى ، تبدو عليه الطيبة وكان يرتدى معطفا سميكا من الجوخ بوبرة كالقطيفة ويضع على رأسه قلنسوة من اللباد تصل الى أذنيه حتى تغطيهما ، ولحيته طويلة بيضاء ، تدمع عيناه من البرودة » ٠

وبعد ذلك عاد الى أفكاره ٠

« لم أعمل فى نفسى هذه الذكرى من والدى دون غيرها ؟ أى شىء

خارق للعادة يشدني اليها ؟ لست أدرى ولكن هنا صورة والدى ، وهكذا تستمر روحه بداخلى ، وبذلك لم يمت » ٠

ثم اعترته رعشة حينما قال : « أحب باكو » ، لم أر هذه البلدة مرة أخرى بالقرب من آبار البترول وقوس قزح بألوانه المختلفة ، فى سماء واسعة لا أفق لها ، وطرق ممتدة بلا نهاية ، تبدو فيها الأخاديد كأنها قضبان ، والمبان السوداء اللامعة ، ورائحة البترول فى كل مكان ، حتى غابت رائحة الزهور ورائحة البحر الأزلية ٠

« لم أر أبدا هذه البلدة مرة أخرى ، وفضلا عن ذلك لم أكن أعرف فيها أحد ، وفى العام الماضى كان هناك « بورين » البخيل ، لا يعمل شيئا سوى جمع ماله وحسابه ٠

فقالت المرأة الشابة :

ـ متى شعر بقرب منيته يقول : « سيحل بى الخراب » وأخذ نور النهار فى الاضمحلال وبدت المرأة أكثر جمالا ووضوحا ٠ وقال الرجل متحدثا عن البخيل : « وكانت أمارات الطيبة تبدو على ملامحه هو أيضا ٠٠ لماذا لا تبدو الطيبة على البخلاء ؟ الذين يحبون شيئا حيا ذاتيا ؟

وسرت فى جسد المريض رعشة خفيفة هزت كتفيه فطلب من المرأة قائلا : « أرجوك ، أغلقى النافذة انى أشعر بالبرودة » ٠

وساد السكون مرة أخرى بعد أن أغلقت النافذة وقالت :

« استلمت خطابا من « كاترين دى بيرج » ٠

ـ هكذا دائما ٠

ـ نعم فالندم سيقتلها ، فخير ما تفعله هو التنقل من بلد الى آخر ، وفى الأسبوع الماضى كانت فى جزر « باليار » ، فهى دائما تجر ذيول ترملها الذى يحتاج الى المواساة وتجارب شبابها وجمالها وهى لا تهدف من وراء هذه الأسفار الا زيادة حدادها ووضعه فى كل مكان فى العالم ، ففى الواقع ، هى لا تريد أى نوع من أنواع اللهو والتسلية ، وهذا مما يكدر صفوها اذا ما نسيت لحظة أن تتأثر من الحياة ٠

وذات يوم رأيتها تبكى ، لانها سبق وابتسمت ، ومع ذلك فان حزنها هادىء كالسماح الذى يعلو وجهها » ٠

ورأيت خيال الرجل من خلال الستائر ، شاحبا ، تحمل رأسه رقبة نحيلة هزيلة ، ورفع يديه قائلا : « ان الألم الحقيقى موجود فينا ، لا يسمع ولا يرى ، ولكنه يمكنه بكل سهولة أن يوقف كل شىء ، حتى الحياة نفسها ، فأعظم صور الألم الحقيقى هى : « الهموم » ٠

ثم أخرج من جيبه علبة الدخان ، وأشعل لفافة ، بذراع نحيفة ، ورفيعة كالدخان الذى ينفثه ، وتحت جذب كل نفس من أنفاس السيجارة ، ومع كل نفثة من نفثات الدخان كنت أرى ضبابا كثيفا ٠

٠٠ ولم يكن الدخان الذى يدخنه دخانا عاديا ، بل كانت له رائحة خاصة كأنها مركبات طبية تميع لها النفس ٠

ومد يده الى النافذة المغلقة ، وستائرها المرفوعة قليلا وقال : « انظروا ٠٠٠ هذا « بيناريس وهاليهاباد » ٠٠ حريق ذهبى ، توهج فى الجو الرمادى ، ووميض الناس الأغراب ليسوا أناسا بل تماثيل لآلهة تحت سماء بنفسجية اللون فى المساء ٠٠ يتحركون ٠٠ كم نحن نختلف عن هذه المخلوقات ٠٠ اذا كان هذا حفل فخم ، حيث تغدق تيجان بابوية عظيمة ، وزينات جليلة للنساء وعلى الشاطىء الكاهن الأكبر ، وشعره يعلو رأسه طبقات فوق بعضها ٠٠ من يعتقد انه على حق ؟

والآن اتسعت حلقة الماضى ، ليجعل الجهد شاقا وثقيلا كأنه يوسع نطاق الجحيم والعذاب ٠

« كل هذه الأسفار ، والبلاد التى تتركها ، كل هذا لا فائدة منه ، فالأسفار لا تتقدم فى السن ، ولكن لماذا تتقدم بنا السنون مع كل خطوة نخطوها ؟ هل لدينا الوقت لأن نضع هذا الوزر الذى يثقل كاهلنا لنكون على يقين بما نقضيه ٠

وبالرغم من ذلك ، فالمسافرون لا يعرفون سوى القشور حتى هذه اللحظة ، فلم تكن هناك أسفار فى الماضى ، وكل شىء قد مضى ٠

وفى هذه الليلة طرأت على فكرى ذكرى حافة الجبل والأراضى والأدغال العالية ببلاد الغال ، تشدنى الى فرسان المائدة المستديرة ٠٠ الملك « آرثر » وأصدقائه ٠٠ يخيل الى اننى قريب منها ، وأرى أحدهم يضع على رأسه خوذة غريبة ، وعيناه فى مثل لون الزمرد ينظر الى ويثلجنى ، والآخرين كأنهم أشباح ، والمائدة الحجرية مستديرة وسط الضباب الكثيف الذى ينتشر فى الغابة ، وكانت المائدة مستديرة حتى اذا ما اجتمعوا حولها واقفين لا يكون لأحدهم حق التصدر على الآخر ، فكانت شبه رحى هائلة ، جديدة ، بيضاء دقيقة الصنع والنحت ٠

« ·· ألف عام ·· ألفين ، ثلاثة آلاف عام ·· وشاطىء طروادة ··

« أتتذكرين يا « آنا » ذلك الخط الذهبى الذى تلاقينا عنده ؟

« والبطل اليونانى الذى كان يسير بخفة على الرمال ، وقد أضفى عليه ضوء الفجر لونا ذهبيا يميل الى السمرة ، اننى أرى أثر خطاه على الرمال ، وعلى حافة كل أثر من هذه الآثار التى تركها ، وقد انهار عليها قليل من الرمال الذهبية ، والبحر ساكن بجوارها ·

اننى أرى الأثر الذى ألقته آخر موجة على الرمال المبتلة وجاءت حصوة كبيرة تحت الحذاء البرونزى فأحدثت صوتا ، انى أسمع الصوت الذى أحدثه الحذاء ·

« أتتخيلين هذا يا « آنا » خطواته ، وقع أقدامه الذى اختفى منذ آلاف السنين ، أتتصورين الطفرة التى تلزم لتحقيق هذا ؟ آثار أقدامه التى اختفت فى اليوم التالى ولم يبق لها أثر ومع ذلك فقد كانت · أين هى ؟ أين هى ؟ انها فينا نحن طالما نراها ، فى زمن غير الزمن ، وفضاء يختلف عن الفضاء » ·

وبعد هذه العبارة العجيبة المبهمة ساد صمت طويل والمرأة لاتشعر بأنها جديرة بأن تقطع هذا السكون حيث تتجلى حقيقة لا نريد أن تطفئها ·

واستطرد : « وارتطم سيفه بصخرة ، فأحدث صوتا مجلجلا وهو داخل غمده ، ليحدث فجوة ، ثم أمسك بساق رخوة لشجرة صنوبر حيث تساقطت بعض الأشواك الجافة عليه ·· وهناك ·· هناك شىء يتحرك فى الغابة ·· حيوان يجرى فى غابة الصنوبر ·· كلب يجرى وفى فمه شىء ·· كلب هذا الرجل ، يحمل فى فمه حزام من الجلد قد أصابه الجفاف من الأملاح ، حزام طروادى ·· طراودة ، والمذبحة التى طالما تغنى بها بها « هوميروس » منذ مئات ومئات السنين « ووصل المحارب على طيف ، شاخصا ببصره ناحية البحر ، له أنف مسحوب ودقيق ، وتطل جبهته العريضة من تحت خوذته الحديدية ، له حاجبان دقيقان ، تضطرب عيناه المتوقدتان تحت أهدابها ، ولكن هناك شىء أتفحصه ·· يداه ·· يداه شبه مطبقتان ، وأظافره قصيرة ومحدبة ·· ولون أصابعه كلون ظهره ، لون متأجج يميل الى الحمرة ، كأنها منحوتة فى القرميد ومرصعة بالحصى اللامعة ·

« ثم رأى الشاطىء ، والبحارة وقد انشغلوا بانزال المراكب ، يدفعونها حتى لاتصطدم بالشعب الصخرية النابتة فى قاع البحر ، الى أن تصل الى عرضه ·· ورحل الأسطول اليونانى فى هذا اليوم ، فى

المساء تحت جنح الظلام وتحت ضوء النجوم ، ورفعت المراسى وتباشير الصباح تتلألأ فى الافق « ٠

وبعد هذه التأملات ، خفض الرجل جبهته المنهكة ، واسترسل فى الحديث « بأننى أرى امتداد المياه ، وأرى هذه المياه عن كثب ، هادئة هدوء مطبق ، تتلاطم فى لطف ودعة وترغى وتزبد تحت ضوء فضى جميل ٠

لم هذا السكون « اللامحدود » ؟ هاهم على كوكب آخر ابتعدوا منذ زمن طويل ٠٠ لست أدرى ربما مئات القرون « ٠

لقد سمعت ما قاله ، ورأيته هو ايضا : مشهدا خيـاليا والرجل تحجبه الظلال ، الذكريات وصاحب الذكريات ٠

هناك اختـلاف يصعب التعبير عنه فى سمو التأمل والشيء الذى يتأمله ٠ كأن فى مخيلته قائمة بالبلاد التى طاف بها والقصور التى خاض فيها ، وذكريات أخرى متكدسة ، متكتلة ، تتسارع ، كأن الزمن يهاجمه بكثير من الذكريات : ذكريات يتحـدث عنهـا حديثا متقطعا ، واخرى لايجد لها وقتا ولا قوة لسردها ، فهو لايستطيع التنصل من هذه العظمة الساطعة التى توجد فيه ٠

تراه جالسا وقد القى برأسة الى الخلف ، وبدون شك قد أسدل اهدابه ٠٠

وذكرياته ، ذكرياته التى تعبر عنها الآلام التى كانت ترتسم على وجهه حين طاف بها ٠٠ لقد سمعت هذه الذكريات واعجبتنى ٠٠

والآن بعد أن كان بذكرياته مفتتنا ، تحول الى شاكى :

« واتذكر أن قلبى لم يكن شفوقا على ٠

« آه أن الأنسان لايستطيع أن يودع الجميـع » نطق هذه العبارة بنبرات كلها آلام واستسلام ٠

وهى ، لم تستطع شيئا حيال هذا الوداع « اللا محدود » الذى يمـلأ العيون ، عيون هذا الرجل ونظراته الأخـيرة ، هى ، هنا فقط قد ولى وانقضى يشتهيه ويناديه ، ويتمنى لو يعيده من جديد ، فهو يحب ماضيه فالماضى له شكل مقـدس ، قاسيا كان لا يرحم أم ساكنا لايتحرك ، لأن المؤمنين والجاحدين يرون أن الله تتجلى هيئته العظيمة فى أن يتركنا نبتهل اليه » ٠

وأصبح الرجل وحيدا مع المرأة بعد أن انصرفت الحامل تسير برفق وفى حذر الأمومة وضمتهم الغرفة التى لم تخلو من قبل ٠

واصل حديثه مع المرأة قائلا : « وينقضى يوم آخر « وأضاف كأنه يستكمل فكرته : « يجب الاستعداد للزواج « فأجابته المرأة الشابة :

ـ ميشيل ليس فى حاجة اليه فهو يعلم انك تحبينه يا « آنا » ، ولن يهتم بالشكليات أو بزواج يعتريه التزمت » ٠

هاهما قد احتوتهما الظلال فى هدوء ولطف : هو ، نحيف تخرج عبادته من أعماق حياته وهى تجلس امامه ، جسدها ممتلىء قليلا وأنفاسها متلاحقة وواضحة ، وقد أطلق لعينيه العنان تسرح فيها ٠ ثم قال بكل بساطة :

ـ أحبك كثيرا ٠

ـ آه ، انك لن تموت مطلقا ٠

ـ كم أنت طيبة القلب لأنك تفضلت على بأن تكونى أختى لوقت طويل ٠

فعقدت يديها امام صدرها وانحنت نحوه كأنها تسجد له وقالت :

ـ انك صنعت الكثير من أجلى ، **أنت** ٠

وكان حديثهما صريحا ، فقد فتح كل منهما قلبه للآخر ، وليس هناك أجمل من أن يتحدث المرء بصراحة دون تورية أو خجل آثم ، وأن يصارح كل منهما الآخر بطريقة مباشرة انها معجزة للسلام والبقاء ٠

بعد ذلك أغمض عينيه كأنه يريد أن يحتفظ بها بين أهدابه ، ويفتحها عليها وهى امامه ويقول :

ـ انت ملاكى الذى لا **يحبنى** ٠

وبعد أن قال هذه العبارة رأيت وجهها ينطفىء ويظلم فلست فى الحال مقدار الحب الذى يكنه لها ، وهى تعرف ذلك ، وكم أثر فى هذا المشهد البسيط :

« اللامحدود « الذى يجعل القلب يسهم فى الطبيعة : لقد أظلم وجهها ، وأيقنت أن هناك حبا عظيما يشده اليها ، **وهى على علم** بذلك ، كما يبدو ذلك واضحا فى تصرفاتها حياله ، وفى حديثها معه،

وفى نظراتها اليه ، وفى محـاولاتها بشتى الوســائل أن تواسيه فى حركاته وسكناته وتعوض له الآلم الذى تسببه له ٠

وبعد أن تأملهــا مليا ، وجعلته الظــلال اكثر قربا منها قال هذه العبارة : « انك نديمه حبى المسكينة « ٠

ثم عاود الحديث عن الزواج ، بما أن كل الاستعدادات مهيأة ، لم لاتنتهى فى الحال ؟

« اسمى وثروتى يا « آنا » ستئول من بعدى اليك عندما ٠٠ عندما ٠٠ سأكون مجرد عابر سبيل « ٠

وللاسف يريد أن يبسط يديه بالمعروف ، النعمة الدائمة للمستقبل الغامض المبهم بينما لا يبغى فى الوقت الحاضر سوى تحقيق هذه الكلمة : الزواج ٠

« لم الحديث فى هذا الموضوع ؟ « ٠

فلم تجب بطريقة مباشرة ، واستولى عليها شىء من الأشمئزاز ــ دون شك ــ بسبب هذا الحب الذى تكنه فى قلبها ، والذى يعترف به لها ، وبقيت صامتة لاتجيب على هذه التوسلات التى تنتقل منه اليها كما تنتقل النظرات ٠

ولكن ، أليست هى الآن على شفا الموافقة وعليها أن تتخذ قرارا ، بالرغم من المصلحة المادية التى تعود عليها من هذا القرار الذى يجعلها خاضعة له ، ويربطها به ؟ وتتمتم « أخبرنى ؟ » ٠

وكنا ، أنا وهو ، ننظر الى ثغرها الباسم ، هذا الثغر كأنه المحراب، أو فى وجه قديسة يبتهل اليه الجميع ، وتوضع فيه الآمال الكبار ، كما ترى فيه ايضا جمال الليل ٠

وقال المحتضر ، وهو يأمل فى الموافقة : « أحب الحياة ٠٠٠ « وهز رأسة وقال :

« لا رغبة لى فى أن أنام الليل ٠٠ فالأيام الباقية لى قليلة ٠٠ قليلة» ولاذ بالصمت بعد هذا ليسمع جوابها ٠

فقالت : « نعم « ، وربطت على يد العجوز بتثاقل ٠

وراع انتباهى بالرغم من هذه الحركة التى تعتبر مشهدا مسرحيا ، أو سمة لكبرياء فى نفسها وأرى ــ كما أرى كل شىء ــ ان التضــحية تحمل فى ذاتها كبرياء مجيدا ٠

وأصبح الحديث في البنسيون لايدور الا عن هؤلاء الأغراب الذين يشغلون ثلاث غرف وعدد لا بأس به من الأمتعة تدل على أن الرجل على جانب كبير من الثراء ، وانهم جاءوا الى باريس حتى تتم المرأة الحامل وضعها حيث أنها فى الشهر الأخير ٠

ومدام « لومرسييه » ترى أن الرجل متقدم فى السن وعلى قيد خطوات من الموت وتخشى أن توافيه منيته في بنسيونها نظرا لأنها وافقت على استئجارهم للغرف بعد توصية من معارف لها والا فما كانت قبلتهم عندها وتأمل أن يطول أجله حتى يغادر البنسيون ٠

أن من ينظر اليه فعلا يوقن أنه على وشك الموت ، فهو يجلس على المقعد الكبير ، يستند بمرفقيه الى مسنديه ، ويبدو عليه الضعف ، حتى نظراته تخرج منه بعد جهد كبير ٠

ولما كان يخفض رأسه ، يسقط ضوء النافذة على أهدابه ، وليس على حدقتيه فبدا وجهه كأن به خدوشا ٠

وأمام هذا المنظر ، سرت فى جسدى رعدة وتذكرت ما قاله الشاعر وأنا أمام هذا الرجل ، الذى انتهت أيامه والذى يسود وجوده بطريقة مخيفة والذى يكسوه جمال تقف القدرة الالهية نفسها أمامه حائرة ٠

وبينما كان المريض فى انتظار الطبيب أخذ يتحدث عن الموسيقى فيقول : لماذا يتمسك المرء بالوتيرة ؟

لقد كان النظام مبدءا للخلق الانسانى ، مبدأ كبير فى كل مكان بالطبيعة المتغيرة ، والخضوع لقانون الطبيعة الذى يجب العمل به مهما كانت طبيعته ، وهذه فضيلة تجعل الطرق مختلفة ، وتخلق سلما متساو الدرجات فى جبل من الضوضاء ، لأن الفوضى ليس لها روح ، بينما النظام له فاعليته ويدفع الى التفكير ٠

ثم انتقل بعد ذلك الى الحديث عن انسجام وحدة النغم وجزئياته ولم يصل الى سمعى سوى مقتطفات صغيرة من حديثه كما لو كانت الريح تجمع فى سرعة خاطفة نسيم الريف والبحر الواسع ٠

ثم سمعت طرقا على الباب ، موعد الطبيب ، فنهض ، وهو يقول « ان هذا السيد دائما ينتظرنى » ٠

وسأله الطبيب : « كيف حالك منذ أمس ؟ » ٠

ــ لست على ما يرام ٠ فقال الطبيب بهدوء :

ــ هيا ٠٠ هيا ٠

وغادرت المرآة الغرفة وتركت المريض مع طبيبه يجلس بطريقة تبعث على الضحك ، والطبيب واقف بيني وبينه ثم سأله ثانيا : « ها ، حسنا ، كيف حال القلب ؟ » ٠

واتخذ المشهد مظهرا جديا ، فبعد ان كانا يتحدثان بصوت مسموع، خفض كل منهما صوته ، وسرد المريض على طبيبه كل ما يشعر به فى يومه ، والطبيب يستمع الى شكواه ثم يقول له العبارة المطمئنة : « لا ٠٠ لا ٠٠ لا أرى شيئا جديدا « ٠

وجلس الطبيب ، ورأيت المريض وقد تغيرت ملامحه ، ونظراته بسبب حديثه عن مرضه المشئوم ، وبعد أن هدأ شرع فى الحديث مع الطبيب ، وهو يلعن هذا المرض فقال :

« يا للخجل » ٠٠

فأجابه الطبيب وهو ينهض : سأنصرف واراك غدا

ــ نعم للاستشارة ٠

ــ هو ذاك ، الى اللقاء غدا ٠

وانصرف الطبيب حاملا معه ذكرياته الدامية ، أخذ معه كل هذا الوزر ، البؤس والشقاء وهو لا يعرف مقداره ٠

وفتح الباب مرة أخرى بعد الاستشارة الأولى مباشرة،ودخل طبيبان، أحدهما شاب والآخر متقدم فى السن ، تبدو على وجهيهما أمارات الضيق٠

وظلا واقفين ، ينظران الى بعضهما ، وحاولت أن أتعمق فى هذا الهدوء الذى يسود نظراتهما ووجهيهما وكنت احاول قراءة افكارهما ، والطبيب العجوز يداعب لحيته وهو متكىء على المدفأة ، ثم قال بعض الكلمات بصوت منخفض خوفا من أن يسمعه الآخرون وخوفا من نطق الحكم بالأعدام ٠

وهز الطبيب الآخر رأسة كأنه يوافقه على افكاره ولاذا بالصمت من جديد كطفلين قد اقترفا اثما ٠

« كم عمره »

ــ ثلاثة وخمسون عاما »

فقال الطبيب الشاب :

ــ الحظ ساعده على الوصول الى هذا السن »

حينئذ اجاب الطبيب العجوز بلهجة فلسفية : « لقد بلغ هذا العمر والآن لن يتقدم اكثر من هذا » .



وبعد صمت عم الغرفة ، قال الطبيب زى اللحية الرمادية وهو يضع اصبعه على رقبته « لقد لاحظت الورم اللحمى عند الكسر مباشرة خلف الشريان التاجى » .

أما الآخر ، فقد حرك رأسة ، والعجيب أنه منذ أن دخل الحجرة وأنا ألاحظ أن رأسه لا يكف عن الحركة ، وأجابه : « نعم .. لا يمكن اجراء عملية »

وكان رد الطبيب العجوز عليه ، وعيناه تلمعان : « ليس هناك سوى شيء واحد يمكن أن يريحه وهو : الموت ، وأرى أن هناك نواة فى الغدد اللعابية تحت عظمتى الأنف ، وتحت الترقوة ،وبدون شك مفصل الكتف، أى أن الكارثه عظيمة ، فسيصاب كل من الجهازين التنفسى والهضمى وكذلك الدورة الدموية بانسداد ، وحتما سيؤدى ذلك الى الأختناق » .

ثم زفر زفرة ، وبقى مكانه ، يضع سيجارا غير مشتعل بين شفتيه، ويداه معقودتان ، والطبيب الشاب جالس على المقعد وهو يداعب رخام المدفأة بأصابعه .

وقال أحدهما : « عندما يتعرض المرء لمثل هذه الحالات فالمرجح أن السرطان يكون قد استقر فى مكانه » .

« سيدى ، ماذا تقول للمرأة الشابة ؟

ـ اخبرها بأن الحالة خطيرة ، خطيرة جدا ، واننا بذلنا ما فى وسعنا وكل ما نستطيع بذله من جهد وقدرات وهبتها الطبيعة « اللامحدودة » لنا .

ـ ان العبارة معروفة ..

ـ أفضل ..

ـ اما اذا اصرت وارادت أن تعرف ؟

ـ حينئذ يجب أن تدير رأسك ولا تجيب .

ـ ألا نعطيها قليلا من الأمل ، انها مازالت شابة ؟

ـ بالعكس لأن رد الفعل عندها سيكون أكثر خطورة وسيعود علينا نحن وستتهمنا بالجهل ،والكراهية .

ــ وهو ، هل يعرف ؟

ــ لست أدرى ، فعند فحصى له ، كما كنت ترى ، كنت احاول أن أتخذ حذرى وأنا أسمع اجاباته ، فأحيانا يساورنى الشك بأنه لايدرى عن حالته شيئا ، واحيانا أخرى أشك فى أنه يرى نفسه كما اراه » ٠

ومن جديد ، عادا الى الصمت المطبق ، لم يتفوها بكلمة واحدة ، كأنهما ما جاءا هنا الا لينظرا الى بعضهما ٠

ثم ما لبثا أن تبادلا حديثهما النادر ، بحذر ، ولكن أمام هذا الجرح الخطير ارتقيا بحديثهما الى درجة لا بأس بها ، وأحسست فعلا بما يدور فى خلدهما : ثم رنت هذه العبارة : « وهذا ينمو كما ينمو العقل » ٠

واسترسل الطبيب العجوز فى الحديث فقال : « كالطفل تتغذى الجرثومة على الخلية ، كما قال « لانسيرو » على طريقة الـ « سبير ماتوريد » فهى كائن دقيق يتغلغل فى الخلية ويخصب فيها ، وتكون لها قدرة على التكاثر ، وتتخذ شكلا جديدا لحياتها وتصبح الوسيلة المانعة لهذا النشاط المعتاد للخلايا ، جرثومة طفيلية بدلا من أن تكون البذرة العادية للحياة ٠

« ومهمـا كانت طبيعـة هذا الـ « بريوم بوفنس » أو الـ « ميكرو كوكسوس فيوفورنس» او نتيجة التكاثر غير المرئى للكائنات الباشلورسية لـ « كوش » أو أى كائنات أخرى ٠

فدائما ما يكون تزايد نسيج الخلايا الطفيلية السرطانية فى البداية مثل نمو نسيج الجنين ٠

« ولكن الجنين يصل الى نهاية » ٠

« تعيش الجراثيم فى اماكنهـا الى سن البلوغ ، وتكون الأغشيـة السطحية الخاصة بها ، والتى أطلق عليها « كلود برنارد » فى كتابه : « ليمتيانت » والجنين ينتهى ويولد من جديد ٠

« بينما النسيج السرطانى نفسـه لا ينتهى فهو يسير فى نموه الى مالانهاية ٠

« واليوم يظل جرثومة لا يمكنها أن تنمو بشكل كامل أو هارمونى « فهى تنمو ، دون أن تتخذ شكلا معينا أو هيئة مميزة ، واذا استؤصلت تبدأ فى التوالد من جديد بنسبة ٩٥٪ على الأقل ٠ فما حيلة اجسادنا بصدد هذه الأجسام التى لاتنتظم ولاتخرج ؟ وما هى الخلايا التى يمكن أن تضاهيها سواء فى جسدنا أو هياكلنا العظمية ، أو أى جهاز فى جسدنا ،

أو تجرى فى دمائنا ، ما عسانا نفعل لمواجهة هذه الكتلة التى لا حل لها ولاحدود ٠

وأومأ الطبيب الشاب برأسه موافقا وقال من أعماقه أنه سيبحث ، لست أدرى أين ؟ عن هذه الفكرة التى لاحد لها : « كقلب فاسد وعفن »٠

ثم اقتربا من بعضهما وقال الشاب للعجوز : « ان الأمر جد خطير أكثر مما نتصور ٠

وهز الآخر رأسه بالايجاب ٠

وعندئذ رغم أنه لا وجود لدليل قاطع ، فلن يكون هناك احتمال أكبر من احتمال هذا التبسيط الرهيب الذى نتكلم عنه !

فأجاب الآخر بصوت ضعيف وكأنه يفكر :

ـ أجل ٠ أن جميع الأمراض ناتجة عن الأشياء نفسها ٠ انها الحياة غير المحسوسة التى تقودنا جميعا الى الموت ٠

فتمتم الآخر كاتما صوته بدوره :

ـ اننا سنجد الآخاء فى المرض كما فى العدم

ان جرثومة الموت الوحيدة ، اللامتناهية الصغر والتى تزرع فى الأجساد الحصاد الرهيب ، ستكون هى تلك الجرثومة التى يبدو أن دورها حياديا حتى الآن ، وقد مرت بها الانسانية دون أن تراها : انها الجرثومة النهائية ٠

فهى تكثر فى الأمعاء الغليظة وهى موجودة بالمليارات داخل جسم الكائن السليم ، وهى تتجول ـ فى مجال يحتوى على القوقسات ـ الى كرة عنقودية ذهبية ، كالخراج أو الدمل الغربالى الذى يميت بعض أجزاء اللحم ٠ وهى تتحول أيضا فى الأمعاء الدقيقة الى مولدة للدمل التيغى ٠

كان رجل العلم يتخذ سيماء من العظمة والعمق كلما حدد اسم العدو الذى لم يقهر حتى اليوم :

ـ وهى التى تتحول أخيرا فى مجال يحتوى على الفوفسات الى عصية كوخ ٠

ــ وعصية الكوخ ليست هى السـل التدرنى فحسب ، بأشكاله الرئوية والحنجرية والمعوية والعظمية • لقد اكتشفها لاندوزى فى سوائل ذات الجنب ، وكوس فى البثور الباردة •

فقاطعه العالم الشيخ الذى كانت عيناه منتبهتين تماما :

ــ هل أمكن فى الأصل احصاء الأنواع اللا محدودة للآفات السلبية الأصل ؟

ــ لنأخذ العصية الرئوية ، ذلك أن الرئة مصابة دوما حتى عند المريض الرشيد •

ان ظهورها يؤدى الى تكوين الدرنات ، وهى أورام صغيرة تصاب بالتآكل ، بسبب عدم وجود أقنية ، ويؤدى ارتخاؤها وقشعها الى زوال العضو والموت اختناقا • ان الدرنة هى الجرثومة السرطانية فى مرحلتها الأولى • وعصية الكوخ هى صانعة تكوين جديد • ذلك أن كل عضوية صغرى انما توجد فى العضوية صانعة التكوين الجديد • وهو نوع عظيم قادر على الخلق ، يصعب تحديده علميا • فالدرنة تتكاثر ، لكنها تظل صغيرة الحجم ، ولهذا قال نيرشوف انها ورم معدى فقير •

« لكن الطفيلى لا يستطيع أن يسبب السل التدرنى عند المصابين بداء المفاصل الذين يعيشون حالة عصبية تصل الى الانهيار ، مصحوبة بانخفاض فى الحرارة » •

« وهو ينتقل الى الدم مع الهضميات عن طريق مسالك الكيلوس •

فالدم يحمل الفليكوجين ، وهذا السكر البشرى الذى لا تستهلكه الحرارة المرتفعة ، يضعه التخثر الوريدى بكمية كبيرة جدا الى العناصر التشريحية للأنسجة الغددية أو السلبية • وهنا يتطور بدون حمى ، ما يمكن أن نسميه بجرثومة سرطانية جديدة ، فبدلا من عـدة درنات ، لا توجـد الا درنة واحدة ضـخمة تتطور • انه السرطان بشتى أشـكاله ومختلف أسمائه : السرطان اللحمى والغدى والظاهرى والمتحجر واللفاوى •

السرطان اذن نتاج مرتبط بتراكم الفليكوجين عنـد المصاب بداء المفاصل الراشد الواهن وعند غير المصاب بالحمى أيضا •

فقال الأكبر :

ـ أجل ، أجل ، هذا ممكن • لكن ما الدليل ؟ انها نظرية جميلة لكن هـل هنـاك من برهان تطبيقى ؟ ذلك أن هنـاك على كل حال فرقا مورفولوجيا بين الورم والدرن •

كان يبدو عليه الميل الى السخرية ، والاستعداد للتوقف لكى ينهل من موقفه وتجربته •

فأجابه :

ـ اذا درسنا عـددا معينا من أنواع الأورام ، نلاحظ أن عـددها متناسب تناسبا مطردا وأن حجمها متناسب تناسبا عكسيا ، مع حرارة الذات التى تصنعها •

كان يستعيد فى ذهنه وقائع وأرقاما • وكان يرمى بها الى الأمام كما لو كانت أسلحة • وكان متحمسا بتقديمه هذا العرض الكامل ، عديم الشفقة ، ليدافع عن فكرته الكبيرة عن التبسيط ، والتى تضفى طابع المأساة على الانسانية جمعاء •

والسل الذرى يتطور بأورامه شبه المجهرية التى لا تقع تحت الحصر من الدرجة ٤٤ الى الدرجة ٤٥ ويتطور السل الدخنى من الدرجة ٤٠ الى الدرجة ٤١ ، لأن حجم منتجاته فى حجم حبوب الدخن • ويتطور السل العدسى من الدرجة ٣٩ الى الدرجة ٤٠ • ويتطور السل البطىء ذو العقد الضخمة السطحية من الدرجة ٣٧ الى الدرجة ٣٨ • وفى الدرجة ٣٧ تظهر أورام عقدية كبيرة الحجم ، تؤدى الى البثور الباردة (ويدخل فى هذا النوع : الوراك والأورام البيض ومرض اليوت) •

وفى الدرجة ٢٨ نجد ، كما يجد دوبار ، الأورام الضخمة الداكنة ذات الحديات التى تشوه جوانب الأسماك •

وتوقف بعد أن ذكر هذه الأمثلة ، ثم تابع :

ـ يمكننا أن نرجع بالتجربة آفة من الآفات الى آفة أخرى : نأخذ أرنبا ونلقحه بالسل ، وحين يعطى الحيوان علامات الخور التى لاتتحمل الشك ، نعيده الى حيوان بارد الدم ، بأن نبضعه بضعا سريعا على سوبة الفقرة الرقبية الأخـيرة والفقرة الظهرية الأولى • واذا لم يمت الحيوان شللا ، فسرعان ما سنشاهد تشكل ورم ضخم له مظهر السرطان ، فى جوفه أو على أحد مفاصله •

كان يحدق فى وجه زميله ويقول :

ـ اذكر ما قالـه باكر : « لقد لاحظنـا سـير السل والسـرطان المتوافقين وشاهدنا كثيرا أن السرطان يكف عن التغذى وييبس ، ما أن تتولد الدرنات وتتطور بحرارة تتجاوز الدرجة ٣٨ » ثم أضاف : « أن السل هو الذى يسيطر بشكل عام على المأساة » ٠

« كل شىء يكمن فى تكوين السكر وتوزيعه الداخلى ، وتنظيم هذا التوزيع للحرارة العضوية التى تحرقه لدى المصاب بالسل ، فى حين أن الفليكوجين يتجمع عند المصاب بالسرطان لفقدان الحرارة ٠ ان السرطان سكرى ٠ وقد القى باكر الضوء على هذه العمليـة التى تجعل من الورم السرطانى نوعا موضعيا من مرض السكر « ٠

« ولقد ثبت وجود السكر عن طريق صنع الشمبانيا الممتازة من سوائل السرطان ٠ ولقد أعدت التجربة بنفسى ٠ فحصلت على عشرة كيلو جرامات من المـواد السرطانية الناتجـة عن العمليات التى أجريت فى مستشفيات باريس على مدى يومين متتاليين ٠ ولما سحقت هذه الكتلة بالمكبس ، أعطت لترين ونصف لتر من سائل عكر ، يحتوى على السكر اكثر من أى بول سكرى ٠ ولما زرعت السائل فى الخمائر ، نتج عنه اختمار قوى وعطرى ٠ وأشار ميزان الكحول الى درجـة ٠٦ ٠ وحصلت بواسطة الأنبيق ، على كحول درجته ٦٠ ، واستخلصت منه تلك الشمبانيا الممتازة فى المخبر » ٠

« البشر اذن يتطورون حسب حرارتهم حـين تجتـاحهم الجرثومة المرضية نفسها : فمن كان منهم مصابا بالحمى الموهنـة للقوى ، وينفق أكثـر مما يكتسب ، أصيب بالتـدرن وهو ورم قزم ، ومن كان مصابا بمرض المفاصل البارد ، ويكتسب أكثر مما ينفق أصيب بداء السرطان وهو درنة جبارة »

« ويتبادل المرضان مرضاهما أحيانا ٠ فمعظم المصابين بالسرطان مسلولون برئوا وبردوا ٠ وكان « دوبار » هو أول من لاحظ ذلك ، ان ما هو وقائى بالنسـبة للبعض مهـدد بالنسـبة للآخرين ٠٠ (وفرة الفليكوجين أو الافراط فى التغذية) ٠

أدلى الطبيب العجوز برأيه ثم راح يصغى من جديد باهتمام ، ولكن وجهه كان بلا تعبير ، بعد أن كون فكرته الخاصة ٠

توقف المتحدث لحظة ثم قال :

ـ ينبغى أن ننظر الى الحقيقة دون أن يفت الوهن فى عضدنا ، (لقد خلقنا لهذا ، مع الأسف !) ودون أن نخاف من فتح هذا الباب السرى والرهيب للشفاء من السل ٠

فقال الطبيب العجوز :

ـ مهما كان الأمر ، فان هذا التشابه ، وهذا التناسب العكسى الذى تعتقد أنك اكتشفته بين الرائيين ، مدعومان الى حـد ما بالأرقام ومن الواضح أن هذين الاحصائين لهما قيمتهما التى لا تنكر ، وانهما متكاملان٠ ففى باريس يوجد مريض بالسرطان مقابل كل أربعة مسلولين ٠ وحين يموت أسبوعيا مئتان وستون مسلولا فى المدينة ، فان خمسة وستين يموتون بالسرطان ٠وفى فرنسا ، حيث يبلغ عدد وفيات السل سنويا مئة وثمانين ألف ، يبلغ عدد وفيات السرطان ستة وثلاثين ألف مريض : واحد على خمسة ، ان خمسمائة فرنسى يموتون بالسل يوميا ، ومئة يموتون يوميا بالسرطان ٠

فقال الشاب رافعا عينيه الباردتين الصاحيتين فى رجاء واع ولكنه غير مجد :

ـ كم سيموت منهم غدا ؟

« ذلك أننـا لم نرفع الأجزاء من القنـاع ولم نعترف الا ببعض الحقيقة ٠٠ » ٠

فقال الأستاذ :

ـ أجل ، ان الحقيقة لأكبر أيضا ٠

« ان فتك السرطان يزداد يوما بعد يوم ، ولا شك أن الحيـاة الحديثة تضاعف من حالات القابلية للمرض والملائمة أكبر تلاؤم للداء » ٠

« ان الحالة العامة تسبب حتمية الآفة ، وأكرر ذلك : فالمرض ممتنع الشفاء بسبب المريض ٠ فما الفائدة من شفاء هذا المرض موضعيا عن طريق استئصال الورم الخبيث اذا كان المريض سيولد المرض من جديد ، بعد أن يترك لنفسه ؟ اننا لا نستطيع شيئا سوى أن ننظر اليه وهو يفعل ذلك ! ان مسلولا واحدا تستأصل منه درناته ، لا أكثر ،

سيكون أشبه بشخص آجريت له عملية جراحية محكوم عليه بالنكسة ، كذلك فان البضع لا يشكل وسيلة كافية للدفاع ضد الأورام الخبيثة ، وعلى كل فان الوقائع واضحة : من أصل كل مئة مصاب بسرطان العظام أجريت لهم عملية جراحية ، انتكس منهم اثنان وتسعون ٠ والرقم نفسه يتكرر بالنسبة لمن عاودهم المرض من المصابين بسرطان الثدى : اثنان وتسعون ، وبالنسبة لسرطان الأمعـاء المستقيمة : ثمانية وتسعون ٠ وبالنسبة لسرطان اللسان : تسعة وتسعون (وأومأ الى الباب برأسه) ٠

كان قد تناول ، أثناء تفوهه بالعبارة الأخيرة ، صفحة ورق رسائل من فوق المدفأة ومقصا ، وراح آليا يقص الورقة ٠ وفجأة ألقى بالورقة والمقص ، اذ فهم غريزة حركته المبهمة ٠ واستدرك قائلا :

ـ انه يبدأ باصابة الشباب ٠٠ (آه اننى أرى ، اننى أرى ، فى ذاكرتى ، الصورة القاسية لملاك صغير شفاف العينين ، له ثدى ضخم ضارب لونه الى البنفسجى كملفوف أحمر ! ٠٠) ٠ ان السرطان ينتشر فى الانسانية انتشاره فى أى كائن ٠٠ وأضاف بسخرية حزينة سبق لى وتبينتها فى صوته :

ـ « اذا لم يوقف ، فلن تعود هناك حاجة للتساؤل ، هـل سيفنى العالم بانطفاء الشمس ! » ٠

قال العالم الشاب وهو يرفع يديه الى جبينه :

ـ بالاضافة الى هذه القرابة العجيبة بين أكبر آفتين حيتين أى قرابات أخرى تضاف ؟ الزهرى ، الذى لم أتكلم عنه ، وغيره ؟ الى أى شىء ستنتهى بى ، الى أى شىء ستحكم على الأبحاث التى سأتابعها بعد خروجى من هنا ؟ لست أدرى ٠٠ اننى اذ أرى بلمحة عين خاطفة كل عفونة الجسد البشرى ، كل الجانب الموبوء من بؤسنا ، كل ذلك العناء الذى ينهار فيه الجنس البشرى انهيارا حقيقيا ، اننى اذ أرى كل هذا ، فانى أتساءل كيف يجرؤ على الكلام عن مآسى أخرى !

الا أنه أضاف ، بعد أن قال ما قال ، وهو يمد يديه اللتين كانتا ترتجفان ارتجاف يدى مريض ، بنوع من العدوى الجلية :

ـ ربما أمكننا ـ ولا ريب ـ أن نشفى الأدواء البشرية ٠ كل شىء يمكن أن يتغير ٠ وسنجد النظام الملائم لتجنب ما لا يمكننا ابقـائه من الأمراض ٠ وعندئذ فقط سنجرؤ على التحدث عن المجزرة التى تسببت فيها الأمراض المتعاظمة والتى لا علاج لها اليوم ٠ بل ربما أمكننا أن نشفى

أيضا بعض الآفات غير القابلة للشفاء · ان الأدوية لم يتوفر لها الوقت لتثبت صلاحيتها · وستشفى أمراضا أخرى بالتأكيد لكنا لن نشفيه هو ·

وبحركة لا ارادية ، وبعد الحديث الذى تحدثه الطبيب العجوز ، سقطت يداه بجواره ، وانقطع صوته ، وجلسا صامتين كأنهما فى حداد ·

واستطرد الشاب : نحن الآن فى مواجهة مرض خطير ليس كما يعتقد العوام فى أنه مجرد حدث مشئوم ، فالسرطان غير معد ، لذا فنحن أمام أزمة حادة وعاجلة لعلم الأمراض) الباثولوجيا) ، فهو نوع من أنواع المرض الانسانى ·

« هذه حالة عامة تحدد الناحية الرديئة ، والمريض هو الذى يتحمل خطورة الطفيليات ·

« الطفيليات هى الوحيدة التى تعيش فى الخلايا وتسمى أيضا البكتريولوجيا ، وهى التى زادت من اهتمام الطب وانشغاله فى الحاضر أكثر من الماضى ·

« أما أنا فانى أعتقد فى الخلايا الطفيلية ·

ـ قال العالم العجوز : فان النظرية حديثة وعلى كل حال فهى ممتدة ويجب الاعتراف بأن الطب ، والكيمياء ، والفيزياء ، من العلوم المتعمقة ، قد امتدت الى العناصر المادية وعناصر القوى » ·

(ودار حديث بين الطبيبين الشاب والعجوز تناولا فيه مخاطر السرطان والأمراض الناجمة عن الميكروبات والبكتريولوجيات ، ومواطنها من الأجساد والأنسجة والأغشية ، والسرطان مرض عضال لا يصاب به أحد الا وكان الموت نصيبه لذلك زاد عدد الموتى بهذا المرض، واصابة الأعضاء والمواضع فى الجسد) ·

أما المريض ، فكانت تحيطه العناية المقدسة ، فقد كان هو محور الحديث ، وذلك لانهما تناولا المشكلة بوجه عام ·

« هو روسى أو يونانى » ·

ـ لا أدرى فالكل عندى سواء ، فأنا لا أنظر الى دخائل الناس ·

وقال الآخر متمتما : الكل سواء خاصة وان الهدف البغيض الكريه هو أن يكونوا أعدادا ، وغير متشابهين » ·

ويبدو انه كان متأثرا نفسيا مما دفعه الى التفوه بهذه العبارة ، فنهض وقد تغير لونه ، وملأه الغضب ٠

« **قال** : آه ، أى خجل هذا الذى تمنحه الانسانية ٠

« فهى تتسلط على نفسها بالرغم من جراحها الهائلة ، اننا نختلف عن بقية الناس ، فقد طبعنا على الألم الذى يصيب البشر ، فأنا لست رجلا من الساسة أو العسكريين فليست مهمتى أن أهتم بالأفكار الاجتماعية ، ربما تسنح لى الفرصة فى مكان آخر ولكن أحيانا تأخذنى الشفقة بدرجة كبيرة كأنها الأحلام ، وأحيانا تكون لى رغبة فى توقيع العقوبة على البعض وأحيانا أخرى أتشوق الى التضرع اليهم ٠

وابتسم الطبيب العجوز لهذا الحماس ، وتلاشت ابتسامته أمام خجل واضح لا يمكن انكاره ، « حقيقة نحن بؤساء ومجانين ، نمزق أنفسنا بأيدينا ٠٠ الحرب ٠٠ الحرب لم تحوطنا من كل جانب ، آه ٠٠ اننا متوحشون ٠

فأجابه الطبيب الشاب :

ـ لماذا ، لماذا ، لم نبق مجانين ما دمنا على يقين من ذلك ؟

وهز العجوز الطبيب كتفيه ثانيا كما هزهما من قبل عندما كان يتحدث عن المرض العضال ٠

« لسنا أحرارا ، لارتباطنا بالماضى ، فمن لهم صلة بالماضى والتراث ، قد أججوه وزادوا من قوته ، ودائما ما تفيد الأفعال نفسها ، وهذه هى الحرب والظلم ٠ وربما تستطيع الانسانية فى يوم من الأيام أن تتخلص من أى فكرة شريرة كانت قد استولت عليها ، وأتمنى أن تخرج من هذا الجيل الشاسع ، جيل البؤس والمذابح ، وأتمنى أن تكون لدينا القدرة على ذلك وليس مجرد أمل ؟ » ٠

وهنا توقف الطبيب العجوز وأجاب الشاب : « الارادة » وصدرت من الآخر حركة غير مقصودة ، فصاح الطبيب الشاب : « ان « القرحة » التى أصابت العالم ترجع الى سبب رئيسى وهو استبداد الماضى والمعتقدات التى رسخت على مر القرون والتى حالت دون اعادة بنائها من جديد على أساس من الأخلاق والعقل ، فالفكر التراثى قد أفسد الانسانية وان ما يمكن أن أطلقه على هذه التعريفات هو ٠٠

فقاطعه العجوز بحركة كأنه يريد أن يقول : « صه ٠٠ لا تذكر شيئا » ٠

ولكن الشاب لم يستطع أن يكبح جماح نفسه وقال :

« انها الملكية والوطن » ٠

وصاح العجوز : صه ، انى لا أوافقك هذا الرأى ، لانى على علم بالآلام التى تسود هذا العصر ، وأتمنى بكل جوارحى أن يحل عهد جديد ، بل أعتقد هذا ، ولكن لا تتحدث هكذا عن مبدأين مقدسين ٠

فأجابه الشاب بلهجة تشوبها المرارة : آه ٠٠ انك يا سيدى تتحدث كالآخرين ٠٠ ومع ذلك فلابد من ادراك منبع البشر ٠٠ انك تعرفه جيدا ٠٠ أنت ولكن ٠٠ لماذا تتظاهر بأنك لا تعرف شيئا عنه ؟ ٠٠ واذا كانت هناك رغبة فى التخلص من الحرب والقضاء على الجور والظلم فلدينا الدافع اذن فى أن نهاجم بشتى الوسائل الفعالة جميعها مبدئى الثروة الفردية ، وشعائر الوطن ٠

فنهض العجوز من مجلسه ، ورمق بنظره محدثه ، نظرة شرسة وجامدة ثم قال : لا لسنا على حق ٠

ـ لا ان الحق معنا » ٠

وفجأة انخفض رأس العجوز ، وقال بصوت منخفض : « نعم ٠٠ نعم ٠٠ هذا حقيقى ، نحن على حق ٠٠ » ٠

« أتذكر ذات يوم ، عندما كانت الحرب قائمة ، كنا نتجمع حول أحد المصابين وهو فى نزعه الأخير ، وجدناه بين حطام أحد المستشفيات المتنقلة ، بعد أن دمرتها القنابل ، وكان وجهه مشوها الى درجة لا تستطيع معها أن تتحقق من معالمه ، أو الى أى من الجيشين ينتمى ، هذا كل ما كان يمكن أن يقال عنه ، كان يصرخ من شدة الألم ويئن ويتوجع ، وتخرج أناته رهيبة مؤثرة ، وكنا ننتظر أن تخرج من فمه كلمة تلقى الضوء على حقيقة شخصيته أو على الأقل جنسيته ، ولكن دون جدوى ، فلم نحصل منه على شىء ، سوى أن جسده كان ينتفض على نقالة الجرحى ، نتآكله بنظراتنا فقط دون أن ينطق أحدنا بكلمة ، الى أن أسلم الروح ، ولما فارق الحياة ، وفارقتنا الرعشة ٠٠ فقاطعه الآخر قائلا :

ـ اننى أفهم ما ترمى اليه ، فهمت من أعماق نفسى أنه كان ينتمى الى بنى الانسان أكثر من انتمائه الى موطن مجهول ، وفهمت أيضا ان

الكراهية والثورة ضد الجيش ، والاهانات الموجهة اليه ، والنداءات ضد الوطنيين لها وقع رنان من الناحية المثالية والجمالية ٠

« نعم ، نحن على حق ، على حق ٠٠ ومنذ هذا اليوم ، أتيحت لى فرص كثيرة لأبحث عن الحقيقة ولكن كيف هذا وأنا عجوز لا أملك القدرة على ذلك !

فنهض الشاب فى احترام وتأثر وقال : « سيدى » واسترسل العالم العجوز فى حديثه ، يعبر عما يجيش فى صدره باخلاص وصراحة تخالطهما الحقيقة : « نعم ، أعرف ، أعرف ، كما أقول لك ، انه رغما عن البراهين المعقدة ، والمتاهات التى تفقد فيها الحالات الخاصة ، فلا شىء يمنع من أن نقول ان القانون الذى أوجد البعض أغنياء والبعض الآخر فقراء ، ونشر اللا مساواة فى المجتمع ، ما هو الا جور وظلم ، كالذى أوجد قديما أصول العبودية ، وأصبح مفهوم الوطنية ضيقا ، طالما ظل باقيا تقتات عليه الحرب المخيفة وفناء العالم ٠

حتى أنه لا اليسر المادى ولا المعنوى ، ولا العمل ولا التقدم النبيل ، أو الفن فى حاجة الى منافسة مبغضة ، بل على العكس ، فكل هذا أو ذاك ستصيبه الأسلحة وتحكم عليه بالدمار ٠

وأعرف أيضا أن خريطة كل دولة تتكون من عـدة خطوط متفق عليها ، وأسماء متباينة وان الحب الغريزى يجذب كل منا حيال الآخر أكثر مما هو بين أفراد مجموعة جغرافية ، وأنا لأكثر وطنية من هؤلاء الذين يفهمونك ، ويحبونك وهم على مستوى من مستواك النفسى أو من هؤلاء الذين يرضخون للرق ٠

ومن نتيجة هـذا التشويه الشنيع والمخيف الذى يعترى الشعور بالوطنية ، ان الانسانية قد قضى عليها وفنيت ، وان الجيل المعاصر ما هو الا النزع الأخير أو سكرة الموت » ٠

واتفق الاثنـان فى وجهـة النظر ، فقـالا معا : « هـذا سرطان ، سرطان » ٠

ونشط الطبيب العجوز ، واتقد ذهنه بالوضوح والبداهة ٠

« وأعرف أن الخلف سيحاسب حسابا عسيرا ، هؤلاء الذين زرعوا ونشروا قدسية أفكار الظلم والجور ، واعلم انى على يقين بأن الاستشفاء من أى رذيلة لا يتحقق الا اذا رفعنا شعاراتها المقدسة ٠٠ وأما أنا ، فقد قضيت من عمرى نصف قرن منكبا على الأبحاث والاكتشافات الجديدة

الكبيرة التى أحدثت تغييرا فى جوهر الأشياء ، واعلم أيضا أن الانسان يناصب العداء كل ما هو كائن ٠

ومن الرذيلة أيضا أن نقضى السنين والقرون ونقول : « كنت أريد ، والآن لا أريد » واذا كان ضروريا لاجـراء أى تجديد ، موافقة عالمية ، فأعرف أيضا ان العالم سيبذر بذوره ، أعرف ذلك ! أعرف « نعم ٠٠ ولكن أنا ! ٠٠ فقد أضنانى الهم واحتكرتنى الأعمال ، ثم بعد ؟ ٠٠ وكما قلت لك لقد تقدمت بى السن ، وهذه الأفكار بالنسبة لى حديثة الى درجة كبيرة ، والعقل الانسانى لا يستطيع أن يعانق الا قدرا محدودا من الخلق والابتكار ٠

وعندما ينضب هذا القدر ، مهما كان مستوى التقدم نرفض أن نرى وأن نتعجل ٠٠ فأنا لست جديرا بأن أضفى على المناقشـة البلاغة وخصوبة الفكر وأصارحك يا ولدى بانى لست قويا ليكون الحق معى » ٠

فأجابه الطبيب الشاب بلهجة يخالطها التأنيب والصراحة : « انك قد صرحت عموما بعدم استحسانك لهؤلاء الذين يهاجمون علنـا مفهوم الوطنية ٠٠٠ وكذلك المكانة التى يحتلها اسمك » ٠

فاعتدل العجوز فى جلسته ، وقد تغير لونه ، ثم قال : « أنا لا أسمح بأن يعرض البلد للخطر » ٠

وتمتم الآخر : « ولكن كل ما قلته الآن ٠٠٠٠

ـ ان هؤلاء الذين تحدثت عنهم ليسوا الآخرين ، فالذين تحدثت عنهم قد قاموا بالتحـدى لنا ، واتخـذوا حيالنا موقفا عدائيا مليئـا بالاهانات ٠

فقال الشاب بصـوت متهدج : لقد ارتكب هؤلاء الذين تعرضوا للاهانة جريمة كبرى هى : الجهل ولم يعترفوا بالمنطق السامى للأشياء » ٠

واقترب من صديقه أكثر ، وبشكل أكثر ثباتا ، سأله : « كيف لا تكون البداية ثورية ؟ وهؤلاء هم أول من نادى ، فهم اما مجهولين ، واما مضطهدين ، وسيتحمل الأبناء عبء التضحية أما الذين أذاعوا الشك بين الناس حول مفهوم كلمة الوطن ، فسيتلقون تحية الغير ٠

فصاح العجوز : مطلقـا !

كان العجوز يتتبع هذه العبارة الأخيرة بجبين مقطب وعين زائغة ونفاذ صبر ، وتشنجت يداه من شدة الحنق ٠

ثم استعاد رباطة جأشه وقال : هذه المناقشات لن تفيد فى شىء ، فهناك اختلاف فى الوضع نفسه ، ويجب على كل انسان أن يقوم بواجبه ، كما يجب على هذه السيدة أن تعرف الحقيقة ٠

« ومن قالها لنا ، لنا نحن ؟ » ٠

وفوجىء بهذه العبارة التى صدرت عنه دون أن يتوقعها ، وعلت وجهه أمارات القلق والتردد ، ثم قال : « وفيم يفيد ما يقال لنا طالما هناك شك فى معرفته ؟ » ٠

ـ آه كنت أريد أن أعرف كيف سألاقى حتفى (ماذا سيكون مصيرى) كم أريد التأكد من ذلك » ٠

وأثناء حديثه وهو منفعل ، كان زميله يرقبه ويرقب حركاته وهو مندهش :

ـ لست على يقين من ذلك ، ومع ذلك فلا أعتقد ٠٠٠

ـ أبسبب ما نتحدث عنه ؟

ـ أوه ! لا ! هذا شىء ، وهذا شىء آخر ٠

وفى الحال اعترت الطبيب الشاب بعض التغييرات والأعراض التى حولته الى رجل آخر ٠ وقال للطبيب العجوز : « سيدى ، لقد كنت أستاذى ، وكنت شاهدا على جهلى كما أنت شاهد الآن على ضعفى » ٠

وارتعشت يداه واحمرتا كأنه طفل صغير ٠

فأجابه العالم العجوز : « هيا اذن ! انى على علم بذلك ، فقد حدث لى منذ زمن مضى ، فقد كنت خائفا من مرض السرطان ، ثم الجنون ٠

ـ الجنون ؟! أنت يا سيدى !

وقال بصوت حزين متقطع : ومرت الأعوام ولا خوف الآن الا من الشيخوخة ٠

وأجابه تلميذه ، وهو يعتقد ان الوقت قد سمح له بالابتسام أمام هذه الصراحة :

ـ من الواضح يا سيدى ان هذا المرض هو الوحيد الجدير بالخوف !

وتعجب العجوز بشدة لم يستطع اخفائها الى درجة أفحمت الطبيب الشاب وأخجلته ولم يعرف ماذا يقول وأجابه : ماذا تقول ؟

وتمتم الطبيب العجوز قائلا : آه ! لو تعلم ما هو هذا المرض البسيط! هذه العدوى التى لايمكن أن يتجنبها المرء٠٠هل سنأت قبل أن نموت ؟ » ٠

وظل الطبيب الشاب لا يدرى ماذا يقول ؟ لقد أفحمه أستاذه العالم من جراء كلمة خرجت من فمه عفوا فكنت أتابع بعينى ما يتبادلانه من الأحزان سريعا ولم أكن أدرى ما اذا كان قصره ساميا أم لا ٠

« هناك أناس يرون أن كل ما تأتيه الطبيعة من أفعال جميل ٠٠ الطبيعة ! » ٠

ثم ضحك العجوز ضحكة تهكمية أثلجت جسدى وقال : « ان الطبيعة ملعونة ، سيئة ، المرض طبيعة ٠ وطالما أن الشىء الطبيعى هكذا ، فكل ما هو ليس بطبيعى مشئوم أيضا ، أليس كذلك ؟ » وأضاف : « ما تفعله الطبيعة دائما جميل » ٠

« آه ! هناك دائما فى الأعماق حديث البؤساء لا يتمناه المرء لبنى الانسان فالجميع يتمنـوا أن يواسوا بعضهم بشىء له أساس ، وشعور له قيمة » ٠

ثم عادا ينظران الى بعضهما ، واستطرد أحدهما : « اننــا مخلوقان مسكينان » وقال الآخر : « طبيعى » ٠

ثم اتجها نحــو الباب : « هلم بنا من هنا ، فهى تنتظرنا ، فلنحمل اليها الحكم الذى لا يغتفر (الحكم بالأعدام) ، ليس بالموت فقط ، بل الموت السريع ، كأنهما حكمان بالاعدام » ٠

وعلى هذا ، أضاف الطبيب العجوز من بــين نواجــزه : « لقد حكم عليه العلم » ياله من تعبير أحمق !

ـ وهؤلاء الذين يؤمنون بالله ، ينبغى عليهم أن يطلقوا على أنفسهم « المسئولون » وعندما ذكرا اسم « الله » توقفا عند عتبة الباب ، علا صوتهما من جديد ، فقال العجوز : « انه لمجنون هذا » وبتهكم وسخرية أضاف : « من الأصلح له عدم البقاء ؟ » ٠

ثم رأيت العجوز يعود ادراجه ويهرول تجاه النافذة ويلوح بقبضته الى السماء ٠٠ لقد عرف الحقيقة !

كان المريض جالسا ينظر بعينيه من بين أصابع يديه ، تخرج من شفتيه أحلاما محدودة ، بدون شك تخص المرأة التى كان يتحدث عنهــا الطبيبان ٠ وبدأ المريض يتحدث : « ٠٠ ماذا أعرف ؟! ٠٠ المبــانى ٠٠ !

وهذا مثلا مكان فسيح : هذا خوان ، وذلك سهل ممتد من البلاط لا نهاية له ، هناك فى أعالى المدينة بالقرب من ضواحيها ، وهاك رواق يتوسط صفين من الأعمدة تتداخل وتتباعد مع بعضها حتى يبدو سقفها كأنه ظلال الليل .. هكذا نرى أن ربع مساحة المكان مكسوة .

وذاك يشبه قصرا منيعا ، مفتوحا دائما يتخذ نوعا من الأهمية شبه طبيعية ، جدير بأن تتخلله أشعة الشمس فى شروقها وغروبها .. والليل .. والغابة الدغلة تسمح لشعاع الفجر بأن يصل الى أرضها الحجرية .

« وهناك ، هناك حيث يتركز جزء كبير من النشاط العام : المواصلات، البورصة ، الفنون والمعارض ، الحفلات تموج بالجماعات ، وتيارات جارية من الجموع تدور عند مفترق الطرق يتوه فيها البصر .

« ومن السفح ، يتوغل الرواق عموديا فى الحى الآخر من المدينة كأنه مجموعة من الصخور على شاطىء بحر ، فكل هذا ليس له نمط معين ، ويبدو من المعمار الهندسى سهلا يسيرا ، أما الجزئيات فهى تجذب الأنظار وتشد القلوب » .

ودققت النظر فى المريض الذى يزداد لحمه من ساعة الى أخرى ، وفجأة لمحت رقبته ، فألفيتها منتفخة عن ذى قبل ، بينما كان هو يتحدث من أعماقه :

« وعند مدخل المدينة من بعيد ، اذا ركبنا القطار يرى المرء الرواق كأنه ثابت على جبل وعلى الناحية المواجهة عند مدخل الرواق يوجد سلم ينتهى عند وادى الحدائق ، وهذا السلم العجيب لا يوجد ما يشبهه حاليا ، ربما أهرامات مصر ، فهو يبلغ من العرض مساحة ربما يحتاج فيها المرء الى ساعة زمن لكى يعبرها ، سلم كبير كالجبل ، كالطبيعة ، يقوم على مساحة من الكيلو مترات المربعة ، تقوم على أساس طولى منسجم ومتقارب ، الى درجة يمكنك أن تشمله فى نظرة واحدة من أسفل الى أعلى ومن أعلى الى أسفل ، قد نحتت بمهارة فائقة ، ترسخ عليه كتل ضخمة وأعمدة .

وها هى التماثيل ، شامخة مرتفعة ، رافعة يديها ، لا يمكنك أن تلحظها من أول وهلة » .

وأثناء حديثه الحالم هذا ، كان صوته يخرج عميقا تنم نبراته عن أنه حقيقة فى حلم جميل ، واستمر فى حديثه عن أشياء مشوقة ، رغم

أنه على قيد خطوات من الموت ، وانما أنا الذى لا صلة لى بحقيقة الأمر ، فأنا لست متفرج ، أفحمتنى المقابلة التى توحد بين كل من الروح والجسد ، كما أفحمنى الموقف بوجه عام ٠

واسترسل المريض فى حديثه :

« ٠٠٠ فالمثال ما هو الا طفل صغير ، فهو يصنع من قطعة واحدة عدة أفكار وأشكال عظيمة ، وخطوط دقيقة وبسيطة ، يحمل أدواته كسلاح ضد أى صعوبة يجدها فى التمثال ٠٠ انهم أطفال صغار وبعض هؤلاء الأطفال عباقرة » ٠

ويواصل البحث فى أحلامه عن تماثيل فيقول : « يجب أن يكون النحت ــ حتى لو كان لشخص ــ مسرحيا ودراميا فالتمثال النصفى لأى انسان ليس به روح ، ليس به سوى أعضاء ، وهو تعبير بالحجر للوحة أكثر حقيقة لانها تتمتع بمزايا لا توجد ، فى النحت وهى توزيع الظلال » ٠

« وتمثال « السقوط » المنحوت من الرخام ، من أين يأتيه هذا الثبات ؟ » ٠

« موضوع نحت عظيم : مخلوق فقدناه ، اذ يرفع لك غطاء القبر ، ويظهر لك وجهه ، هذا الوجه الانسانى الذى يجمع فى وقت واحد بين صفتين ، الرهبة منه ، والرغبة فى رؤيته ، مخيف لموته ، ومرغوب لكونه انسانى ، فأحب رائحته تحت الثرى ، وهو جثة هامدة ، ومع ذلك فهو تحت السماء طالما انه موجود ٠

« لست أدرى ما اذا كان الوجه لذكر أو لأنثى ؟ لكنه رأس عزيز ، تهب الحياة الى القلب نسماته ، وتحقق المعجزة صورته ، فيما يرتسم عليه من طيبة ، رغما عن أنه ثابت ، ولونه فى مثل لون الأرض ، ومهما يكن من توجيه نظراته اليك ، فهو لا يسمع ولا يعى شيئا مما حوله ، ما لفم يبتسم ويكشر فى الوقت نفسه مزيج من الرهبة والحب لا يمكن تفسيره ، وبالرغم من أنها ابتسامات الا انها فى الحقيقة كشرة النزع الأخير ٠٠٠ ومن أين جاءت رطوبة هذا الفم المبتسم ؟!

وتحت تأثير أى ريح قارصة البرودة قد انفتح ؟ والعيون تدمع دون وضوح ، ولكن هذا أيضا من التحلل ، وكما يفكر الانسان فى هذا الوجه ، يرى الذكريات التى تنطبع عليه وعلى الجسد الذى يرقد ساكنا ، والجسد بمفرده ، مختبئا فى الظلام بين طيات الثرى ، والرأس هناك ، مع بقايا حطام ضالة أزلية ، تبعد وتقترب ، وتنظر اليك ، وتوجه لك ابتسامتها

.. وحركاتها .. كوحش جميل ، مخيف ورهيب ، يفتح باب اللحد ، ويخرج منه صديقا ، ولكنه يبقى به عدوا » .

ثم استرسل فى حديثه عن التصـوير قائلا ان التصـوير ناحية ابراز لا تتوافر لدى المثال ، وتحدث عن ثبات الأوصاف الجميلة التى تسترعى الانتباه ، وتنهد ثم قال :

« ان الفنانين مساكين ، فهم مسئولون عن تجميل كل شىء ، من يدرى بما تحتويه الحقيقة التى تتراءى لنا من جزئيات ؟

فيلزم لذلك درجة كبيرة من الحس والادراك .. نعم ، أكثر من اللازم .. بصيرة وذكاء خارق الى درجة الهذيان والهلوثة أما العظماء فقد كانوا غير عاديين : « رمبرانت » كانت له آراء ، و « بتهوفن » ، كانت له أنغـام » .

وعندما ذكر المريض هذا الاسم ، اندمج مع الموسيقى وطالما أن الموسيقى قد حصلت على الكمال ، فهناك مراتب بين شتى الفنون ، لهذا فالأدب يعلو على غيره من الفنون ، والانسجام ، الذى ينتج عن الموسيقى لا يساوى الهمسات الخفيفة التى تصدر عن كتاب تقرؤه .

واستطرد المريض حديثه موجها أفكاره الى « آنا » : « آنا ، ان الموسيقى التى توجد فى الكلمات والعبارات ، والتى تنقل الينا أجمل الصور ، عظيمة فى تكوينها مثل ضوء النهار ، ما هو الأدب الحقيقى ، أو شاعر الشمال يعبر عن تغيير الوجـوه ، ويفرق بين المتحدثين تحت الظلال ، هو « اللا محدود » ولا شىء سواه .. كل هذا فى كلمات قليلة رزينة رمادية عارية ونكدة .

فأجابته : لابد وأن المتحدثين على حق .

هو : أما أنا فحياتى منذ الصغر ، قضيتها تحت الشمس فى فيض وحيوية وانى لأفضلهما ، والآن فاللون ينتشر خاويا ، آنا ، آنا ان الروح ما هى الا طائر من طيور الليل ، كل شىء جميل ، ولكنه جمال غير مضىء .. ففى النور الصفاء ، وفى الظلال « نحن » فالظلال هى حقيقة المعجزة التى تعبر عن المجهول » .

ثم استطعت أن أتبين أكبر جزء من وجهه عندما حانت منه التفاتة ناحيتى ، كما تمكنت من رؤية رقبته المتضخمة .

واسترسل فى حديثه قائلا : « نعم .. نعم .. ان الأدب ، هو

النبع الذى نرشف منه ، حتى نروى ظمأنا ، انه الطريقة المثلى للتعبير عن الذات وهو تقريبا أكمل طريقة لذلك ٠٠ نعم ٠٠ فبينما منح شكسبير النفثات الداخلية ، فقد أعطى « فيكتور هيجو » العظمة الظاهرة حتى تغير اللون منذ أيامه ، ففن الكتابة يختلف عن فن « بيتهوفن » ، هذا ، لأن ارتقاء القمة لا يحقق الا بالشكل ، والشكل هو الحقيقة بوجه عام ٠

والأعمال الأدبية القانونية لا تحتوى على شيء من الحقيقة ، كما لا يتضمن أى عمل أدبى على جوهر الحقيقة ، فالحقيقة كائنة فى كتب مقدسة ، أو كتب علمية ، تهتم بالواجب الأخلاقى ، ولا يعرف بعد ما اذا كانت تخضع عقيدتهم لبعض الأمور خارقة للطبيعة ، وفى المسرح يتفنن الأدباء فى ايجاد وسيلة للتسلية تتمثل فى أساليب كاريكاتيرية ٠

« والدراما لم تخلط مطلقا بين الفرد والكل ، فمتى اذن ستمتزج الحقيقة الدنيا ، بالجمال المثالى ، طالما أن كل منهما تجمع حولها الكثير ، والاعجاب يجعلنا نقضى لحظات سعيدة صافية حيث لا توجد حدود أو مواطن فالحقيقة واحـدة للجميع ، يراها الذى فقد بصره ، وتجعل من الفقراء اخوة ٠٠ وفى ذات يوم سيجمع الناس على حق ٠

فكتاب الشعر والحقيقة اذن ، هما أعظم اكتشاف يتحقق » ٠

١٠

وقفت المـرأة الحامل والمـرأة الشابة أمـام النافذة المفتـوحة على مصراعيها ، تتطلعان الى الفضاء الفسيح ، والضوء الساطع تحت أشعة شمس الخريف ، وقد لاحظت أن وجه السيدة الحامل ذابل وشاحب ٠

وفجأة تغير لونهـا ، وتقلصت معالم وجههـا ، تقلصات تدل على شعورها بألم شديد ، ثم اتجهت الى الحائط تتكىء عليه ، ولم تستطع أن تتمالك نفسها ، وصدرت منها صيحة مكتومة ٠

أما المرأة الشابة ، فاحتضنتها وأخذتها بين ذراعيها وجاهدت حتى وصلت الى الجرس واخذت تضغط عليه ثم لزمت مكانها ولم تتحرك وظلت الحامل بـين ذراعيها ووجه كل منهما قريب من الآخر ، تغيرت نظرات الحامل وصاحت صحية مكتومـة تشبه الأنين ، وما هى الا لحظات حتى فتح الباب ، وانزلقت الى الداخل بعض الوجوه الغريبة ، أما صاحبـة

الفندق فكانت تقف خلف الباب ترقب ما يجرى واليأس الذى يدعو الى الضحك يعترى نظراتها ٠

تمددت المرأة الحامل على السرير ، وحملت الأوانى المختلفة ، ونشرت المناشف وصدرت الأرشادات السريعة ، وما هى الا لحظات حتى سكنت الأزمة وهدأت ، وهى تشعر بالسعادة وتبتسم لأنها لا تتألم ، وتنعكس الابتسامة على الوجوه التى تحيط بها ، بعد أن أخذوا يجردونها من ملابسها بكل حذر ٠٠ وهى ، كطفلة صغيرة ، استسلمت لما يفعلونه بها ، وانكشف الفراش قليلا ، فبدت ساقاها البضتان ، ووجهها يرقد هادئا لا ترى سوى هذه البطن المنتفخة تتوسط الفراش ، وشعرها منثورا حول رأسها على الوسادة ٠

امتدت احدى الأيدى تضفره وتساويه ، واختفت ابتسامتها ، واظلمت ٠٠ ها هى قد « بدأت » : أنة قوية تصدر منها ، وتتزايد حدتها قليلا ، والمرأة الشابة الصديقة الوحيدة ، تقف ولا ترفع عينيها عنها يتزاحم رأسها بالأفكار ، وترى أيضا ان الألم لم يتركها وترغب فى الصياح والصراخ ٠

استمر الحال هكذا طوال اليوم ، منذ الساعات الأولى من الصباح حتى المساء ، الى أن سمعت شكوى السيدة الحامل ، شكوى تمزق من يسمعها ٠

وبعد ذلك رأيت اللحم الغض الرخص ، يتمزق وينشج ويتحطم كالحجر ، وبعد عدة لحظات خانتنى قواى ولم أعد أستطيع النظر أو سماع شىء ، وسقطت من فرط اعيائى حتى فاتتنى حقائق كثيرة ، واستعدت قواى من جديد واستندت الى الحائط وتسللت الى أن تخللته نظراتى من جديد ٠

وأول ما وقع نظرى ، كان على فخذيها الارجوانيين وقد أمسك بعضهم بهما بمهارة يبعدانهما عن بعضهما ، وسمعت بعضهم يقول : لقد سال من بطنها جدولين من الدماء ٠

دماء النساء ! دائما مهدورة ! حياتها وسرها المقدس قد ذهبا مع الريح وتعرى كل لحمها الوردى فاغرا فاه ، ممددا كأنه معروض ، عاريا حتى الاحشاء ٠

ثم تقدمت منها الفتاة بهمة ونشاط من الصرخة القوية ووضعت قبلة على جبهتها ، واذا أعطينا هذه الصرخة شكلا أو صيغة ، فيكون معناها حينئذ « لا ! لا ! لا أريد ! » ٠

وبدت الوجوه متعبة وكأن هذه اللحظات مرت بهم أعواما ، مما لاقوه من خوف وغم ، ومن خطورة وانهاك ·

وتناهى الى سمعى قول أحدهم : « يجب علينا ألا نساعد وأن نترك الطبيعة تقوم بدورها ، فالطبيعة تتقن كل فعل تأتيه » ·

وكان لهذه العبارة وقعا فى نفسى · الطبيعة ! تذكرت الطبيب العالم فى الليلة الماضية قد لعن الطبيعة ! وأخذت أردد ذلك دون شعور منى ، بينما كانت عيناى تقدر هذه المرأة الرقيقة البريئة التى تقع فريسة للطبيعة اللا محدودة ، والتى تحطمها وتضرجها فى دمائها ، وتصيبها بكل ما فى وسعها من آلام ·

أما المرأة العاقلة فقد شمرت عن ساعديها ولبست قفازا من الكاوتشوك ، حتى بدت يداها كمطرقتين حمراوتين ، سوداوتين لامعتين ·

شعرت كأن كابوسا يثقل على صدرها ، وثقل رأسى ونفذت الى صدرى رائحة نفاذة من المواد التى توجد فى الغرفة ·

أوانى مملوءة بالماء منها الأحمر والوردى وماء أصفر باهت ، وفى أحد أركان الغرفة ، كوما من الغسيل القذر ، وكوم آخر من المناشف المفرودة مثل أجنحة الطير ، وفجأة ، دون سابق انذار ، سمعت الصرخة التى انفصلت عن المرأة التى كانت حامل ، صرخة تشبه صريرا خفيفا يحدث ضوضاء ، انه المخلوق الجديد قد حطم قيده ، وما هو الا قطعة لحم خرجت من اللحم ·

لقد هزت هذه الصرخة كيانى ، هزتنى أنا الذى كنت شاهدا على كل ما يحدث ، وكل ما يطرأ على الناس من تغييرات ، هذه الهزة التى شعرت بها ما هى الا علامة أولى ، ولست أدرى أى عرق هو للأم أم للأب ؟

ثم رأيت المرأة تبتسم وتقول : « لقد مر كل شىء سريعا » ·

أوشك النهار أن يولى وبدأ الليل يزحف ، وكل ما يحيط بالفراش أشبه بما يكون فى معبد ، ضوء هادىء ينبعث من القنديل ، وبندول الساعة يتحرك بهدوء ، كل شىء يركن الى الهدوء ، حتى هى ، هناك ممددة هادئة هدوءا مثاليا ، وترى الليل يسدل ستائره شيئا فشيئا على يوم من أجمل أيام حياتها ·

وبعد أن وضعت هذا الوزر الثقيل الذى كان يجعل منها كتلة ضخمة ، وأنهكها وأذبل وجهها ، أصبحت صاحبة مجد جديد ينتمى اليها،

ومن فرط السرور كان يعتريها نوع من الذهول ، الى درجة انها تحملت الآلام فى سبيله ، وأخرجت الى العالم الجديد أفكارا جديدة ٠

ثم أخذت تتخيل طفلها وقد كبر ، وارتسمت على وجهها ابتسامة ، كأنها تشعر بما سيسببه لها من آلام وأفراح ، كما تبتسم أيضا لما سيكون له من اخوة من البنين والبنات وطرأت على نفسى الفكرة فى الوقت التى كانت تفكر هى فيها ٠

هذه الملحمة المأساوية التى تخرج من اللحم شيئا عاديا وعاما ، كل امرأة لها فيها ذكرياتها وسماتها ، ومع ذلك ، فقليلات من تدركن هذا !

فالطبيب ، بالرغم من أنه يمر بمثل هـذه الحالات التى يشوبها الألم ، فهو لا يستطيع مع ذلك أن يخفف منها ، والمرأة الرقيقة المدللة ، لا يروق لها أن تستعيد ذكرى آلامها ٠

فبعض الناس يجدون للاحساس والشعور أهمية كبيرة ، والبعض الآخر ، يجدون النزاهة فى المهنة ، وبهذا فلا يبق أثر للشر !

ولكن أنا ، أنا الذى أشاهد كل شيء لمجرد المشاهدة فقط ، رأيت الألم فى أروع صوره ، ألم الوضع ــ الذى كان يتحدث عنه منذ قليل هذا الشخص وكنت أستمع اليه ، هذا الألم لا ينقطع من أحشاء الأم ، ولا أنسى مطلقا التمزقات التى تصيب الحياة الكبيرة ٠

كان القنديل موضوعا بطريقة جعلتنى لا أستطيع رؤية الأم بوضوح، حيث كان السرير سابحا فى الظلام ولكنى مع ذلك كنت أفكر فيها ٠

واليوم انتقلت المرأة النفساء الى الحجرة التى كانت تشغلها من قبل والتى تجاور هذه الحجرة ، نظرا لانها مريحة وفسيحة وقد نظفت من أرضها الى سقفها ٠

ولم تكن النظافة سهلة ، فقد رأيت الخادم وهى تقلب الغرفة رأسا على عقب : الملاءات الحمراء وفرش السرير ، وتلال الغسيل ، وغسل خشب السرير وأمام المدفأة ، والقاء القنينات الفارغة والقطن المندوف ، حتى الستائر لم تسلم من بصمات ملطخة بالدماء وكذلك منحدر السرير كان كحيوان مضرجا فى دمائه ٠

ثم بدأت « آنا » تتحدث : « احترس يا فيليب وأنت تتحدث عن الدين المسيحى لانك لا تفهمه جيدا ، ولا تعرف ماهيته ، فأنت تتحدث عنه وأنت تبتسم ، مثلك فى ذلك مثل النساء اللاتى يتحدثن عن الرجال، أو مثل الرجال عندما يحاولون تغيير مكنونات النساء ٠

فالعنصر الجوهرى فى الدين المسيحى هو الحب الذى ينشر المحبة بين الناس الذين طبعوا على الكراهية •

ان الدين المسيحى ثروة من الحب ، تستجيب لها قلوبنا ونتنفس بها منذ نعومة أظفارنا ، ثم تنمو شيئا فشيئا ، حتى يضاف اليها كنز آخر من الحب ، يتدفق علينا ، ونهب له أنفسنا ، ونغذيه من هـذا السيل •

انه كالحياة ، كالشعر تقريبا أو كالانسان •

ـ ولكن يا جميلتى « آنا » ليس هـذا هو الدين المسيحى ولكنه أنت » •

فى منتصف الليل سمعت صوتا من خلال الفتحة ، فحاولت جاهدا وتغلبت على تعبى ونظرت •

كان المريض وحيدا ، ممداد على فراشه ، وقد تركوا له بالحجرة مصباحا خافتا ، وكان يتحرك ببطء ، يتحدث وهو نائم •• ويحلم ، ثم لاحت على شفتيه ابتسامة وردد : « لا ! » ثلاث مرات ، وتزداد الابتسامة نتيجة لازدياد شعوره بالسعادة ، ثم لم تلبث أن اختفت هذه الابتسامة بعض الشىء ، كأنه فى انتظـار شىء ، ثم انفرجت شفتاه عن تكشيرة خفيفة ، وفجأة تغير وجهه وفغر فاه : « آنا ، آنا ، آه ، آه ، آه ! » صدر ذلك منه دون أن يغلق فمه ، ثم تثاءب ، حينئذ استيقظ وفرك عينيه ، وزفر زفرة ثم هدأ وجلس فى فراشه مأخوذا مما حدث • وجال بعينيه فى كل ناحية يهدأ وينفض عن نفسه الكابوس الذى مر به •

كل شىء بالحجرة كان يوحى بالهدوء ، فى وسطها مصباح ينبعث منه ضوء خافت وثابت ، هدأ من روع هذا الرجل ، وشفاه من لا شىء ، كان يبتسم لأشباح يراهم هو ، وكان على وشك أن يصيبه مس •

نهضت فى الصباح وأنا منهوك القوى ، مكتئبا والألم باديا على وجهى ، لاحظت ذلك عندما نظرت فى المرآة ، كنت أتحرك بصعوبة كأنى نصف مشلول وهذا عقاب لى على بقائى بجوار الحائط وعيناى لا تفارقان الفجوة وقتا طويلا •

وعندما وجدت نفسى وحيدا ، انتابنى قلق كبير بعد أن تجردت من كل رؤية ومشـاهدة كنت قد كرست لهـا وقتى ، قلقت لمركزى الذى أهملته ، والاجراءات التى كان يجب على انجازها ، فقد أجلت كل شىء الى أى وقت آخر ، كما طرحت جانبا مصيرى الوظيفى ، كما أن هناك أيضا

انشغالات تضجرنى ، لانها تتزايد فى كل دقيقة تمر بى : فعلى ألا أحدث ضوضاء ، أو أشعل أى ضوء ، وأن أختفى دائما ، وفى الليلة السابقة كدت أختنق من السعال الذى احتبسته عندما كنت أستمع اليهم وهم يتحدثون ، فأقفلت فمى وأخفيت رأسى ٠

يتملكنى شعور كأن كل شىء سيتضافر ضدى لينتقم منى لأنى لم أستطع الصمود لفترة طويلة ، وسأظل أنظر طالما لدى الصحة والشجاعة ، وأنا على يقين من أن هذا العمل لا خير فيه ، ولكنى أعتبره واجبا ٠

أما الرجل فقد كان فى انحدار مستمر ، والموت يخيم على المنزل ٠

فى هذه الليلة ، كان الوقت متأخرا ، يجلسان حول المائدة كل منهما فى مواجهة الآخر ، كنت على علم بأن زواجهما قد تم ، وانهما حققا هذا الارتباط الذى لم يكن الا احتفالا بالوداع الغريب ٠

بعض الزهور تزين المقعد الكبير ، من زنبق وسوسن ، وهو جالس كأنه منازع يحتضر كالزهور المنثورة حوله وحول المدفأة ، وقال : « لقد تزوجنا يا « آنا » ، أنت زوجتى ، أنت امرأتى ! » ٠

قال هذه العبارة لأنه طالما تمنى ذلك ٠٠ فرحة العرس ٠٠ ولكنه يشعر بنفسه مسكينا لقلة هذه الأيام وندرتها فهى تعنى بالنسبة اليه السعادة كلها ٠

ينظر كل منهما الى الآخر ، يشده اليها عطفها الأخوى ، وتؤثرها عبادته لها ٠ يا له من شعور لا نهاية له ، يعبر عن هذا السكون المطبق الذى يخيم على العروسين ، لم يلمس أحدهما الآخر ولو بطرف أنملة !؟

فقالت الفتاة : « الوقت متأخر وأشعر بالنعاس » ونهضت ووضعت المصباح على المدفأة ، لينير الغرفة ، وكل كيانها يختلج ، تبدو كأنها فى حلم ، ولا تدرى كيف تنصاع لأمر هذا الحلم !

ورفعت يديها وهى واقفة ، وفكت شعرها الذى انسدل على كتفيها وانبعث منه بريقا وضاء فى هذا الجو الخافت ، وهو ينظر اليها صامتا ، ثم نزعت من قميصها دبوسا ذهبيا كانت تقفل به القميص من أعلى فكشف عن جزء من رقبتها ٠ فقال لها : « ماذا تصنعين يا « آنا » ماذا ٠٠ ؟

ـ أخلع ملابسى ٠٠٠ ! » ٠

حاولت جاهدة أن تبدو اجابتها طبيعية ، ولكنها لم تستطع ، ولم يجبها هو الا بصيحة تعجب صادرة من أعماق قلبه ٠٠ الدهشة والأسف

يدمغهما أمل متلألىء : « أنك زوجي ... » فقال : « آه ... تعلمين انى لا شيء ! » « أعـرف .. أعـرف .. زواج صورى .. شكليات .. ارتباطات » .

قال هذا بصوت حزين وبمرارة ، كلام متقطع غير مترابط .

أما هى ، فقد أجابته قائلة : « انك زوجي ومن حقك أن ترانى » « لا .. لا .. ليس هذا حقك ولكن لانى أنا الذى أريده » .

وبدأت أفهم الى أى درجة تحاول أن تبدو لطيفة معه ، فهى تريد أن تهب هذا العجوز المسكين مكافأة تليق به ، فهى ترمى الى أن تكون كريمة معه .

ولكن فى هذا صعوبة كبيرة ، فيجب اذن أن يبدو ذلك طبيعيا حتى لا يكون بمثابة تبرئة من دين أو مخالصـة يجب أن يشعر فى بساطة تامة ، مع الحفل الذى أقاماه سويا انه الزوج المرغوب عن طيب خاطر ، كما يجب أن يخفى عنه النفور والاشمئزاز والألم ، لقد كانت هى نفسها يتملكها الخوف خشية ألا تبدو لطيفة معه ورقيقة حتى تدعم تضحيتها .

فقال وهو يحاول المقاومة : « لا يا آنا .. عزيزتى آنا .. فكرى جيدا .. » ، ومن قبل كان يقول « فكرى فى ميشيل » واكتفى بأن يقول : « أنت .. أنت .. ! » .

فأجابته : « اننى أريد ذلك » .

فقال : « وأنا لا أريده » .

نطق بهذه العبارة وهو يشعر أن قواه تخور أمام الحب الذى يخضعه ويستولى على كيانه ، وأخفى وجهه بين كفيه ولكن سرعان ما تهاوت يداه الى جواره .

كل هذا ، وهى تواصل خلع ملابسها ، وبعد أن كان ينتابها شيء من الاضطراب هدأت نفسها ، وكانت رائعـة تشعر بشيء من الزهـو والخيلاء .

ها هى قد خلعت الكورسيه الأسود ، فبزغ نصفها الأعلى متلألئا كضوء النهار وعندما وقع عليها الضوء ارتجفت بشدة ، وعقدت ذراعيها البضتين أمام رقبتها ، وأمسكت بطرفى أذنيها وذمت شفتيها ، وفكت مشبك« جونلتها » التى انسابت على فخذيها وساقيها ثم تخلصت منها برقة وكانت تحدث صوتا كحفيف النسيم الخفيف للزهور اليانعات .

تخلصت من جونلتها والكورسيه اللذان كانا يضمانها فى قوة ، أما سروالها بطياته الرقيقة فكان يحتضن عريها فى ليونة وأنوثة ·

وبعد ذلك استدارت وأعطت ظهرها ناحية المدفأة تصدر منها حركات كلها أنوثة وعذوبة ، وأخيرا نضت جوربها الشفاف عن ساقيها الجميلتين الممتلئتين كتمثال « ميكاييل أنجلو » ·

فى هذه اللحظة ، سرت فى جسدها رعشة وهى واقفة دون حركة ، يأخذها نوع من النفور ، وقالت حتى تبدد هذا الشعور : « اننى أشعر ببرودة » واستمرت فيما كانت تفعله ، أمسكت بشريط قميصها لتكشف عن حيائها الذى تخدشه وتنتهكه ·

فقال لها بهدوء شديد حتى لا يضايقها بصوته : «القديسة العذراء» ، وحينئذ كان يجلس فى مكانه متقلصا ، يتحرق حبا وشوقا وهياما ، حبه الذى هو أجمل منها ، ولكن عليه أن يقاوم عينيه الضعيفتين فليس هناك سوى : هو وهى ·

وبالرغم من هذا ، فقد تركت القميص ينساب عن صدرها المرمرى الدافىء ، حتى بدت أمامه عارية تماما ·

لم أر فى حياتى امرأة تشع نورا كتلك التى أمامى ، لم أر مثلها فى حلم من أحلامى ، فمنذ رأيتها لأول وهلة ، شدتنى اليها بوجهها المضىء الجميل ، ولكنى لم أكن أتصور أنها جميلة الى هذا الحد المتكامل ، فلديها الرقة ولديها ثروة من الجمال ·

يمكن أن أقول انها حواء فى لوحة مقدسة ، رائعة فى جزئياتها التى تفوق البشر ، فهى ممتلئة ، سليمة معافية ، ولحمها بض رخض ، تتحرك بحساب ، كتفاها عريضان ، ونهداها بارزان كبيران ، وقدماها صغيرتان ولحم ساقيها لين وخاصة سمانتيها اللتان تشبهان نهدين جميلين ، تقف كأنها « فينوس ميديسيس » ذراع تنثنى أمام ثدييها والأخرى ممتدة أمام بطنها ، وكتمجيد وتعظيم لهذا القربان فقد رفعت يديها الى شعرها ·

كل ما كان يحتضنه ثوبها ويخفيه أصبح فى متناول نظره ، فقد أعطته اياه كفدية ، كل هذا البياض الناصع ، التى كانت تراه هى فقط حتى الآن ، له وهو على وشك الموت ، ولكنه يعيش بالرغم من هذا ·

وهبته كل شىء : بطنها ، بطن العذراء المصقولة الملساء ، ذات الزئبر (الشعر الصغير) الذهبى ، وبشرتها الرقيقة الناعمة ذات اللون الصافى الوضاء ، كالانعكاسات الفضية ، (يلاحظ نصيب اللون الأزرق السماوى،

عند رقبتها ومؤخرة فخذها ، وبعض الغضون الخفيفة التي يسببها لحمها على أحد جوانبها ، وقد اتحدت مع العقد الذى يحتضن رقبتها ليكونوا الخط الوحيد على جسدها وعلى فخذيها العريضين كأنها العالم كله ، والنظرات الصافية المضطربة التى تعتريها بعد أن أصبحت عارية) ٠

ثم أخذت تتحدث بصوت حالم ، تذهب الى بعيد فى حديثها عن الهبة السامية ٠

(لا أحد ـ قالتها بحدة ـ لا أحد ، أتفهم ؟ لا أحد مطلقا يعرف ما صنعته هذه الليلة) ، بعد أن أعطت سرا أزليا الى عابدها المنهوك القوى الى جوارها كأنه ضحية ، وكانت هى التى ركعت على ركبتيها أمامه ، ركبتيها اللامعتين وهكذا اقتربت عارية تماما لأول مرة فى حياتها وقد تورد جسدها ، حتى كتفيها ، مزدهرة ، فوهبت عفتها ، وكانت تردد عبارات كأنها تشعر بأن ما فعلته انما هو فوق واجبها ، وأكثر من ذلك جمالا انها ـ هى نفسها ـ قد بهرت به ٠

وعندما ارتدت ملابسها وأخفت جسدها الى الأبد وابتعدا عن بعضهما دون أن يجرؤ أحدهما أن يصرح للآخر بشيء ، هزنى شك كبير ، هل كانت هى على صواب ؟ أم كانت خاطئة ؟! فقد رأيت الرجل يبكى ويقول متمتما :

(من الآن لن أعرف الموت مطلقا » ٠

١١

فى صباح اليوم التالى كان الرجل نائما ، تارة يبتسم ، وتارة أخرى يطلب ماء ليشرب ، وأحيانا تصدر منه كلمات لا معنى لها ، وأحيانا أخرى يدخل عليه بعضهم بحذر ثم أحاطوه وسألوه : هل تريد شيئا ؟ أتريد قسيسا ؟

فقال : « نعم ٠٠٠ لا ٠٠٠ » ٠

ثم خرجوا وما هى الا لحظات حتى عادوا ومعهم قسيسا كأنه كان ينتظر خلف الباب ٠

وما أن رآه الرجل المريض حتى التفت اليه وخاطبه قائلا : « سوف أموت » ٠

ــ على أى دين أنت ؟

ـ دين بلدى ، آرثوذكسى ٠

ـ ما هو الا بدعة دينية يجب أن ترتد عنه ، فالدين الكاثوليكى هو الدين الحق ٠٠ اعترف وأنا سأبرئك وأعمدك ٠

فصمت المريض ولم يجب ٠

أعاد القسيس ما قاله : « هيا ، اعترف الى ٠٠ أفضى الى بما ارتكبته من آثام وأخطاء ، تب توبة صريحة وستغفر لك كل آثامك ٠

المريض : عن الآثام ؟

القسيس : تذكر ٠٠ أيجب أن أساعدك ؟ وأشار ناحيــة الباب وقال : هذه التي تقف هناك ؟

ـ انها زوجتى ٠

ـ منــذ متى ؟

ـ منــذ يومين ٠

ـ أوه ! منذ يومين ! ومن قبل ، هل أخطأت معها ؟

ـ لا ٠٠

ـ آه ! ٠٠ سأسلم جدلا بأنك تقول الحقيقة ، ولكن لم تخطىء ؟ أليس هذا طبيعيا ؟ لانك رجل ! وبدا الضيق على وجــه المريض ولكن القس قال له :

، لا تتضايق يا ولدى من أسئلتى هذه ، فأنا أسألك بكل بساطة فأجبنى بنفس الطريقة كذلك ، وسيسمعك الله ، وسيكون معك حليما ٠

ـ هى فتاة مخطوبة ، كانت تعيش معى منــذ أن كانت طفلة ، وقاسمتنى ظروف الحياة ومشاق أسفارها ، وكانت تعتنى بى ، وقد تزوجتها قبل مماتى حتى ترثنى لانى غنى وهى فقيرة ٠

ـ ألهذا فقط ؟

ـ اننى أحبها ٠

ـ ها أنت قد اعترفت أخيرا ٠

واستطرد القس وعيناه فى عينى الرجل المريض يضايقه بحديثه وبأنفاسه ٠

ـ اذن فقد رغبت فى هذه المرأة ، رغبت فى لحمها ، وارتكبت الاثم فى ذهنك منذ زمن بعيد ؟ أخبرنى ، كيف كنت تعاملها أثناء سفرك ، وكيف كانت تعيش فى الفنـدق ، وكيف كنت تنظم اختيـار الحجرة والفراش ؟ تقول أنها كانت تعتنى بك ، مثل لما تقول ؟

تلك بعض الأسئلة التى حاول بها رجل الدين أن يتغلغل فى نفس الرجل المريض ، ولكن الرجل المريض أصبح جافا وخشنا أمام هذا الرجل الغريب ولا يصدق شيئا ، فحاول جاهدا أن يوجه سؤالا الى القس :

« اذا لم أكن قد أخطأت الا بالفكر فقط ، اذن فأنا لست مذنبا ، فلماذا أندم أو أتوب على شىء ناتج عن الألم ؟ » ٠

ـ لسنا الآن أمام نظريات ، وما جئت هنا لذلك ، يجب أن تفهمنى وتجيبنى على أسئلتى فقط ، قص على كل الظروف التى كانت تحيط بك وبرغبتك بالتفصيل ٠

ـ لكنى قاومت ، هذا كل ما يمكن أن أصرح به ٠

ـ لا يكفى فيجب أن تغسل الحقيقة الخطأ ٠

ـ فلآكن مغلوبا على أمرى ، لقـد ارتكبت هذا الاثم وانى لأندم وأتوب عليه ٠

ـ ليس هذا اعترافا ، ما هى الظروف والملابسات التى أحاطت بك مع هذه المرأة وما هى الأفكار الشريرة التى تولدت مع أفكارك ؟

ضاق المريض ذرعا بهذا ، فاعتدل قليلا واستند الى مرفقيه وحدق فى رجل الدين وثبت عينيه فى عينيه وقال : « هل أنا الآثم الوحيد ؟

القس : بل الجميع ٠

ـ اذن هو الله ، طالما انه خالقهم ٠

ـ آه ! انك تدخل فى مناقشات وسأجيبك : ان الانسان لديه الميول الى الخير والشر ، أى احتمال اتيان أحدهما ، فاذا نزع الى الشر ، تحل به لعنة الله ، أما اذا جنح الى الخير ، فيجازيه الله خيرا ، ولكى يستحقه ، يجب عليه أن يتذرع بالقوة ٠

ـ أى قوة ؟

ـ الفضيلة والدين ٠

ـ فان لم يكن لدى الانسان دين أو فضيلة ، فهل هذا خطأه ؟

ـ نعم ففى هذه الحالة تعمى بصيرتك » ٠

فقال المريض مكررا بعض ما قاله :

« ومنذا الذى غرس فى نفوسنا هذا القبس من الفضيلة أو من الجـور » ٠

القس : هو الله الذى وهب الفضيلة ، وخيرنا أيضـا بينهـا وبين الرذيلة ٠

المريض : فاذا كانت ميول الانسان الى الشر أقوى من ميوله الى الخير فكيف يتسنى له أن يتجنب الرذيلة ، ويجنح الى الفضيلة ؟

القس : هذا يرجع الى اختيار الفرد ٠

المريض : وهذا الاختيار ما هو الا غريزة فاضلة ، واذا ٠٠٠

القس : (مقاطعا) اذا أراد الانسان خيرا ، فله ذلك ، لاننا اذا تناقشنا فى ذلك فلن ننتهى من شىء لا يناقش ، فان لم يكن ابليس قد لعنه الله ، ولو ان آدم لم يخطىء لكان الأمر غير ما هو كائن !

المريض : ليس من العدل أن نتحمل عبء آدم وابليس ٠

القس : ولكن هذا أكثر شرا من هؤلاء الذين انصب عليهم العقاب واللعنة ، فان كانوا قد ذلوا ، فهذه ارادة الله الذى أخرجهم من لا شىء ، من لا شىء ، هل تفهم ؟ ومنحهم كل شىء من الفضيلة أكثر من الرذيلة ، وقد عاقبهم على انزلاقهم حيث ألقى بهم ! » ٠

كان الرجل المريض قابعا طوال الوقت يسند ذقنه الى يده ، فى جلسة مثل أبو الهول ، ينصت الى ما يقوله القس ٠

وعاد القس الى كلامه قائلا : « وقد كان فى مقدورهم أن يختاروا طريق الفضيلة ان أرادوا ذلك ، وهذاهو الخيار » ٠

كان القس يتحدث بصوت حلو وهادىء ، لم تضايقه مناقشة الرجل المريض ، وبينما كان ينصت اليه المريض فاذا به يسمع منه عبارة كان لها وقعا شديدا فى نفسه :

القس : « ففى السماء يشقى المخطئون ، ويهنأ التائبون » ٠

المريض : وعلى الأرض ؟

القس : على الأرض ، الصالحون أشقياء كغيرهم ، بل أكثر منهم ،

لانه بقدر ما يتعذب الانسان على وجه الأرض ، بقدر ما ينعم فى أحضان السماء ٠

فصاح المريض كالمحموم : « آه ! أكثر من الخطيئة الأصلية وأكثر من القضـــاء والقدر ، فان آلام الصـــالحين على الأرض ممقوتة ولا شيء يغفر لها ! » ٠

فنظر القديس اليه بهدوء وقال :

« ومن أين لك أن تختبر النفوس دون ذلك !

المريض : لا شيء يغفـــر لها حتى العقول الصـــبيانية التى لا تعى شيئا ، وحتى يعرف الله طبيعة هـــذه النفوس ، فيجب على الصـــالحين ألا يتألموا ، اذا كان هناك قسط من العدالة : « حتى يحقق الانسان سعادته، يجب عليه أن يقاسى ويكابر » ومن أين لك أن تعلم أنه لا يوهب ذلك الانسان الذى قد ثار على القانون البدائى ؟ » ٠

وازدادت حالة المريض سوءا ، وأسرعت أنفاسه وقال : لن يكون لهذا الاتهام ردا ٠ فقد ألقيت الضوء على الصرح المقدس فى مختلف صوره، ولم تخف منه شيئا ، مما يسبب الآلام التى لا تستحقها ٠

القس : ان السعادة التى تحققها بالألم ما هى الا المصير المشترك والشريعة العامة ٠

المريض : أتشكك فى الله لانها الشريعة العامة ؟

القس : ان الله فى ذلك له حكم لا حدود لها »

فرفع المريض يديه الى الأمام ، وزاغت عيناه وصاح قائلا : «كذب» ٠

القس : فى هذا الكفاية ، قد صبرت على شرود فكرك ، وأنا مشفق عليك ، فالأمر لا يتعلق بكل هذه الأفكار ، فيجب عليك أن تتقرب الى الله الذى ـ كما يبدو لى ـ كنت تعيش بعيدا عنه ، فان كنت تتألم فهذا يجعلك أكثر قربا منه ، وآمل أن يكون فى هذا كفايتك » ٠

لم يتفوه المريض بأى كلمة بعد ذلك وظل صامتا وهو ممددا على فراشه كتمثال رخامى ذى وجه برونزى فكان فراشه شبيها باللحد ، ثم خرج من صمته وقال : « ليس فى استطاعة الله أن يواسينى » ٠

القس : أى نبى ! ماذا تقول ؟

المريض : ليس فى مقدوره أن يواسينى ، لانه لا يستطيع أن يهبنى ما أريد ٠

القس : ولدى المسكين ! كم أنت تتخبط فى الظلام ·· والقدرة الالهية اللا محدودة ، ماذا أنت بفاعل حيالها ؟

المريض : للآسف ، لم أشغل نفسى بها ·

القس : ماذا !؟ أيناضل الانسان مدى حياته ، ويتعذب ويتألم ، ثم لا مواساة ؟! كيف تفسر ذلك ؟

المريض : للأسف ليست هذه هى المشكلة ·

القس : لماذا اذن أرسلت فى طلبى ؟

المريض : كان عندى أمل ·

القس : ماذا بك ؟ ما أملك ؟

المريض : لست أدرى ، فالانسان لا يتمنى ما لا يدرى ·

وبعد ذلك لاذا الاثنان بالصمت · فكان شعورى حينئذ أن ما يدور بخلدهما هو الشىء نفسه والفكرة نفسها وهى : وجود الله : هل الله موجود ؟ وهل الماضى والمستقبل ليس لهما وجود ؟

اذن فهناك تقارب بينهما ، فهما اخوان فى التضرع واخوان فى التباين ·

وحطم القس الصمت وهو يقول : « الوقت ينقضى » ·

وكأن شيئا من هذه المناقشات لم يحدث ، وعاد القس الى الحديث الذى كان قد بدأه مع المريض : « افض الى بالظروف التى عشت فيها وقت خطيئتك الجسمانية ، عندما كنت بمفردك ، مع هذه المرأة جنبا الى جنب ، أو قريبا منها ، هل كنتما تجلسان فى صمت ؟

المريض : اننى لا أؤمن بك ·

فقطب القس حاجبيه وقال : « تب واعترف لى انك تؤمن بالدين الكاثوليكى ، فهو الذى سينقذك » ·

ولكن المريض هز رأسه فى حزن عميق نافيا كل شىء عن سعادته ، ثم هم أن يعود الى مناقشته قائلا : « الدين ··· » ·

الا أن القس قطع عليه حديثه قائلا : « لن نبدأ ثانية ! صه ، فكل أفكارك الباطلة قد مسحتها بحركة واحدة · عليك أن تبدأ بايمانك بالدين ، وسترى ما هو الدين ، ونفرض انك لا تعتقد فيه لانه لا يعجبك

ولهذا كان حديثك كله خارجا عن الموضوع وقد جئت أنا لكى أجبرك على هذا ، على أن تؤمن به » ٠

يا له من صراع حاد بين رجلين يشرفان على حافة مقبرة وينظران الى قاعها كعدوين !

القس : يجب أن تؤمن ٠

المريض : لا ٠٠

القس : بل يجب ٠

المريض : أتريد أن تغير الحقيقة بالوعد والوعيد ؟

القس : نعم ، وأضاف بلهجة حادة : « سواء كنت مقتنعا أم لا ، تب فالأمر لا يتعلق بالتوضيح والبيان ، بل يتعلق بالايمان ٠ فيجب علينا أولا أن نؤمن والا فلن نؤمن مطلقا ، وهنا تكمن الخطورة ، فالله لن يمن علينا بالايمان ، فزمن المعجزات قد ولى وانتهى ، والمعجزة الوحيدة هى نحن ، وهنا الدين والعقيدة ، فآمن وستساعدك السماء على هذا » ٠

كل هذا والقس لا يكرر سوى كلمة واحدة وهى : آمن كأنه يلقيه بحجر فى كل مرة يقولها له ٠

واسترسل فى حديثه الى المريض :

القس : أى بنى ، أنا لا أطلب منك سوى الايمان ٠

فأجابه المريض ببغض : أغرب عن وجهى ٠

لكن القس ظل واقفا ولم يبد حراكا ، ولم يخمد ، تدفعه الرغبة الملحة فى انقاذ هذه النفس رغما عنها ٠ فقال للمريض : « هيا ! أطعنى ، فلم يبق لك على وجه الأرض سوى بضع لحظات وستوافيك منيتك » ٠

المريض : لا ٠٠

فأمسك القس بيديه وقال له : « لا يوجد سوانا أمام الله ، أنا وأنت ، ولن تجدى المهاترات فى شىء ، فكلها تذهب مع الريح ، والفرصة سانحة لك الآن فانتهزها » ٠

وهز القس رأسه أمام المريض الذى اصفر لونه وشحب وجهه ، وزاغ بصره ، وامتلأ وجهه بالغضون ، وغار أنفه فى وجهه ، واسودت ذقنه وخديه ، ثم قال له : « اعلم انك وانت أمامى كأنك أمام الله ،

ما عليك الا أن تقول ببساطة : « آمنت » ، وبعد ذلك سأحل عنك ، هذه الكلمة هى كل شىء فى الآخرة ، أما دون ذلك فلا نفع منه » •

واقترب بوجهه من هذا الرجل الذى يشرف على الموت ، كمن يريد أن يفرض عليه التوبة والايمان : « قل معى : « أبانا الذى فى السموات » فلا أطلب منك سوى هذا •

زاد المريض اصرارا على رفضه أمام هذا الالحاح وهز رأسه نفيا •

فنهض القس وعلى وجهه أمارات الانتصار وقال له : ها أنتذا قلتها أخـــيرا •

المريض : لا ••

فزمجر القس قائلا : آه •• وأمسك بذراعيه وضغط عليه بشدة كأنه يريد أن يحتضنه ليقبله أو ليعتصره أو ليغتاله • يحاول بأى طريقة أن ينتزع ما يريد من شفتيه • فقال : « فكر فى أنك ستترك الأرض عاجلا وستموت ، فقل هذه العبارة فقط : « أبانا » لا أكثر منها » •

واقترب منه أكثر مرددا فى وجهه : « قلها ، قلها ، قلها » ولكن هذا الأخير أجابه بكل ما تبقى له من صوت قائلا : « لا » •

القس : « أيها الوغـــد ! » •

أخرج القس صليبا من جيب سترته ، ووضعه على صدر الرجل ، فتململ منه كأن به عدوى ، ثم ألقاه على الأرض فالتقطه القس وهو يزمجر ويلعن ويسب : « انك تريد أن تدفن كالكلب ، ولكنى هنا » •

وضع القس الصليب ثانية على صدر المريض ، الذى يكاد يلفظ أنفاسه ، فلم يستطع أن يفعل شيئا فى هذه المرة واكتفى بأن نظر اليه ببغض ، ولكن نظراته هذه لم تلق بالصليب الى الأرض •

ولما رحل القس فى الظلام ، وبدأ الرجل يفيق الى حقيقته ، كنت أعتقد ان هذا القس بقسوته وخشونته على حق ، أقس ردىء هو ؟ لا بل هو طيب فهو لم يكف عن التحدث بضمير وايمان،وهو يعمل على تطبيق دينه كما هو دون نفاق • ولكنه جاهل وغير حاذق ، نعم هو شريف فى أسلوبه منطقى فى تفكيره وفى محاولاته •

سمعته ورأيته وهو يحاول جاهدا بشتى الوسائل الأمينة أن يهب التوبة والغفران ، ولكن دون جدوى حتى أنه تألم لذلك ألما حقيقا الى أن قال : « ما عساى أنا بفاعل لك غير هذا ؟ » • فاذا كان الرجل على حق

فالقس كان على حق ، فالقس هو حماقة الدين وغبائه • آه ! ما هذا ؟ هذا شيء لم يكن يتحرك من قبل بجوار القماش ، هذا الشيء الكبير لم يكن موجودا من قبل ، يعترض ضوء الشمعة الموجودة بجوار المريض •

فأحدثت دون قصد مني ضوضاء حقيقية ، جعلت هذا الشيء يستدير نحوى ، فرأيت وجها مخيفا ، وقد أخافنى فعلا •

اننى أعرف هذا الوجه ، أليس هذا الوجه لصاحب الفندق ؟ رجل له بعض التصرفات الشاذة ، كان يجوب الممر فى انتظار أن يصبح المريض بمفرده •

مد يده الى حقيبة كبيرة موضوعة الى جوار السرير ، وأثناء ذلك كان ينظر الى وجه المريض ، فأخطأت يده الحقيبة ، وسمعنا ضوضاء صادرة من الطابق العلوى فارتعدنا ، وطرق أحد الأبواب ، فنهض وهو يحاول أن يكتم صيحة تكاد تخرج منه •

وفتح الحقيبة ببطء ، وأنا لا أعرف لماذا كنت خائفا ألا تسنح له الفرصة ! •••• فأخرج منها لفافة كانت تحدث صوتا خفيفا ، وعندما قدر هو أن فى يده دفتر الشيكات ، لمحت على وجهه نورا سطع على وجهه واختفى سريعا ، كانت ترتسم على هذا الوجه كل علامات الحب ، والغموض ، وشعور بسعادة متناهية ، وقناعة كبيرة عانقت السرور الذى يشعر به ••• نعم كل سمات الحب بادية على وجه هذا اللص الذى ينبض بالانسانية العميقة •

كان الباب فى هذه اللحظة مواربا ، وكان يكمن خلفه أحد ، حيث لمحت طرف ذراع ، وانصرف على أطراف أصابعه •

وبالرغم من انى رجل شريف ، فقد كنت ألتقط أنفاسى فى اللحظة التى كان يسترد هو فيها أنفاسه ••• وكما فهمت ، ان ذلك يرجع لشعورى باشتراكى معه ، متواطىء معه فى السرقة ، وعلى ذلك فيجب أن أدافع عن نفسى •

كل اللصوص عاطفيون ، حتى هذا اللص الجبان ، ونظرته الشخصية الى الثروة ، فكل الجرائم والاساءات ما هى الا محاولات مكتملة فى صورة الرغبة التى لا نهاية لها والتى هى جوهرنا ، وأصل نفوسنا العارية ما هى الا « حب تملك ما للغير » •

ولكن أمن الواجب أن نغفر للمجرمين ؟ وهل عقابهم ظلما لهم ؟ لا •• ويجب أن ندافع عنهم •

ولما كان المجتمع الانسانى تدعمه الأمانة والشرف فيجب القصاص منهم حتى يقتدى غيرهم ، وكذلك لا يجب خلق الأعذار للأخطاء حتى لا تتحول الى عادة بل تلزم محاكمتهم تحقيقا لمبدأ الفضيلة فيجب أن تكون العدالة مصقولة كالسلاح ٠

فالعدالة ليست كما يشير اليهـا اسمها ، وانما هى خليـة تشعر بالفضيلة ، فهى لا تكفى أو تستقر ، فدورها يقتصر مثـلا على : تغيير المذنبين الى نوع من الأشباح المخيفة بأن تشفع لمن يتأرجح ناحية الجريمة، اذا أبدى أى عذر لجريمته ٠

فأى انسان ليس من حقه أن يدفع بآخر الى التكفير عن ذنوبه ، لا يستطيع أحد ذلك فالانتقام منفصل تمام الانفصال عن هذا ٠

اذن فالغفران كلمة عديمة الاستعمال فى العالم ٠

١٢

رقد الرجل فى فراشه ، الموت يتسلط عليه ، فلم يتفوه ببنت شفة ، ولم يبد حراكا ٠

أما الصديقة الجميلة فقد جلست أمامه مستندة الى عارضة السرير، وعيناه مثبتتان عليها ، تتمتع ببراءة الطفولة ، وجمال الملائكة ، بشعرها الجميل وبشرتها البيضاء ، فكنا ـ أنا وهو ـ لا نرى أمامنا سواها ، يبدو عليها الخوف من أن تصبح أرملة ٠

خرج من الفراش صوت عرفته بصعوبة ، صوت المريض ، قال : « حديثك لم ينته بعد » فانحنت « آنا » على الفراش حتى تسمع الكلمات التى تقال لآخر مرة ـ دون شك ـ من هذا الجسد عديم الحركة والشكل ٠

وأعاد القول : « هل لدى متسع من الوقت ٠٠٠ هل لدى وقت ؟ » ٠

كان صوته يخرج همسا لا يسمع الا بصعوبة ، وارتفع رويدا رويدا وهو يقول : « لى رغبة فى أن أعترف اليك يا « آنا » » ٠

« ولا أريد أن تموت هذه الذكرى معى ، انى أشفق عليها من الموت ، آه كم أشفق عليها من الموت ٠٠ كنت أحب امرأة قبلك ٠٠ نعم ٠٠ أحببت ٠٠ يا لها من صورة حلوة وحزينة أريد أن أنتزع هذه الذكرى من الموت وأهبها اليك طالما أنت هنا » ٠

ثم اعتدل فى جلسته حتى يرى جيدا من يتحدث اليها : « كانت شقراء ٠٠ لن تغارى منها يا آنا (فأحيانا تتملكنا الغيرة حتى ان لم نكن نحب) فمنذ عدة سنوات عندما ولدت كانت طفلة صغيرة ، تجذب أنظار الأمهات عندما تسير فى الطريق ٠

تمت خطبتها فى منزل أبويها ، وكان لها شعر ذهبى جميل ، تلفه بالشرائط ، وكنت أسير أمامها ممتطيا جوادى فكانت تبتسم لى ٠

« كنت حينذاك شابا يانعا ، مملوءا حيوية ونشاط ، أشعر كأنى فى مقدورى أن أغزو هذا العالم كله ، وهى أيضا كانت تشع نشاطا مثلى ، كنا نتنزه فى « البارك » ، ونقول لبعضنا سنأتى هنا دائما عندما تتقدم بنا السن ، كان حبنا عظيما ، ليس عندى متسع من الوقت لأصفه لك ، ولكنك تعليمنه يا آنا ، فهذه الذكريات التى أقصها عليك ، فى غاية من الروعة ، أكثر مما تتصورين !

« ولكن الموت اختطفها فى نفس الربيع الذى كنا سنعقد قراننا فيه ، فقد اجتاح بلدنا وباء جعل منا نحن الاثنين ضحايا ، تركتنى وحيدا ، لم تستطع أن تهرب من الموت ٠

« منذ خمسة وعشرين عاما يا آنا ! خمسة وعشرين عاما بين موتى وموتها !

« هذا هو السر الثمين يا آنا : واسمها ٠٠٠٠ » لم أسمعه جيدا ٠

« قوليه لى ثانية يا آنا » ٠٠

أعادت الاسم ثانية فى مقاطع متفرقة لم أفهمها أو أسمعها ، ثم قال : « أفضيت لك به لانك هنا بجوارى ، فوجودك هو الذى دفعنى الى ذلك ، أما اذا لم تكونى بجوارى فكنت سأفضى به الى أى أحد حتى أنقذه منى » ٠

وأضاف بصوت خال من النبرات حتى يكون فى مقدورها أن تخدمه حتى آخر لحظة : « عندى أيضا ما أريد أن أفضى به اليك : شقاء وخطأ ٠٠

ــ ألم تعترف الى القس بالاثم ؟

ــ لم أقل له شيئا » ٠

واستطرد : « أثناء فترة خطوبتنا ، كنت قد نظمت شعرا ، وكنا نقرأ هذه الأشعار سويا » كم كان هذا جميلا ! » هذا ما كانت تقوله دائمــا ٠

كانت هذه الأشعار تلازمنا أينما كنا ، لا تفارقنا ، ولا ترغب هى فى أن أنشرها حتى تظل بيننا ، وقد صرحت لى برغبتها هذه ذات يوم فى الحديقة وهى تقول : كطفلة صغيرة : « أبدا ، أبدا » وهى تهز رأسها، ويتطاير شعرها فى الهواء كأنه يرقص » ٠

زاد صوت الرجل قوة ، واعترت نبراته رعشة وهو يقص ما تبقى من القصة :

« ومرة أخرى قالت لى ونحن فى الحديقة ، والمطر يهطل منذ صباح ذلك اليوم قالت لى : « فيليب » قالتها كما تقوليها لى أنت : فيليب » ٠

وتوقف فى حديثه يتعجب من بساطة العبارة التى نطقتها ٠

قالت لى : « هل تعرف قصة المصور الانجليزى « روسيتى » وقصت على تلك القصة التى قرأتها : « لقد وعد محبوبته بعد أن طلبتاليه ذلك ـ أن يدفن معها كتابه ، ولما وافتها منيتها ، حقق لها أمنيتها ودفن معها الكتاب فعلا ٠ ولكنه طمعا فى المجد انتهك حرية وعـده وحرمة المقبرة أيضا ، واسترد المخطوط « فهل ستدفن معى كتابك هذا بعد موتى ؟

« فوعدتها وأنا أبتسم : نعم ٠ وابتسمت هى أيضا وقالت : ولن تأخذه ثانية يا فيليب » ٠

« ولما شفيت أنا من المرض قليلا وعلمت انها ماتت ولما تمكنت من الخروج اصطحبـونى الى مقبرتها ، مقبرة العائلة ، التى تضم تابوتها الصغير ٠

« ما فائدة ذكرى هذا البؤس والحداد ٠٠٠ فكل شىء يذكرنى به ، وصورتها كانت تملأ حياتى ، أما هى فلا وجود لها ٠

« وكلما ازدادت ذاكرتى ضعفا ، تحولت التفصيلات الى ذكريات ، فكان حزنى بداية مخيفة لحبى ٠

وكان الكتاب يذكرنى دائما بالوعد ، فأودعته خزانة صغيرة دون أن اقرأه ثانية ، لذلك لا أعيه جيدا ، فدور النقاهة قد غسل ذهنى ، وعلمت أنهم فتحوا المقبرة ، وأخبرنى الخادم بأنهم وضعوا الكتاب بين يديهـا ٠

« أخذت أكتب بعد ذلك قصائد ودراما ولكن لا شىء كان يرضينى وأصبحت فى حاجة الى كتابنا » ٠

« آنا » لابد أن نرحم أنفسنا ٠٠ أعرف جيدا أن ما بين قلبين من

حب ، شيء رائع ، ولكنني بعد ثلاث سنوات شعرت بأن لى رغبة فى أن أفعل ما فعله المصور الانجليزى ، ليس فقط طمعا فى المجد والشهرة ، بل أيضا لأن حبنا وذكرياته الجميلة بين طيات هذا الكتاب ، ومع ذلك فصـــوتها الجميــل يرن فى أذنى وهى تقول : « ولن تأخــذه ثانية يا فيليب » ٠

« لم تساعدنى مقدرتى على أن أتمم بقية القصائد كأن مقدرتى قد وهنت خلال الثلاث سنوات التى تلت موتها ، فكنت أكتب بصعوبة ، وأحصل على عناوين القصائد الشعرية بعد جهد وعناء ، وأخيرا وجدت أنه لابد لى من استرداد الكتاب حتى وهو فى المقبرة ٠

« وذات ليلة اجتاحتنى رغبة فى الذهاب اليها ٠٠ وبعد تردد ، وبعد صراع نفسى طويل وعنيف ، ليس من الضرورى أن أسرده عليك ، وقصة الانجليزى عالقة بذهنى ، ذهبت الى المقبرة فى الظلام ، والبرد ، وأخذت معى مصباحا كما قالوا لى ، وكنت اتوقع ما سيصادفنى ، ٠٠٠ الرائحة ، العقد الملفوف حول رقبتها ٠٠٠ لم أعرفها ٠٠٠ لم المس سوى الكتاب الذى أعطته لى ٠٠٠ لا أريد أن أثقل عليك يا آنا فالحياة بعد أن كانت قاسية أصبحت حلوة فى هذه اللحظة التى تصغين الى فيها ، وهى اللحظة التى أعيش فيها مع الماضى » ٠

كانت المرأة الشابة تصغى اليه ، وليس فى امكانها أن تفعل سوى ذلك ٠

« وأمضيت بقية الليل فى قراءة الكتاب المسروق ، أليس فى ذلك عزائى الوحيد ، لأنسى موتها وأفكر فى حياتها ؟

« ولاحظت جيدا أن هذه الأشعار ليست كما كنت أعتقد ، فهى لا تزيد فى قيمتها عن الأشعار التى نظمتها بعد موتها ٠

« وتولانى يأس أثلج كيانى ، فطأطأت رأسى أمام بقية الأشعار ، فيبدو أن الفترة التى قضاها الكتاب فى المقبرة ، قد شوهت معانيه ، وسلبت الروح من أشعارى ، أصبحت بائســة كالأيدى الجــافة التى أخذتها !

« **كم صاحت وهى تقول :** « جميل ٠٠ جميل » بصــوت عذب والأيدى تتشابك فى حنان ٠

« حيث كان الصوت والقصيدة على قيد الحياة ، وحيث كان الحب يزين قافيتى ويضفى عليها جمالا ، كل هذا كان فى الماضى ٠٠

« يبدو ان الموت يعدى ۰۰۰ فقد أصاب أشعارى أيضا لبقائها فترة طويلة مدفونة معه فى الهدوء الرهيب والظلام المخيف ، فى هذا النعش الذى يرقد فيه حبى ، والذى لم تكن تواتينى الجرأة على أن أدخله لو لم يكن فيه حبى ۰

« صدقت ان عملى هذا كان انتهاكا لحرمة دون فائدة ، وان كل ما نعد به ونقسم هنا على الأرض ، ما هو الا انتهاك حرمة لا ترجى منه فائدة ۰

« حقا لقد ماتت ! يا لها من ليلة أذرفت فيها الدمع حارا ، كانت ليلة حدادى الحقيقية ، كم يشق على المرء أن يفقد حبيبا له ، وخاصة عندما يشعر بأن كل شىء قد انتهى ! وان اليأس لا مفر منه ! والجريمة التى ارتكبتها تلك الليلة ، انما هى من أبشع الجرائم ۰

« كم كانت جميلة ومتفتحة ، تدب فيها الحيوية ، تضحك دائما ، وأسئلتها لا تنضب ۰۰۰ كأنى أعيش معها من جديد ، تحت أشعة الشمس على بساط سندسى أخضر ترتدى « جونلة » من الستان الأحمر الباهت ، وتنظر الى ساقيها الجميلتين ونحن نجلس بجوار قاعدة تمثال مرمرية ۰

« كنت أجلس بالقرب منها ، لأشبع ناظرى بفتنتها ، وأتفحصها جيدا لعلى أجد أى عيب فى جسدها ، ولكنى لم أعثر على شىء يعاب عليه خدان جميلان ، وجبهة مضيئة ، وبشرة رخصة ۰۰۰ تأثرت كثيرا لهذا الجمال الذى لا يوصف ، ودون أن أدرى وجدت نفسى أقول : « هذا كثير ۰۰۰ هذا كثير » كأنها أميرة على كل من حولها ۰

« فعندما كانت تسـير فى الطريق ، يتسـابق الناس على مداخل أبوابهم ، الرجال حتى الشيوخ منهم ، ليشاهدوها ، ويبدون لها كل احترام ۰۰۰ كان لها مظهر الملكة التى تقف على قاعدة عالية ، كتمثال فى « البارك » ۰

« حتى المقعـد الرخامى الذى كنـا نجلس عليه أصـبح مهجورا كالمقبرة ۰

« احتفظت عندى ببعض الأشياء التى كانت تخصها : مروحة أحركها أمام عينى ، وقفازها الصغير ، وقد فارقته الحياة ، وخطاباتها التى كتبتها بخط يدها ۰

« آه ۰۰۰ منذ لحظة ، أيقنت كم كنت أحبها ، وكم أحببتها على مر الزمن ، هى ، هى التى منحت الحياة ، ثم سلبت منها ، والتى كانت شمسا وصيحة ، الآن قد واراها الثرى فى نبع مظلم ۰

« بكيت أيضا هذا القلب الانسانى ، فى تلك الليلة ، فهمت قيمة ما أشعر به ، ثم أقبل النسيان ، وتلته اللحظات التى كانت بمثابة تذكير للحظات التى بكيتها » ٠

« هذا هو الاعتراف الذى كنت أود أن أفضى لك به يا آنا ٠٠ كانت لى رغبة فى أن قصة الحب هذه ، التى بلغت من العمر خمسة وعشرون عاما ، لا تفنى ، وأن تبقى على مر الزمن ، أعرف أن فى هذا مضايقة لك وانه شىء يربك ولكنه حقيقى ٠

« فمنذ أن أحببتك ، وما زلت أحبك ، أقدم لك صـــورة المخلوقة الصغيرة الجميلة التى تبلغ من العمر سبعة عشر عاما وستظله دائما٠٠» ٠

وتنهد بعد أن قال هذه العبارة ، هذه العبارة التى لمست من خلالها خط الدين من القلب الانسانى ٠

ورغم أنى كنت أحبها وأعبدها وهى تبادلنى نفس الشعور ، فانى أحبك وأعبدك حبا لا يشاركنى فيه مخلوق ٠٠٠ آه ٠٠ أمن الممكن أن يعثر الانسان على الجنة حيث يجد السعادة !؟ » ٠

وارتفع صوته ، وخرج عن ثباته للحظة وقال : « آه ! أنت ٠٠ أنت ٠٠ أنت فقط » « آه ٠٠ يا آنا ٠٠ لو كنت قد اقترنت بك حقيقة ! كنا سنعيش كزوجين ، وكنا سننجب أطفالا ، لو كنت دائما بجانبى كما أنت الليلة ؟ حقيقة انك بجوارى ! » ٠

وهدأ بعد ذلك ٠ كان يتحدث بشدة بحيث لو لم تكن هذه الفجوة موجودة ، لكنت سمعته أيضا ٠٠٠ لقد أفضى بحلمه ، ونثره من حوله دون وعى منه ٠٠٠ هذا الاخلاص الذى يختلف عند الجميع ، كان له معنى حاد سحق قلبى ٠

واستطرد : « أعذرينى ٠٠ أعذرينى ٠٠ هراء لم أتمكن من ضبط نفسى ٠٠ » ٠

الى هنا توقفت كلماته ، وهدأت ثائرته ، واستراح وجهه ، بينما عيناه تتألمان ، وكرر بصوت خافت كأنه يحدث نفسه :

« أنت ٠٠ أنت » ٠

خمدت أنفاسه بعد أن نطق بهذه الكلمة : « أنت » وفى هذه الليلة فارق الحياة ، وخرج من الدنيا ، رأيته وهو يواجه الموت بمفرده ، لم يكن معه أحد فى هذه الليلة ، مات فى هدوء ، دون شهيق أو حشرجة ،

لم ينازع ، ولم يتشبث بغطاء فراشه ، لم يصرخ أو ينادى أحدا ، لم يحدث من هذا شيء قط .

كان قد طلب من آنا أن تحضر له قليلا من الماء ، وانصرفت لتلبى طلبه ، وتركت خلفها الباب مفتوحا وتسلل الضوء الى الغرفة وسقط على وجه الرجل ، وأحسست فى هذه اللحظة أن هدوءا كبيرا يغمر هذا الوجه ، ولكن كيف ؟ **لا أدرى !**

وحتى لا يشعر بأنه وحيد لم أستطع أن أمنع نفسى فصحت : « اننى أراك » ، وتغلغل صوتى الشاذ الذى لم يتعود على الكلام داخل الحجرة ، ولكنه كان قد مات . حتى فى هذه اللحظة التى منحته فيها صدمة من مجنون .

كان رأسه منحدرا الى الخلف قليلا وحدقتاه محولتان وفى هذه اللحظة دخلت « آنا » وهى تسرع لانها سمعتنى دون وضوح ، وما ان وقع نظرها عليه حتى صدرت صرخة قوية من جسدها السليم المعافى ، صرخة قوية خرجت من أعماقها ، صرخة رنانة ، صرخة أرملة ، وركعت على ركبتيها أمام السرير .

وعلى أثر هذا ، أقبلت الحارسة ، فلما رأت هذا المشهد رفعت يديها الى السماء وساد الحجرة صمت عميق وارتسم عليها البؤس ، ومهما يكن من أمر الميت أو مكانه فان المرء ينتابه شعور غريب .

امرأة راكعة على ركبتيها ، وأخرى واقفة ينظران الى الفراش ، الممدد عليه انسان بلا حراك ، كأنه لم يكن ، وكذلك المرأتان .

وبعد لحظات انخرطت « آنا » فى البكاء طفلة صغيرة وانصرفت الحارسة لتبحث عن بعض الأفراد ، ونهضت آنا وتناولت شالا تركته السيدة العجوز على أحد المقاعد وتأزرت به .

دبت الحياة فى الغرفة التى كانت خالية فى هذه الأيام الأخيرة ، وامتلأت بالشموع المضيئة ، واختفت النجوم التى كنا نراها خلال النافذة المفتوحة .

امتلأت الغرفة بالناس ، فمنهم من كان يبكى ، ومنهم من كان يركع على ركبتيه ، وجدت وجوه لا أعرفها ولم أرها من قبل ، ولكنه كان يعرفها ، كان يخيل الى ، وأحس أنه هو الحى وهؤلاء المتجمعين من حوله متألمين لفراقه ، هم الأموات ؟

سمعت الطبيب وهو بالقرب منى يقول للحارسة : « لابد أنه تألم كثيرا قبل أن يموت » ٠

ـ كان ضعيفا جدا هذا المسكين ٠

ـ ولكن الضعف لا يمنع من الألم الا فى نظر الآخرين ،

بدأ اليوم التالى كئيبا ، وببداية النهار ، ازدادت برودة الجو مما زاد الغرفة كآبة ، وسمعت صوتا يخترق هذا الهدوء ويقول :

« لا يجب أن تفتح النافذة ، فسيفسد سريعا » وتمتم آخر : الجو بارد » ٠

كنت أرى حركات كثيرة تصدر من الموجودين كذراعين تضم عليها فراء ، وشخص ينهض ويجلس ، وآخر يدير رأسه ، وأسمع تنهيدة أو زفرة ٠٠٠

سمعت البعض يقول اننا انتهزنا فرصة الحديث لنرحل عن هذا الهدوء الذى يشلح البدن ٠

ويتجدد النظر الى الرجل الموضوع فى النعش كتمثال لا يبدى حراكا ٠

أظن انى قد غفلت على سريرى ، ومع ذلك فالوقت لم يزل مبكرا ، وفجأة دوى فى السماء الرمادية اللون صوت جرس الكنيسة ٠

بعد هذه الليلة المضنية ، وهذا الانتظار الممل اصطحبتنى دقات هذا الجرس الى ذكرى الطفولة الجميلة ٠٠٠ شرد ذهنى فى الريف الذى كان يضمنى وأصوات الأجراس التى تظلها سماء صغيرة ، فى موطن هادىء حيث كل شىء جميل ، وسقوط الثلج يعنى « نويل » ، ودفء الشمس ينادينا دائما ويتوسط كل هذا شىء واحد هو الكنيسة ٠

وتوقفت الدقات شيئا فشيئا حتى اختفى صدى صوتها ٠

ولكن هناك دقات أخرى ، انها دقات الساعة ، الساعة الثامنة : ثمان دقات رنانة يعقبها هدوء ليس بعده هدوء ، ما علينا الا أن نعد هذه الدقات التى تعبر عن مرور الزمن ٠٠٠ عمل من أعمال القدر ٠

فى هذا الوقت من السحر كانت الطبيعة متأنقة تزين كل شىء حتى الكنيسة ٠٠٠ قطرات المطر تتساقط فوق أوراق الأشجار ، متناثرة عليه كاللؤلؤ والجليد على الزجاج فى منظر رائع كأن يد امرأة ماهرة قد شغلته ٠

ان العبارات السابقة على مر الزمن تظل محتضنة لترانيم أجراس الكنيسة ، تحتضنها فى هدوء حتى انها تتزايد وتنمو فى أيام أو سنين أو أجيال ، وهذه الألحان الصادرة عن دقات أجراس الكنيسة لا يمكنها أن تبدل الحزن بالجمال •

١٣

كنت وحيدا فى هذه الليلة ، اتخذت مكانى أمام المنضدة عليهـا مصباح ساطع ، كما تسطع الشمس على الحقول فى فصل الصيف ، ابتعدت عنى النجوم وحلقت فى السماء ، وهرب الأفق منى دون عودة •

فى هذه الليلة ، لم أكن هادىء النفس ، فى هذه الليلة تملكنى الحزن العميق ، والقلق ، كما كان شعورى عند مجيئى أول يوم ، ولما نظرت فى المرآة لم أجد سوى نفسى وتلك الصيحة التى هى « أنا » •

أردت أن أعـرف سر الحيـاة ، رأيت كثيرا من النـاس زرافات ووحدانا ، رأيت حركاتهم وتصرفاتهم ، كما سمعت حديثهم ، وتفرست فى وجوههم ، رأيتهم فى كل وقت ، رأيت العيون التى ترتجف لتبدو عميقة كالبئر ، وتمليت من الفم الذى يقول مفتخرا : « اننى انسـان حساس كالآخرين » سمعت ورأيت العديدين منهم •

رأيت أيضا الصراع من أجل الحب ، ومن أجل التعبير عن النفس ، والمتعة بين المتحدثين ، واندماج العاشقين ، وهما مبتسمين ، حبيبين اسما فقط ، يحطمان بعضهما من التقبيل ، ويتعانقان ليشفى كل منهما الآخر ، بالرغم من عدم وجود أى ارتباط بينهما ، وبالرغم من فرط السعادة أيضا التى يشعرون بها ، فهم أغراب عن بعضهم ، كالغربة بين الشمس والقمر •

كما سمعت هؤلاء الذين يبحثون عن بعض الهدوء والسلام ، فيجدونه فى بؤسهم المهين ، ورأيت الوجوه الباكية ، ذات العيون الوردية اللون ، كانت لى رغبة فى أن أحتضن كل هذا دفعة واحدة ، فكل الحقائق كانت تشكل حقيقة واحدة ، تلك هى حقيقة الحقائق التى أرنو الى معرفتها •

وليس هذا محبة فى الناس ، فمن الخطأ الاعتقاد بأننا نحب بعضنا، فما من مخلوق قد أحب ، أو يحب ، أو سيحب الآخرين ، هذا فى رأيى الشخصى ، فأبحث عن كيفية الحصول على الحقيقة عينها والوصول اليها ،

هذه الحقيقة التى تسمو على العاطفة ، وتسمو على السلام وحتى على الحياة نفسها ، كلون من ألوان الموت ٠

أريد أن أنزح منها رشدا ، وأستقي منها ايمانا ، وأحصل بها على الاخـلاص ٠

وتأملت الذكريات الحبيسة منذ جئت الى هنا فوجدتها لا حصر لها ، حتى شعرت بانى غريب عن نفسى ، مستعرضا المشاهد التى مرت بى ، قاصدا هدفا ساميا وهو : الوقوف على حقيقة نفسى والاستماع اليها ٠

وجميل أن يعرف المرء نفسه ويستمع اليها ٠

كنت أفكر فى الجميع على السواء ، فنانين كانوا أو شعراء أو علماء ، كل من كان يكابد أو يقاسى ، أو كل من أذرف الدمع ، وكل من ابتسم للحقيقة وهو قريب من المعابد ، أو فى الحدائق المظلمة ، التى لا تكون أرضها سوى عبير هش أسود ٠

وأفكر أيضا فى الشاعر اللاتينى الذى يواسى الناس ويبعث الاطمئنان فى نفوسهم ، وهو يكشف لهم عن الحقيقة ، دون غشاوة ـ كتمثال ، كما يرمى الى خلق الأفكار التى تساعد على تخليص الناس ٠

فهم منذ ألف أو ألفى عام دائبى البحث عن خلاصهم ومواساتهم ٠ ولا شىء يغير من وجوه الأشياء حتى تعاليم المسيح نفسها ٠

هـل سيأتى اليوم الذى أرى فيه شـاعرا يجعل الايمان سرمديا ولا حدود له ؟ شاعر لا يكون جاهلا أو أحمقا ، ولكنه حكيم ، شاعر عظيم لا يرحـم ٠

لست أدرى ، فقد منحتنى العبـارات السامية أملا فى مجيئه ، احتمالا ، وعن حقه فى التقدير ٠

ولكنى أنا ٠٠ أنا ! ما أنا الا نظرة من القدرة أمكث هنا لأبحث لها عن ذكرياتها ، والآن ، وبالرغم من كل شىء ، أشعر كأنى شاعر على مشارف عمل أدبى ٠

شاعر ملعون قاسى ، لم يخلف وراءه أى مجـد عن الحقيقـة التى أعارتها العبقرية للصدفة ٠

عمل أدبى مزعزع هش ، وسيمضى معى مميتا ، وبالرغم من ذلك الوهن سيتلاقى مع الخطوط الأساسية والدراما الأصلية للحياة ٠

ماذا أكون أنا ؟ أنا الرغبة فى الحياة ، ليست رغبة اليوم فقط ،

بل أيضا الرغبة الدائمة ، فنحن جميعا نمقت الموت ، ونبغى الحياة ، فهى فى الحقيقة الرغبة فى الاستمرار فى الوجود ، والازدهار الذى لاينضب ٠

فكل ما لدينا من قوة وطاقة ونشاط يدفعنا الى التحمس لكل ما هو جديد من أفكار وأحاسيس ، وتدفع المـرء للسعى وراء ما للغير ليضمه الى ما له ٠

فالانسانية ما هى الا الرغبة فى التجديد ، والهروب من الموت ، نعم هو ذاك ، لأن الفطرة والحرية لهما نفس الاتجاه ، بما لها من علامات ودلائل ، وفى الوقت نفســه أيضا نجــد أن العبــارات التى تختلف تتشابه أيضا ٠

وبعــد ٠٠٠ أين اذن الكلمات التى تنير الطريق ؟ فاذا كانت هى الانسانية ، فما حظها من العالم ؟ وما هو العالم ؟

اننى ألمس أهميــة المخلوق عندما نعــدم من يهب الى نجدتنا عند الحاجة ، وقد كرست حياتى لأصل الى فهم حقيقة هذه الأهمية ، ولأصل الى أعماق كل منا ٠

فمن الحقائق ، أن الانسان يفرح أو يحزن اذا ما فرحت الطبيعة أو حزنت ، وحقيقة أنه اذا ما طلعت الشمس ، اختفت النجوم فى كبد الســماء ٠

فأنا مثلا أتربع على عرش العالم ، تتوجنى الكواكب وتحملنى الأرض وترفعنى ، وتربعت على قمة مئات السنين ، أحصل على كل شىء ، على كل كبيرة وصغيرة ، من الفكر كانت أو من القلب ، وأوجد الظلام اذا ما رفعت يداى أمام عينى ، واذا أغمضتهما ، تغيرت زرقة السماء ، ومن بعدى فلن تجد العظمة مأوى ٠

أسندت رأسى الى راحتى ، وتحسست عظام رأسى ٠٠٠ انها الجمجمة، نعم عظام الجمجمة ، جمجمتى التى تشبه جماجم الآخرين ! تشابه واضح ، فمن خلال الظلال أرى عظامى وأتعرف على نفسى ، على شبحى الذى لا يفنى، وهيكلى العظمى ، أحسه وأتلمسه ٠٠٠ هو الوحش الأبيض الذى يبعث الرهبة فى النفوس ويدعو الى السأم ، وهو فى الوقت نفسه أنا !

وانهالت على الأحــلام ، طالما أن جمجمتى قريبــة الشبه بجماجم الآخرين ، بكل من كانوا من العظماء ٠

ترى كم جمجمة وجدت ؟ فاذا كان الخلق البشرى مثلا يرجع الى مائة ألف عام ، وهذا بدون شك أقل من الحقيقة كما انه لو عاش على

وجه البسيطة مليار ونصف من السكان يتجددون كل ثلاثين عاما ، فيكون الذى قد وارى التراب بذلك ما يقرب من أربعة آلاف وخمسمائة مليـــار جمجمة !

سيأتى اليوم الذى يوارينى فيه التراب ، بسبب مرض او جراح وأدفن كما دفن الآخرون هكذا فهو انذار لا مفر منه ، (وتذكرت كلام الشاعر الذى أصابنى بالقلق وضايقنى) ، اذن فهذا التراب سيحتضننى يوما ما ، هذا الغبار الذى أنفضه عن نفسى فى كل يوم ، وأغتسل منه ، وأدافع عن نفسى ضـــده ، وأنتزع نفسى منه عنـــوة ، هو مـــلاك الأرض المشـــئوم ·

تتكاثر الديدان فى النعش حول جثتى ، وقد قال « لين » فى هذا ، أن ثلاث حشرات فيها الكفاية لأن تفعل بجثة ما يفعله أسد ضارى ·

تناولت كتابا وفتحته ، وتعمقت فيه ، لأعرف ما ينتظرنى ·· وعلمت قصتى المقبلة ··

فحشرات المدافن وطفيلياتها ، تتعاقب فى دورات ، وكل نوع له موسم ، بحيث يصبح من السهل التعرف على عمر الجثة بمعرفة مجموعة الحشرات الى تقتات عليها وترتع ·

فهناك ثمان مراحل لاستيطان الطفيليات فى الجثث متتابعة تتعلق بثمان مراحل للتعفن ، وعن طريق هذا التعفن تبلى الجثة شيئا فشيئا ·

لى رغبة فى معرفتها ، فلنرى أولا مالا نراه ، ولنتعرض الى ما لا نحسه ·

هناك طفيليات صغيرة يطلق عليها اسم « كورتو نيفر » تلازم الجسد نبضع لحظات قبل الموت ··· وتحس هذه الطفيليات بقرب الخطر منها اذا ما اشتمت رائحة كريهة فتتكاثر وتضع بيضها على تجويف الأنف والفم وفى أركان العيون ·

فهل تتوقف حياتها اذا ما تكاثرت طفيليات أخرى ؟ فالحشرة الزرقاء والحشرة الخضراء والاسم العلمى هو : « لوسيليا سيزارا » ، والحشرة الكبيرة ذات اللون الأبيض والأسود وتسمى « جراند ساركوفاجيان » تصبح حساسة بمجرد أن تضعف الأخرى ·

فالجنس الأول لهذه الحشرات ، يمكنه أن يتكون من ثمانية أجناس فى الجثة ، تتوطن وتتكاثر خلال ثلاثة أو ستة أشهر · فقد قال « ميجتان »

« ان ديدان طفيليـــات الحشرة الزرقاء تتزايد كل يوم بما يعادل وزنها مائتى مرة » ٠

حينئذ يصبح لون الجثة أصفر يميل الى الاحمرار قليلا ، وكذلك يكسو البطن والظهر اللون الأخضر القاتم أو على الأقل تختلف الألوان ، ان لم يتم ذلك فى الظل ٠

وفى هذه السبع أو الثمانى مراحل تأتى هذه الطفيليات على الجثة ، شيئا فشيئا ، ولا يتبقى منها سوى فضلات حول العظام ، وحول الجمجمة ، وفى ثنايا العظام ، وهذه الطفيليات تسمى الطفيليات المفترسة ٠

ثلاث سنوات تنقضى ، وينتهى كل شىء ، ويعود المرء الذى كان معبودا الى حكم المادة ٠

وباختفاء الرائحة الكريهة ، ينتهى كل أثر للحياة ٠

هذا هو مصير سكان العالم ، وسيلاقونه حتما ، وربما خلال الخمسة عشرة دقيقة التى كنت أفكر فيها ، يكون قد مات آلاف السكان ٠

فالأجساد ما هى الا أعداد هائلة من الخلايا ، والخلايا أعداد هائلة من الذرات ، والذرة هى أصغر جزء من المادة ولا يبلغ حجمها سوى جزء من عشر من المليمتر ٠

« وأما الذرة ، فهى عنصر غير معروف ، ومجهول ومفترض وغالبا يحتمل الحقيقة ، والانسانية جمعاء يشغلها التفكير فيها ومن هذه الذرات تكونت الكرة الأرضية نفسها وهى لا تعد شيئا بالنسبة الى الفضاء » ٠

فاذا رسمت دائرة على ورقة ، فمركز الدائرة يعادل حجم الأرض بالنســبة الى الشمس ، والشمس بدورها يصغر حجمها بمقارنته بحجم الأرض اليها ، فهذه النقط التى نخطها على الورقة مع الدوائر تمثل نجوما أو كواكبا فى السماء ٠

واذا تخيلنا أن النجوم عددها مائة مليون نجم ، فان العين المجردة لا يمكنها رؤيتها ، الا اذا كبرت سبعة عشرة ألف مرة لأن الفراغ الذى يفصلنا عنها شاسع ، وأقرب النجوم الينا بعد الشمس هو النجم « الفا » و « العيوف » ويبعد عنا عشرة آلاف مليار فرسخ ، وال « آركتوروس » ويبعد عنا ثلاثمائة وأربعة وعشرون ألف مليار من الكيلو مترات ، ويتحرك فى الفضاء بمعدل ألفين وستمائة وأربعين مليون كيلو متر كل عام ونرصده منذ ثلاثة آلاف عـام ونحـدد مكانه من خريطة الكواكب ، ويبـدو كأنه ٧ يتحرك ٠

والنجم ١٨٣٠ من كتالوج « جرومبيريدج » يبعد عنا ثمانمائة ألف مليار من الكيلو مترات ويتحرك بسرعة مهولة لا يمكن احتسابها ... فضوءه يجوب طبقة الأثير بسرعة ٣٣٠٠٠ كيلو مترا فى الثانية !

فبعض النجوم ، كالنجم القطبى ، وغيره من النجوم والكواكب يلزمه مئات السنين حتى يقترب منا أثناء دورانه .

واذا نظرنا الى مدار هذه النجوم والكواكب وطبيعتها ، وبعدها عن الشمس ، وبعد الأرض عن القمر ومجال دورانهم الأزلى ، لا ندرى الى متى ستبقى الأرض ؟ فمنذ أن انفصلت الكتلة الغازية عن خط الاستواء ، فقد انقضت مليارات من السنين .. وعلى أقل الافتراضات فان المرحلة الثانية أى مرحلة التحول من السيولة الى الصلابة استغرقت ثلاثمائة وخمسون مليون عاما .

ولما كانت الذرة هى أصغر جزء من المادة ، فان عالم النجوم هو العنصر الكبير ، ليس بوجه عام بل الجزء الذى تناوله العلم .

وأما الأبحاث العلمية فقد تناولت بالدراســة الكواكب القريبة منا فقط ، والتى تبعد عن الأرض ثمانمائة ألف مليار من الكيلو مترات ، ولم يتسمن لنا دراستها تماما وتحديد أماكنها بالنسبة الى حركة الأرض ، وليس هناك ما يشير الى تأثير النجوم على الأرض .

ويخيل الى أن أحدا لم يتمعن فى ذلك كما أتمعن أنا الآن .

كما ان هناك علامات وأرقام تحدد هذه الكواكب التى تخضع دائما أبدا لقانون الجاذبية الذى يحكم مسار الكواكب والنجوم .

(ما عسانا بفاعلين حيال هذا كله ؟ وما عساى أن أفعل وأنا جالس هنا ، أتصفح كتابا بين يدى على ضوء مصباح موضوعا أمامى ؟ .. نهضت ورحت أذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وأنا أفكر : ماذا أكون ؟ ماذا أكون ؟

آه ! ألابد لى أن أعثر على جواب لهذا السؤال لما يترتب عليه من أسئلة أخرى مثل : ما هو مصيرى المحتوم الذى ينتظرنى ؟

وقفت أمام المرآة المعلقة فوق المدفأة ، أحاول أن أتغلغل فى أعماق نفسى وأبحث عنها ! أبحث عن الرد الذى سينقذنى من الضياع ، وبدون شك ان لم أوفق الى هذا ، فسأتوه وسأنقذ نفسى .

هل أنا هذا الشىء العليل الذى أراه أمامى ؟ وهذه الغرفة ـ كنعش متسع قليلا ـ تحتضننى ، بل تخنقنى ؟

ولكن فكرة بسيطة وصغيرة أنقذتني مما أنا فيه ، الهام تسلط على ، فقلت لنفسي : مستحيل ، فالخطأ الجسيم في كل مكان ٠

ولكن ما الذى دهاني حتى أفكر هكذا ؟ وما الذى دفعني الى ذلك ؟ آه ٠٠ هذا نتيجة لما يتكتل في نفسي من ايمان بالدين والعلم والبديهة ، فالبديهة هي صوت الحواس ، الصوت الضخم الذى يناديني ليريني ان ما نراه في الأشياء انما هو حقيقتها ، مع انى في أعماق نفسي ، أعرف انها ليست الحقيقة ، فلكى نعرف الحقيقة ، يجب علينا أولا أن ننزع القشرة السميكة التى تحيط بها لتكشف لنا عنها ٠

هناك أخطاء عديدة تقع فيها حواسنا ، ومفارقات وأشياء متعارضة ، وما تصوره لنا الأحلام والتخيلات والجنون لا تيسر لنا الاصغاء بالنسبة الى هذه الأخطاء لنرحم أنفسنا منها ٠

والبديهة حيوان مستقيم ولكنه أعمى ، لا يعرف الحقيقة التى تتوارى عند أول نظرة ، مثلما قال الحكيم عبارته المشهورة « تصبح على شفا حفرة » ٠

والعلم ٠٠ ما هو العلم ؟ اجتهادا ، يعنى تنظيم المظاهر ، وكمعنى بحت ، يعنى العلم تنظيم العقل نفسه بنفسه « والحقيقة العلمية » تعنى نفى البديهة نفيا تاما تقريبا ٠

فليست هناك تفصيلات مطلقة على المظهر ، لا تتناقض مع الاثبات العلمى ، والمادة تتكون من اتحاد بعض القوى ببعضها فهو يملى نوعا من المادية المجردة ٠

وحتى فى مجاله التجريبى أو المنطقى ، فهو مضطر الى استخدام الافتراضات ، واذا قسناه الى جانب سمو العالم أو صغره يكون حينئذ قاصرا ٠

وستواجه العالم مشاكل منها ما يتعلق بالأرض ، ومنها ما يتعلق بالفضاء ، فعلى الأرض تواجهه مشكلة تجزئة الفضاء ، وفى الفضاء تعترضه مشكلة ذات حدين أولاهما : « هل للفضاء نهاية » أم « أنه مكتمل النهاية » ؟

والعلم لا يزيد عن البديهة فى شىء الا أنه لا يرى الحقيقة طالما أن هدفه هو وضع منهجا تجريديا أو عمليا للعناصر التى لا تبحث فى أصل حقيقتها ٠

أما الدين فيقول بحكمة : البديهة لاتصدق،والعلم لا ينتهى الى شىء ،

ولا سبيل لمعرفة الحقيقة دون معرفة الله · وهكذا فقد استوقف الدين « باسكال » معترضا الأساس المزدوج له وللحقيقة ، وان الله ما هو الا جوابا للأمل والمجهول ، وما هناك الا رغبتنا فى معرفة حقيقة الله ·

فهذا العالم الذى أراه الآن ليس له حدود ، ولا يستند الى شىء · اذن أين اليقين وأين الخطأ ؟

وحتى أثبت وجودى ، فقد دعوت هؤلاء الأحياء الذين رأيتهم من قبل، وجوههم تزدهر وتتفتح وتتخلص نظراتهم من القيود ·

وجوه رأيتها فى أعماق الليل ، تبزغ كالأمجاد السامية ، فمنهم من كان يستعيد الماضى ، ومنهم من كان يوجه كل اهتمامه الى النافذة ، ووجوه أخرى تحلم بالشمس ، من خلال الضباب ، ووجوه أخرى كانت فريسة للموت ، فالجميع كانت الوحدة تحيط بهم من كل جانب من جوانب هذه الغرفة ، ومع ذلك فلم تنته هذه الوحدة بعد ·

وأنا ··· أحتبس بداخلى ماضى ، ماضى الذى لا يخمد وأتطلع الى مستقبل جديد ، أفكر تارة ، وأندم أخرى وثالثة ، أتمنى وأفكر ·

أنا ··· قد غيرنى حلم النجوم الذى كنت أعيش معه منذ قليل ، حـولنى الى ذرات ، أمن الممكن أن أكون لا شىء ؟ وأحيـانا أشعر انى كل شىء !

هل أنا كل شىء ؟ أم لا شىء ؟

ثم طرحت هذه الأفكار جانبا ، وقدرت أن كل شىء فى جسد منغلق، فلا نضيف الى الكون شيئا ، فأرواحنا ما هى الا نفثة من نفثات الحياة ، وسنأخذ نصيبنا منها أحياء كنا أو أموات ·

لا ! وهنا اكتشفت الخطأ ، فالذهن هو مصدر كل شىء ، فيجب دائما أن نبدأ به ·· والحقيقة تعود اليه أساسا ·

وقد لاحظت الآن بعض الأمور الجانبية فى تأملاتى ، فهذه التأملات ذاتها هى أنا كانت تبرهن على عظمة الفكر التى هى أنا ، ومع ذلك تقول تلك التأملات ان الانسان المفكر لا يسـاوى شيئا ، أنا الذى يرفع من شأنها ، تكاد تحطمنى ·

ولكن ·· ربما وقعت فريسة للوهم ، أعارض نفسى : فكل ما فى نفسى هو صورة أو انعكاس لفكرة الكون ، فالذهن ما هو الا شبح العالم ، الذى يعيشه كل منا · فالكون بنفسه لا يعيش داخلى ، بل يعيش مستقلا عنى ، شاسعا نوعا ما ، يجعلنى مخلوقا من عدم ، أو كأنى لم أكن ·

وجميل ألا أكون ؟ أو أن أغمض عيني أمام الكون ٠

ويبدأ الحزن والقلق في اعتصار أحشائي ٠٠٠ وتخرج منها نتيجة لا تنسى كوقع موسيقى رفيعة المستوى : « لا ! » ٠

لا ، ليس الأمر كذلك ، لست أدري ما اذا كان الكون له حقيقة خارجي أنا ، وكل ما أعرفه هو أنه حقيقة ليست لها وجود سوى في ذهني وفكري، لا يبقى الا بهما ٠

لذلك ليس في مقدوري أن أتخلى عن ذهني ، وليس هذا من حقي ، فمن الجميل أن أحاول جاهدا مقاومة نفسي ، لأسرق نفسي من نفسي ، ولا يمكنني أن أضيف الى العالم حقيقة غير تلك التي أتخيلها ٠

وطالما اني لا أستطيع أن أخرج عن نفسي ، فسأصدق ما تمليه على في وحدتي ٠

وكيف أفكر دون جنون ؟ اذا قلت انه في استطاعتي أن أتخلى عن نفسي ! وان قلت اني لست وحيدا ! ومن منا يمكنه اثبات أن وجوده ينفصل عن وجود العالم خارج حدود الفكر ؟

واذا أصغيت الى الميتافيزيقا (وهي ليست علم ، فهي تخرج من عداد المنهج العلمي ، وتميل الى الفن أكثر وترتبط مثله بالحقيقة ، لانه اذا كانت اللوحة جميلة أو أن بيتا من الشعر جميل ، فذلك لانه حقيقي) وأجوب صفحات الكتب ، وأستشير العلماء والمفكرين ، وجمعت حصيلة المعارف التي توصل اليها العقل الانساني على مر الزمن ، وقرأت عن الحقيقة التي تفرض نفسها على :

لا يتسنى للمرء أن ينفي الفكرة التي أخذها عن العالم ولا يمكن تأكيد وجوده خارج حدود هذه الفكرة ، لا ، ليس من المؤكد ان الحقيقة التي تبدأ فينا ، تستمر في مكان آخر ، وبعد هذا فلا يمكن لانسان أن ينفي هذه العبارة التي تقول : « أنا أفكر ، اذن أنا موجود » ، فالفيلسوف يحاول ، شيئا فشيئا ، أن يصل الى الحقيقة خطوة خطوة ٠

ان العالم ، كما يبدو لى ، لايراه سوانا ، بينما العالم الخارجي ، أي الكرة الأرضية بحركاتها ودورانها في الفضاء وآفاقها ، وبحارها بمدها وجزرها ومساحاتها الشاسعة ، ونباتاتها المختلفة ، وحيواناتها التي لا تحصى ولا تعد ، وعالمها الأرضي والفلكي وتعبيراتها وتاريخها ، ومصادرها وأصلها ، ما هي الا خزعبلات ، وان هذه الخزعبلات انما هي « خزعبلات حقيقية » أقول ان اللامحدود والأزلية لهذا العالم ما هما الا الاهين مزيفين٠

فأنا الذى منحت الكون هذه الفضائل اللا محدودة والتى تعيش فى نفسى ·

ولا شيء يمنع من أن أقول انى موجود ، وانى لا أستطيع أن أتخلى عن نفسى وان كل شيء : الفضاء والزمن والعقل ، ما هى الا كيفية تصورى للحقيقة وكامكانيات مبهمة لدى ·

وقد وجدت هذه التفسيرات فى كتاب عن الصرخة الانسانية والقلب ينبض ويحس من خلال الخطوط المقدرة للانسان ، كما يرى ذلك الكاتب الألمـــانى ·

فلمعرفة الحقيقة الخالصة وتفهمها جيدا ، يلزمنا نوع من الاهتمام ، للتخلص من المظاهر ، وأقول ان هذه الأفكار من أجمل الأفكار التى لم يمليها أحد من قبل على الناس ، وهى خلاصة كتاب فيلسوف«كوينجنسبرج» وهو الكتاب الذى يقترب كثيرا من التوراة ، كلام المسيح الذى يهدف الى تنظيم المجتمع طبقا لنظم سامية ·

ولهذا أهمية كبيرة فى أن نستبدل الحقيقه بالعقل · ويتعلق الأمر بمناقشات غير مجدية ، بل بمشكلة شخصية مخيفة ، تشدنى اليها كلية ، كما انها تتعلق بمسألة حياة أو موت بالنسبة لى ، ومحاكمة دون مقدمات تورطت فيها بنفسى ·

كل شيء بداخلى لا يخضع لحكم ، ولا حدود له ، فالصراع من أجل البقاء لن يتوقف ، وسيستمر القلب الانسانى فى طريقه بحرية ·

ولكن كيف أتخيل مماتى ان لم أكن شخصا آخر ؟

نحن لا نموت ، فكل مخلوق وحيد فى هذا العالم ، ولكن أيضا من السخافة أن نقول مثل هذا الكلام المتعارض ··· ومع ذلك فالأمر كذلك ·

هناك أيضا كثيرون مثلى ··· لا ··· لا يجدر بنا أن نقول مثل ، فلنتخذ موقفنا من الحقيقة بنوع من التجريد ، ولا يجوز لنا الا أن نقول شيئا واحدا : ما الانسان الا فرد · ولهذا فالانسان لا يموت !

ففى مثل هذا الوقت من الليل ، قال الرجل : « بعـد مماتى ، ستستمر الحيـاة ، وتتجدد الحيـاة والآثار التى سأخلفها ورائى مع الفراغ » ·

كان يخدع نفسه اذ يقول ذلك ، لقد حمل معه الحقيقة كلها ،

ومع ذلك فقد رأيناه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فبالنسبة لنا ، مات الرجل ، أما بالنسبة له فلا ٠

يبدو لى ان هناك حقيقة مخيفة وتعارض هائل يصعب الوصــول اليهما ، والكنى سأتناول الطرفين وأبحث عن تفسير لهما ، فكل شيء مثل : « كل مخلوق هو كل الحقيقة » وأعود لحديثى :

المرء لا يموت طالما انه فرد ، وحيد بمفرده ، بل الآخرون هم الذين يموتون ، وتلك العبارة التى تضطرب بين شفتى ، مشئومة وبهيجة فى وقت واحد ، تفيد بأن الموت اله زائف ٠٠٠ ولكن البقية ؟

اذا سلمنا جدلا بأن عندى من الحكمة ما يجعلنى أتخلص من فكرة الموت التى تستولى على ، فسيتبقى موت الآخرين ، ولم يغير الألم من مفهوم الحقيقة لأن الألم ، شيء مطلق ٠

وبالرغم من هذا ، فبؤسنا العظيم اللا محدود ، يمتزج بشيء من المجد وشيء من السعادة تقريبا ٠

وبالقرب من مصباحى هذا ، الذى تلاحقه زرقة السماء ، أرى نفسى وحيدا فى هذا الكون ولكنى سأبتسم عند تباشير الفجر ، ولكنى لست أدرى ما كنه ابتسامتى ؟ أعن كبرياء ؟ أم عن فرحة ؟

١٤

نعود الى آنا ٠ كانت المرة الأولى التى أراها فى ملابس الحــداد السوداء التى زادت من شبابها وجمالها روعة وبهاء ، تقف فى منتصف الغرفة ، تتلفت يمينا ويسارا كما لو كانت قد نسيت شيئا فى الغرفة التى ستتركها ٠

وبينما هى كذلك ، اذا بالباب يفتح ، ويظهر على عتبته شخص ، بمجرد أن وقع بصرها عليه صاحت : « ميشيل ! ميشيل ! » ومدت ذراعيها وظلت ثابتة فى مكانها بلا حراك ، وبالرغم من طهارة المكان الذى توجد فيه ، والحياء الذى يملأ قلبها وحياتها لم تتحملها ساقاها وهوت على الأرض ٠

وبحركة رومانتيكية ألقى هو بقبعته على السرير وأسرع وأخذها بين أحضانه ووقعا على الأرض سويا ، وهو يعانقها عناقا حارا ويقولان معا فى كلمة واحدة : « وأخيرا ٠٠٠ » ٠

أخيرا قد انتهى فراقهما الطويل ... وانتصر حبهما ... وأخيرا ها هما قد التقيا ...

رأيتها تنتفض من أخمص قدمها الى شعر رأسها ، وفتحت عينيها أمامه ثم أغمضتهما على صورته ، وحاولا جاهدين أن يتحدثا ، طالما انه لابد لهما من أن يتحدثا ، فقال : يا له من انتظار وأمل .. كنت دائم الفكر فيك ، وكنت أراك دائما » .

وأضاف بصوت أكثر دفئا ، خافتا : « أحيانا عندما كنت أتحدث ويذكر اسمك فجأة خلال هذا الحديث ، يشتاق اليك قلبى » .

« كم من مرات عديدة سرت على افريز المنزل لم أكن أعرف فى أى وجهة تقيمين ، لم أكن أتحمل البعد عنك ! » .

هى : حتى أنا ، دائما فى الليالى الحارة كنت أجلس الى النافذة أفكر فيك ، وأحيانا يكون الجو جميلا ، مماثلا للطقس الذى قضيت فيه مدة شهرين فى فندق « دى روز » وكانت تنحدر الدموع على خدى .

هو : كنت تبكين ؟

هى : نعم ، من الفرحة .

ثم تلاقت الشفاه الحمراء القاتمة فى قبلة ، يضمها هذا الهدوء الذى يخلق القبل ، ويجعل منهما نهرا وحيدا ومظلما من اللحم .

ابتعد عنها قليلا ليملأ عينيه بجمالها ، ثم ضمها اليه بشدة باحدى ذراعيه ، وهما جنبا الى جنب ، ثم وضع يده الأخرى على بطنها ، فرأيت تقاسيم بطنها وساقيها ، وهو يقول : « وهناك بين الحدائق العديدة على الساحل ، كنت أتخيلك ، وكنت أبحث عن عبير جسدك » .

هى : كنت أعلم انك تنتظرنى ، لانك تحبنى ، فكنت أراك دائما فى غيابك ، مع كل شعاع من أشعة الشمس يدخل من النافذة ، كنت أمد اليه رقبتى وأنا أفكر فيك وفى حبك .

فعندما كنت أخلو الى نفسى أحيانا عند المساء وأنا فى حجرتى ، كنت أعجب بنفسى وأنا أفكر فيك .

فابتسم وهو يختلج .

استمرا فى الحديث ، لا يعرفان سواه ، تستمع اليه بهدوء ، وفمها مفتوح قليلا ، ورأسها مائل الى الخلف .

« لقد كدرت ذكراك صفوى ، ولكنها كانت تؤنس وحدتى » .

لا أعرف من منهما قال هذه العبارة حيث كانا يقبلا بعضهما بوحشية كأنهما في صراع ، أو جمرتان متقدتان ووجهان مشتعلان ٠

« آه ٠٠ أريدك ٠٠ أريدك ٠٠ ففى ليالى السهد كنت أراك وأشتاق اليك وأتمناك ، وأفتح ذراعى أمام صورتك ، كأن وحدتى هذه قد صلبت « كونى لى يا آنا » ٠

كانت تريد ٠ كانت تريد ٠ كانت راضية ومبتهجة ومع ذلك ، فقد أبدت احترامها للغرفة ٠

فقالت وأنفاسها تلهث : « فلنحترم هذه الغرفة » ثم تملكها الخجل لرفضها ، وتمتمت فى الحال قائلة : « أعذرنى » ثم انسدل شعرها على جسدها وانسابت « الجونلة » من حولها ٠

وتوقف الرجل ، وهو فى أوج شهوته وهو يبدى احترامه للحجرة : « هل حدثت هنا الوفاة ؟ » فقالت وهى تهدهده كطفلة صغيرة : « لا » ٠

كانت هذه هى المرة الأولى التى لا يتحدث فيها عن نفسه ، وهى تطيعه فى كل مرة ، وتفعل ما يفعله هو لترضى رغبته كرجل ٠

ثم فجأة رأته نصف عاريا ، وتغير منظر جسده وصعد الدم الى وجهه ، وامتلأت عيناه بالأمل ٠

هى تحبه وتعبده وتريده ، وشحب لونها وظلت ساكنة بلا حراك ، حتى شعرت انها وقعت فريسة لقوة عليا تلهبها وأحيانا تثلجها ٠

ثم حملها بعد ذلك على السرير ، حمل هذه الفتاة العظيمة ، ورأيته وهو يفتح فخذيها ويبعدهما عن بعضهما وعورتها الحساسة الهشة وهى تفتح ، ثم ألقى بجسده فوقها ، و ٠٠٠٠٠

كنت أسمع دائما بين الحين والآخر بعض الكلمات وبعض العبارات التى تخرج منهما : « أحبك » ، مرة منها وأخرى منه ، ورأيت بعض الدماء تلطخ فخذيها وأحيانا تتناهى الى سمعى صيحات خافتة هامسة ، وأحيانا أخرى صيحات قوية تكاد تهدم أركان الحجرة وسمعتها كأنها تغنى وهى تقول له « آه ٠٠٠ أحبك ٠٠ أحبك ٠٠ عزيزى يا عزيزى الصغير » أو بصوت يكاد يكون محطما باكيا : « لحمك ٠٠ لحمك » وعبارات أخرى كثيرة لم أتمكن من تمييزها ٠

وبعد ذلك ، وكما هو الحال عند غيرهما دائما ، وكما يفعلان ويفعل غيرهما فى المستقبل المجهول ، نهضا متثاقلين وهما يقولان :

« ماذا فعلنا » ..

لا يعرفان ماذا فعلا ، وأخذا ينظران الى بعضهما وهما يتصببان عرقا ، ولما وقع بصرى عليها رأيتها قد تغيرت كثيرا ، وجهها قد تحطم ، ولم يتحدثا ثانية عن الحب ، ومع ذلك فكانا ينظران الى بعضهما بكبرياء وذلة .

وبالرغم من أنهما فردان متساويان ، الا أن المرأة كانت أكثر ارتباكا من الرجل وكان ما فعلته أعظم وأقوى مما فعله هو .

فكانت تضم ضيفها الى لحمها وتعتصره ، بينما ينتشر حولهما العهد الصادر من جسديهما .

الحب فى هذه المرة ، لم يكن هناك اغتصاب أو انتهاك ، ليس هناك سوى جسدين جميلين قويين لحيوانين شاحبين اقترنا ببعضهما ، وصيحات خفيفة وحركات دائبة .

فان كانا قد انتهكا ذكريات وفضائل ، انما يرجع ذلك الى قوة الحب التى تربط بينهما ، فهما بريئان من الجريمة ، ومن العمل القبيح، لا ندم ولا ألم ، بل انتصار ، لا يدريان ماذا فعلا ، ويعتقدان انهما قد ارتبطا ببعضهما .

بعد هذا جلسا الى طرف السرير ، وأخذ راحتها بين راحتيه ، وقال لها : « والآن أنت لى الى الأبد ، لقد منحتينى أقصى درجات اللذة المقدسة ، وتبادلنا قلوبنا ، وأصبحت زوجتى الى الأبد » .

فقالت : « أنت كل شىء لى » .

والتصقا ببعضهما أكثر ، فكيف لا يعرفان ما فعلاه ! ألا يعلمان ما يقولاه بعينيهما وشفتيهما اللتان لا يستخدمانها الا فى القبلات ، تملأ رأساهما عبارات الحب ؟

سيتألقان فى الشمس لا يعيان شيئا مما حولهما ، يغشى ضوء النهار عينيهما فلا يريان شيئا ، ولا يتعرضان الا الى صراع عواطفهما وغيرتهما ، لأن العاشقين ما هما الا عدوان أكثر منهما حبيبان ، ولن يشعرا الا بألم التمادى فى الرغبة ، عندما يحتضنهما فراش المساء .

هى دائما نفس المرأة تجلس فى الغرفة ، عارية بيضاء ، شاحبة ، رأسها منحنى وظهرها مقوس ، تبدو كأنها قنينة يسيل منها الدم .

حقا ، لم أشعر بمثل هذا الشعور من قبل ... الضعف البشرى ..

ولم يكن هذا مرضا ، بل جرح ، تضحية ... فهذه هي المرة الأولى التي تأخذني فيها الشفقة ؟

توقفت عن النظر ، وجلست واستندت الى مرفقي ، أين أنا الآن منهما ؟ من الواضح اني وليد ، فقدت وظيفتي ، وقريبا سأحتاج الى نقود ، كيف سأواجه الحياة ؟ لا أدري وسأبحث ولابد أن أجد .

لا داعي للحزن والقلق والحمى ، آه .. لو قضيت بقيـة حياتي في هدوء وسلام ، بعيدا ! بعيدا عن تلك الأشياء الخطيرة .

لابد أن أجد عملا من أجلك أنت يا شقيقتي .. من أجلك يا بني .. ومن أجلك يا زوجتي . فاذا نظرت الى مزايا الزوجات الأخريات فستعيشين بائسة .. سأعمل من أجلك ليل نهار ، لنعيش سعداء ، وسأكون خادمك المطيـع .

وأنت ستعملين في حجرتنا ، في فترة غيابي ولم يكن الى جوارك سوى ماكينة الخياطة تمارسين عليها العمل الجيد ، فالعمر طويل طول الحياة ، والأمومة ثقيلة كثقلها .

وعندما أعود الى الغرفة ، تستقبلينى وأنت تحملين المصـباح ثم تتحدثين عن نفسك وعن ذكريات طفولتك التي لن أفهمها ، لانك تحكيها لى دون تفصيلات تساعدني على ذلك ، ولكنى سأحب هذه اللهجة الحلوة التي تحدثينى بها .

وسنتجاذب أطراف الحديث عن أول طفل لنا ، فتخفضين رأسك ، ورقبتك البيضاء ، ونسمع سويا المهد الذي يهتز ، وعندما تتقدم بنـا السنون سنتحدث عن ذكريات الشباب .

وبعد هذه التأملات الحالمة لن نذهب بعيدا ، ففي المساء سنفكر في الليل ، وتستولى عليك فكرة سعيدة ، وحياتك الداخلية تصبح هانئة مستنيرة بنور قلبك .

فالعطف والمودة ، أعظم من الحب ، فأنا لا أميل الى هـذا الحب الجامح ، هنـاك كما هو عار ووحيد ، لا أحبه لانه قمة الأنانية ، ومع ذلك فان ارتباط أي اثنين دون حب يكون ارتباطا واهنا ضعيفا .

فلابد وأن يمتزج الحب بالمودة والعطف ، ويجب أن يحمل معه البساطة والتقرب .

همت على وجهى فى الشوارع يتلقفنى أحد هذه الشوارع ليقذف بى الى الآخر ، ويأخذنى ميدان ليسلمنى الى غيره ، وظل الحال بى هكذا ، حتى كدت أصطدم باحـدى السيدات التى دخلت الى أحـد المنازل ثم اختفت ٠٠ وأرى نوافذ مفتـوحة ، وأبواب مورربة ٠٠ استـبدت بى الأفكار ، وراودتنى الأحلام ، وأنا أسير فى الظلام ، وبينما أنا أسير الى جوار حائط لبدروم ، فاذا بى أسمع صوت موسيقى صادر عن عزف على البيانو ، فتوقفت واسترقت السمع قليلا ٠

شعرت بالتعب ، فجلست على أحد المقاعد فى الناحية الأخرى من الميدان ، وكان يجلس بالقرب منى على مقعد آخر رجلان يتحدثان ، أعتقد انهما صديقان حميمان ، يتشابه حالهما ، أحدهما يتحدث والآخر ينصت اليه ، والذى يتحدث هو المتزوج ٠

أيقنت من حديثه ان هناك مأساة غامضة ، فهما صديقان منذ نعومة أظفارهما ، متفاهمان ، ولهما نفس الأفكار ٠

يفضى اليه بحزنه الذى يكدر صفو حياته ، ويطعنه فى حبـه ، ويهدر حقه ٠ يقول أن زوجته لا تحبه ولا تبتسم له الا نادرا ، بينما هو يحبها الى درجة العبادة ٠

حقه ! كان يظن ان له حق عليها ، ولكنه أيقن أخيرا انه لا يتمتع بهذا الحق ٠

كان صديقه يجيبه ببعض العبارات وهو يبتسم ، ولم يمنع حديثهما هذا ، الليل من أن يحيط بهما ٠

ان الفراق هو المأساة الوحيدة التى نراها فى الحياة ٠٠٠ ويبدو ان التعساء غالبا ما يجتمعون مثنى مثنى ، فقد مر أمامى اثنان : رجل وامـرأة ٠

أحيانا يكون الانسان سعيدا ولكنه فى الوقت نفسه لا يشعر بهذه السعادة ، وهو على يقين من أن لحظة الفراق قد دنت ، وانه سيفقدها ٠

وآخران مرا أمامى ، هو يقول لها : « أتودين أن أسافر ؟ أتريدين أن أفعل هذا أو ذاك ؟ » ٠

وآخرون وآخرون غيرهم ، منهم من يتحدث ومنهم من يصغى ، ومنهم

من يبتهل ومنهم من يتضرع ، وما هى الا لحظات حتى ابتعدت عن هؤلاء المحبين ٠

سرت في طريقي تتنازعني الرغبة فى معرفة الحقيقة العارية ، فلست من هؤلاء ، ولكن كل ما أبغيه ، بل أمنيتي الوحيدة هي أن أعرف هذه الحقيقة : « الحاجة التى من أجلها نعيش ونموت ، وما اذا كنت وحيدا أم لا ، ورغبتى فى تملك حاجة الغير ، وما هو ليس فى ملكيتى ؟ » ٠

وأثنـاء مرورى على أحـد المحلات سمعت صوتا يصيح ويقول : « نعم ! لا ! » واستطلعت أمر هذا الصوت فاذا به ببغاء في قفص ، وصياحه هذا ما هو الا ضوضاء عمياء ، لقد لفتت هذه الصرخة انتباهى ، لانه لا ينتمى الى البشر ، بينما لم أهتم مطلقـا بأى صيحة تخـرج من فم بشر ٠

والآن ٠٠ سئمت كثرة التمنى ، وشعرت بأن السن قد تقدمت بى دفعة واحدة ، ولن أشفى مطلقا من هذه الجائحة التى تقطن فى صدرى ، أبتغى الهدوء الذى كان على قيد أنملة منى ، منذ قليل ، أتمناه الآن لانه بعيد عنى ، فطالما أن قلبى له تمنيات وأحلام تتجدد دائما ، فسأعيش هذا الهدوء ، وسأرنو الى غيره ٠

اننى أبحث عن حقيقـة ! هل هؤلاء الناس عنـدما يتحدثون عن أنفسهم ، يكون لحديثهم هذا صدى لما أفكر فيه ، أو صدى للخطأ أو الكذب ؟

وجن الليل وأنا أبحث عن كلمة ، تماثل كلماتى ، تكون لى سندا ودعما ، ولكن يبدو اننى أنتظر أحدا ليقول لى أى شىء ٠

ليست لى رغبة هذه الليلة فى أن أعود الى حجرتى وأشعر برغبتى فى البقاء بين هذه الجموع ، أبحث عن مكان تدب فيه الحياة ٠

دخلت أحد المطاعم حتى أحس بأن حولى أصوات كثيرة ، وتلقفتنى مئات من الأصوات العديدة والألوان المختلفة ، وأصناف العطور ، والملابس الأنيقة ، والسجاد الفاخر الأحمر ، والمصابيح فى كل مكان فضية وذهبية ، و « أباجورات » على كل منضدة طعام يتجمع حولها الزائرون للعشاء ٠

جلست مشدوها ومأخوذا بالجو المحيط بى ، حيث اتخذت مكانى بالقرب من منضدة يتجمع حولها ثلاث مدعوين ، فقد تعودت عيناى على الظلام ، والأجواء الظليلة ، فحاولت أن أتكيف مع هذا الجو ٠

طلبت العشاء ، وأحببت أن أتسلى بما حولى من وجوه ، وكان من

الصعب أن أحقق ذلك ... فالجميع حول مناضدهم زرافات ، أو جماعات صغيرة تتكون من اثنين أو ثلاثة ، هـذا فضلا عما يجد وينضم اليهم من الزائرين .

وكان أول ما جذبني ، هو جمال النساء ، وجوههن البيضاء الجميلة، وأشكال شفاههن كالقلوب ، على انه اذا ما اقتربن ، فسرعان ما يزول هذا الجمال وتتكشف أخطائهن التى تمحو هذا الجمال .. وأرى الرجال حليقين ، وعلى أحدث ما ظهر من أزياء رجالى ، كالقبعات العريضة والمعاطف ذات الأكتاف الساقطة قليلا .

وبحركة آلية كانت عيناى تتابعان المضيف وهو يضع طعامى أمامى، يلبس قفازا أبيض ، وأذناى تتابعان ما يدور حولى .

لم أسمع سوى الأصدقاء الثلاثة الجالسين ، ومجرى حديثهم عن أصدقاء يعرفونهم ، فتارة يتحدثون حديثا عاديا ، وتارة أخرى تغلب السخرية على تعليقاتهم ، لا شىء فى حديثهم له أهمية ، وأخشى أن تمر الليلة كالليلة الماضية دون أحداث الها أهمية .

بعد قليل ، تقدم منى مدير الفندق ، وأشار لى بطرف عينيه الى أحد المدعوين وقال لى : « هذا هو الكاتب المعروف « مسيو فيليه » . قالها بشىء من الفخر والزهو .

حقيقة انه الكاتب ، فهو يشبه الى حد قريب صوره التى تنشر فى الصحف .

تقت الى هذا الرجل ، هذا الرجل الذى يستطيع أن يقول ويكتب ما يدور بخلده ، كان وسيما ذو شارب ومهندما .

ولما هممت بأن أرشف رشفة من كوبى ، توقفت فجأة عندما سمعت هذه العبارة : « ما موضوع قصتك القادمة ؟ » .

وأجاب « مسيو فيلييه » : عن الحقيقة .

الصديق : آه .

الكاتب : ستكون مفاجأة .

الصديق : (مستفهما) ما هو الموضوع ؟

كان الجميع وقتئذ آذان صاغية ، والعيون تحولت اليه ، ومن بين هؤلاء رجل يأخذ ركنا من الأركان ، ويدخن سيجارا غليظا . وقال (فيليه) : « هذا هو الموضوع سيكون مسليا وحقيقيا فى وقت واحد ،

رجل يحدث فجوة في حائط غرفة بفندق ويتابع ما يجرى فى الغرفة الأخرى من أحداث » ٠

وفى الحال رمقت المتحدثين بنظرة سريعة ، وخفضت رأسى بسذاجة كالأطفال عندما يريدون الاختفاء ٠

كأنهم يتحدثون عني ، وكأن الجو الذى يحيط بى جوا بوليسيا ، وما هى الا لحظات حتى زال عنى هذا الشعور الذى شل بديهتى ، فبدون شك هذا بمحض الصدفة ٠

استطردوا الحديث عن هذه الفكرة المطروحة وأنا معهم أتابع حديثهم دون أن يفطن أحد الى ذلك ٠

طلب اليه أحد أصدقائه أن يحدثهم بالتفصيل عن هذه القصة ، وافق ٠٠٠ وسيقول هذا أمامى ٠

أخذ الكاتب يسرد أحداث قصته بفن عظيم ، وأسلوب جذاب ، ومشاهد مضحكة مسلية ، تبرهن على فكر خصيب وذوق سليم ، وكان رد الفعل يبدو واضحا على وجوه المستمعين : « آه » « أوه » « عظيم ! هائل ! نجاح أكيد لموضوع حقا مسلى وحقيقى » ٠

اعترانى نوع من الخجل ، الى درجة اننى كنت أفهم ان هذا الرجل يبحث عن الهزل من خلال المغامرة المشئومة التى كنت أنا شهيدها منذ شهر واحد ٠

تذكرت فى الحال الصوت الضخم الذى انطفأ الآن والذى كان يصرخ بلهجة حادة وقوية ، بأن الكتاب المعاصرين يقلدون الرسامين الهزليين (الكاريكاتيريست) ، أما أنا الذى تغلغلت فى نفوس البشر فلا أجد شيئا من الانسانية فى الكاريكاتير ، فهو سطحى وغير حقيقى !

قال : ما أريد أن تراه هو الانسان المجرد من المظاهر وآخر من التأملات ، وآخر من الحقيقة ٠

ـ هذا له مغزى فلسفى ٠

ـ ربما ، وعلى كل حال لم أهدف اليه والحمد لله فأنا كاتب ، ولست مفكرا ! » ٠

واستمر فى سرد الحقيقة دون أن أستطيع أى شىء حياله ٠٠ الحقيقة ! هذا الشىء العميق الذى أحس ظلاله فى عينى ، ومذاقه فى فمى ، وصوته فى أذنى ٠

انصرفت من المطعم ، ودخلت أحد المسارح حيث تعرض مسرحيــة « حق القلب » وكان لها صدى عظيما ونجاحا ينادينى ويغرينى ·

جلست فى مقعدى ، ورفع الستار ، وبدأ المشهد الذى ينتظره الجميع ·

شاهدت المشهد ، لا فرق بينه وبين ما أراه فى الغرفة ، أنظر وأسمع وأسجل كل كلمة تقال ·

تدور أحداث هذه المسرحية عن شاب فنان ونحات يدعى «جان دارس»، جاء من روما تصحبه أحلامه المرمرية ، يستضيفه الممول ، « لويفيس » ، وفى الصالون المذهب ، كانت الجموع تتسابق وتتسامر ، وأعضاء من الهيئة ، بأربطة العنق يبدون كرؤساء جوقة الشرف الجميع كانوا يناقشون فى أمور مختلفة ، ولما جاء الحديث عن صاحب المنزل انخفضت الأصوات: « هل تعرفون ان الكونت « لويفيس » سيكون من النبلاء ، هذا لما أداه من خدمات جليلة « للبابا » فى هذه الظروف المضطربة ·

دار الحديث شيقا بين المدعوين وطرق جميع المجالات من جد وهزل، فتارة يتحدثون عن أشخاص مشهورين ، وتارة أخرى عن أنباء وأحداث لها أهميتها ، أخبار اجتماعية عن زواج وطلاق ووفاة وميراث ، ومنهم من يعلق على العشاء الذى يتناوله ، وآخرون يتناولون الشعر والشعراء مادة لحديثهم ويسمون الشاعر « قيثارة الحياة » ، بينما هو شاعر بعينه اسمه الحقيقى « فرانسوا كوبلييه » ، ومن الأبطال الذين قاموا بأدوار مسرحية الكاتب الشهير « كورنى » وهى « السيد » ، وعن زواج هؤلاء الممثـلون من بعضهم ، وكم أن تفـاوت الطبقـات بين الزوجين له عاقبة وخيمــــة ·

وعلى اثر عبارة قيلت على لسان أحد الممثلين عند حديثهم عن فتاة لها قدرها « نأمل أن يكون هذا والدها » ، دارت الهمهمة والتمتمة بين المتفرجين فى الصالة ·

انتهى الفصل الأول بأحداثه عن مغامرات « جان دارس » العاطفية ، مع الجميلة « جانيت دى فلورانج » ، استطعت وأنا أستمع للتعليقات من حولى ، أن ألتقط هذه الكلمات : « كلمات ! كلمات ! لا شىء سوى كلمات » قالها أحد المتفرجين ، بشىء من الانفعال ·

بدأ الفصل الثانى وكان مشابها للأول مع بعض الاختلاف فى الحركة والتنوع ويتبع نفس الطريقة : كلمـات وعبارات تتناثر هنا وهناك ، والممثلون لا يجيدون التمثيل ، حتى يمكنهم أن يقدموا لنا حقائق ·

وبانتهاء الفصل الثانى ، بدأ الفصل الثالث وفى هذا الفصل ، تتساءل البطلة « جانيت دى فلورانج » ، عما اذا كان من حقها أن تربط مصيرها بمصير هذا الشاب الفنان الذى تحبه ؟ وبعد صراع نفسى تتخلله الغيرة استقرت على أنه ليس هذا من حقها ، وعملت على أن تبعـد عنها « جان دارس » الى الأبد ، بعد أن تجعله يعتقد أنها تميل الى شخص آخر هو « جاك دى لينيير » ٠

ولما علم « جان دارس » بذلك اشتد احتقاره لتلك التى كان يقدسها ويعتبرها ملاكا ، ويتزوج من « راشيل لويفيس » التى كانت تحبه دون أن تبوح بذلك لأحد ، وانتصر حق الحياة على حق القلب ٠

وبانتهاء المسرحية أسدل الستار ، ودارت المناقشات حول هـذه التضحية ، ثم بررت بالخيانة البطولية ، وكان رد الفعل عنـد البعض أما مع أو ضـد هذه النهاية ٠ كان من بين من شاهدوا هذه المسرحيـة كاتب مسرحى آخر يدعى « بيير كوربيير » وله فى الوقت نفسه مسرحية تعرض تحت اسم : « الخط المتعرج » ٠

سرت فى الطـريق ، لا أحـد سواى أنا والسماء ، السماء التى استوعبت كثيرا من الكلمات والعبارات التافهة ، سيتعفن ما رأيته منذ قليل بالرغم من أنه يناسب الوقت والزمن لئلا يبطل أو يهجر غدا ٠

أين الكتاب الذين لمعوا خلال هذه السنوات الأخيرة ؟ فأسماؤهم تطفو ولكن على أى شىء ، لست أدرى ! تعلمت التمييز بين الخطأ وبين الظلم ، وذلك لاتصالى بالواقع ومشاهدتى للحقيقة ، فأصبحت أمقت أى نوع من أنواع اللهو ، لأنه يشوه معنى الفن ، ولا نجاح لمثل هذا النوع ولا شك !

أما الحماس الذى تقابل به هذه المسرحيات فى بادىء الأمر فلا يلبث أن يتلاشى ، وأتمنى أن توأد مثل هذه المسرحيات قبل أن تولد ٠

عدت الى الغرفة ، وجدتها مضيئة سابحة فى ضوء القمر ، ورأيت رجل وامرأة هادئين ، يعلو وجهيهما ضوء القمر فيزيدهما وضـوحا ، والنار منطفئة ، والساعة ساكنة ٠

المرأة قابعة عند قدمى الرجل ، كتمثالين ، يتأملان القمر ٠

فلما تحدث الرجل ، عرفت صوته ، صوت الشاعر والعاشق ، ولكن لا أعرف اسمه ، فقد سمعته مرتين من قبل ٠

كان يتحدث الى صديقته ، ويقول لها : عند عودتى ، قابلت امرأة مسـكينة تحمل طفلها على ذراعيها تندفع وتزاحم وسـط المارة الذين

يحيطونها من كل جانب ، وألقت بنفسها تحت رواق من الأشجار تشبه صخور البحر ·· توقفت وهي ضائقة النفس ··

« واقتربت فرأيتها تبتسم » ·

« ترى الى من تبتسم ، أللحياة ؟ أم لطفلها ؟ وهي في هذا المأوى تفكر في طفلها ، ونموه ، وتفتحه في المستقبل ، تحيطها الشمس الغاربة من كل ناحية ، تحميه من بعض المخاوف التي يتعرض لها ، ملازمة له ، كتنفسه ونظراته وخطواته · « ··· نعم مهما كانت الابتسامة العميقة لهذه المخلوقة ، فهي تحمل وزرها ، وترفع رأسها ، وتجابه الضوء دون أن تهتز أهدابها ، ودون أن تنظر الى طفلها ، أو تستسلم لحديث أحمق متلعثم » ثم صمت لحظة وعاد فقال بصوت هادىء عذب عميق : « تبتسم للمســاء وهي جالســة في هــذه الظلال ، تنحسر عنها ملابسها البالية الممزقة ، كما نحسر الماء عن شاطيء البحر ··· صامتة كالأمواج الهادئة تتألق في ابتسامتها كالنجم ، كمن يتضرع اليها الناس ··· دون تفكير جاءت الى هذا المأوى تحمل طفلها بين ذراعيها دون ضجر أو سأم ، في قلبها لمسة مقدسة ، ها هي هنا لا شيء يحميها ولكنها مع ذلك تبادر بالابتسام فهي تحب السماء ··· والنور ·· النور الذي يسحبه طفلها فيما بعد ·· وتحب السحر الذي يميل الى البرودة ، وحرارة الظهيرة ، والليل الحالم ·

سيأتي اليوم الذي يترعرع فيه هذا المنقذ ليعيش ، هذا الطفل الذي لم يتفتح بعد ، والذي يرتعد في أعماق الطريق ، سيبدأ حياته ·

هو الجنة الوحيدة التي ستكون هنــاك ، هو باقة من الطبيعة ، سيضفي على الجمال جمالا وروعة وبهاء ، وبابتسامته وشدوه سيواسي السرمدية ، « في هذا المساء ، تضم طفلها الوليد الى صدرها ·· وقد أضفى عليها الليل لونا ذهبيا ··· وصبغ عينيها لونا ورديا ، فكانت هي كوردة كبيرة تتفتح وتتمايل من أجل الجميع ·· تحلم بكلمات حلوة مدللة ·· تشد المارة اذا التفتوا اليها » ·

لشد ما كان اعجابي بكلامه ، ولشد ما تأثرت بأسلوبه ، لقد كانت كلماته كاللؤلؤ المنثور في الظلام ، كلام جميل وموزون ومقفى ، كالحنان الذي يبحث في الظلام عن الحنان ! ··

فهو يعبر عن خلجات نفسه ، وخفقات قلبه ، بموسيقى كلامه التي لا تضاهى ·

كأنه يعيش في عالم آخر ، عالم لا تقال فيه سوى الحقيقة ·

وأما المرأة التى كانت معه فقد اكتفت بالجلوس عند ركبتيه ، وهى تستمع اليه ٠

استرسل فى عذب حديثه قائلا : « ولكن ابتسامتها هذه لا تنطوى فقط على اعجابها بالمستقبل وتمنياتها فيه ، بل هناك أيضـا شيء من المأساوية أحسسته بعمق فهى تعبد الحيـاة ، ولكنها تبغض النـاس ، وتخشاهم بسبب الطفل دائما ٠٠ فهل تجادل الناس به ، وبابتسامته تتحداهم وكأنها تقول لهم : سيعيش ويترعرع رغما عنكم ، وسيخضعكم ، امااليستغلكم واما ليعيش محبوبا ، وهو الآن بين يدى ، بين براثنى ، يتحداكم ، ويزدريكم ولا يبالى بكم ٠

« كانت قاسية ، كنت أحسبها ملاكا رحيما ، فوجدتها ملاك حقد وضغينة عديمة الشفقة : « نوع من الكراهية لهؤلاء الذين سيتعرضون له بالسب ، ويسببون له الانقباض أو يرفعون من قدر الأمومة التى هى فوق البشر ، وقلبها الدامى لا يملأه سوى قلب واحد ، القلب الذى يدرك الشر قبل وقوعه ، والذى يمقت الناس ويرى فيهم ، ملاكا هداما ، كالمد والجزر ، الأم ذات المخالب المخيفـة ، ترفع هامتها وهى تبتسـم بفمها الممزق » ٠

تحت ضوء القمر كانت « ايميه » تنظر الى حبيبها بنظرات كأنها تغوص الى الأعماق ، مع كلماته ٠

وواصل كلامه الحلو فقال : « وانتهت من الحديث عن عظمة اللعنة الانسانية ، مثل كل ما فعلته من قبل ، وما سأفعله على وتيرة واحدة مع هؤلاء الذين هم على حق ٠٠٠ « أوه ! فبدون الله ، وبدون موسى ، وبدون ما نستتر به أنفسنا ، ليس لنا الا الابتسامة الثائرة ، والوقوف على أرض الأموات ٠٠ والا الثورة فى سبيل الحياة فى أعياد ٠٠ دامية ٠٠ نحن فقط ، تتسلط علينا السماء ! » ٠

ما هذا الذى أسمع ؟! « السماء تتسلط علينا » ان هذه العبارة أعظم صيحة ألقت بها الحياة ، انها صيحة الخلاص التى طالما بحثت عنها ، وكنت فى حاجة ملحة اليها ، كنت فى أمس الحاجة لأن تقال هذه العبارة، حتى تجمع بين العظمة والشقاء ، وحتى تكون مفتاحا للقبو السمائى ٠٠ وأرى أن العالم قد عاد الى فكرة الانسانية ٠

تلك السماء ، تعنى الزرقة التى تلتقى بأبصـارنا ، والآخرة التى لا نراها الا فى أذهاننا ، السماء أى : الصـفاء والنقـاء واللا محدود ، وللمبتهلين سماء الحقيقة وسماء الدين ، فكل ما بداخلنا ، هكذا يتسلط علينـا ٠

والله ، الذى هو كل هذه السموات ، فى وقت واحد ، يتسلط علينا كظاهرة من الظواهر الطبيعية ، وكذلك لا محدودة هو لا محدودنا ٠

فيجب علينا أن نقدر ما بأنفسنا من نوازع وابتسامات ، وشعور بالوحدة وما تأتيه قلوبنا من أعمال غير مجدية ، أن نقدر هـذا بشىء من الاخلاص ٠

فهذا الشعور هو عزاؤنا الوحيد لكل ما يشغلنا وهو الذى يضفى على جباهنا الصلاح ، وتسمو أرواحنا ويتزين كبرياؤنا ، فللحقيقة نفسها سجية دينية ، ومن يبتهل تتفتح له السموات ٠

هكذا أشار فى حديثه الى أننا نتمتع بصفة الهيئة وأن الجميع يشتركون فى العناصر العميقة ٠ فالأخلاق والطباع تختلف عن بعضها البعض كقسمات الوجه ، وذلك تحت تأثير الظروف المتعددة والمتباينة ٠ ولكن فى الواقع هناك تشابه عارى مثله كمثل شحوب الجماجم ٠ فالعمل الفنى نفسه ، يعتبر بدعة أو الحادا اذا ما حاول أن يقارب بين وجهين تمام التقارب ٠

وقال الرجل فى هذا الصدد « لذلك فان قصيدة الحياة العظيمة ، لم تنظم من الألوان المحلية ، ولم تؤخذ من شواهد اجتماعية ، أو من المشافهات المسلية ، أو من دسائس حاذقة ، وانما ينظمها سر المخلوقات الأزلى المخيف والممزق ، حيث تمحو الوحدة مكانهم وزمنهم حيث عاشوا أو مروا » ٠

بعد ذلك تناول الحديث موضوع الشعر ، فيثبت أن ما يعطى للقصيدة قيمة وروعة ، انما هى الحركة أى الطريقة التى ينتهى بها كل مقطع ، حيث تشير بداية كل حملة الى الحقيقة وأن الصعوبة فى القصيدة، انما هى ناتجة عن ضرورة اشتمال القصيدة على وحدة الشعور ، فتفكك المعنى وعدم اختيار الكلمات يفقد القصيدة معناها وبالتالى يفقدها قيمتها ٠

كل هذا و « ايميه » تصغى اليه فى هدوء تام ، وقالت له موافقة على كلامه : « نعم » ٠٠٠ بصوت خافت كله رقة ونعومة ، والم تتفوه بعد ذلك بكلمة وراحت فى سبات عميق وهى مستندة الى ركبتيه ٠

ناداها بصوت خافت : « ايميه » ، فلم تتحرك كانت نائمة ، رأسها على ركبتيه ، فأيقن أنه وحيد ، نظر اليها وهو يبتسم ، ولاحت على وجهه أمارات الطيبة والشفقة وربت بيده فى حنان على رأسها ، فلفت نظرى شيئان وجها لوجه أمامى : الكبرياء الممزوج بالعظمة والحنان والكرم ، والمرأة الساجدة أمامه كأنها تقدسه ٠

١٦

منحت نفسى عطلة وسأرحل غدا حاملا معى ذخيرة من الذكريات التى حصلت عليها ، فمهما تكن الأحداث والمآسى التى يدخرها لى المستقبل ، فسأعيش حياتى بأثقالها ٠

حاولت فى هذا اليوم ، وهو اليوم الأخير ، أن أعاود الكرة وأنظر ، ولكنى لم أستطع ، فقد كان جسدى يؤلمنى ، بل كان هو الألم ، ذاته ، حاولت جاهدا أن أقف على قدمى وألتصق بالحائط ، فخارت قواى وهويت على السرير ، ومن فرط اعيائى لم أتمكن من أن أفتح عينى ، بل كانت تغمض دون ارادة منى ، وامتلأت بالدموع ، دموع الاجهاد والتعب ٠

وتناهى الى سمعى صوت من خلال الحائط ، من الغرفة المجاورة ، كرنين أصوات من بعيد تعبر الحائط بصعوبة ٠

ومن الآن فصاعدا ، لن يصبح فى مقدورى أن أنظر أو أسمع ، ما يجرى داخل الغرفة ٠ أنا الذى لم يبك مطلقا وهو صغير ، فقد بكيت الآن ، وأنا كبير بكيت كطفل صغير !

بكيت على ما سأفقده بعد ذلك ، بكيت الجمال والعظمة المفقودة ٠٠ فأنا أحب كل ما هو لى ٠

ستموج الغرفة ثانيـة بسجنائها ، سيجلسون بجـوار النـور ، ويتطلعون الى السماء من النافذة ، وسيتبادلون النظرات الأولى أو الأخيرة، سيفتحون أذرعتهم ، ويسلمون أنفسهم لمن يحبون ، سيتعلقون بالحياة ، وسيخشون نهايتها ، وسيبحثون هنا على الأرض عن ارتباط كامل بين القلوب ، بينما سيبحثـون فى السماء عن البقـاء بين السراب واله فى السحاب ٠

أصبحت مثل هؤلاء الذين يشغلون أى غرفة ، لا أسمع الا تمتمة بعيدة لما يجرى خلف الحائط ، وكأول مرة جئت فيها الى هنا شعرت بأنى ضائع ، منذ أن أصبحت فى هذه الغرفة ، وقبل أن يتغير مصيرى ٠

فربما بسبب الحمى التى تنتابنى ، يخيل الى أنى أسمع قصيدة تقال ، أو يتغنى بها أحد ، أو كأن أحدا يتحدث عن « بروميثيه » الذى سرق قبسا من الشمس (الآلهة) فكان يشعر بآلام فى أحشائه كلما جن الليل ، وعندما يحط عليه الريح كما يحط على عشه ، والرغبة هى التى تجعلنا نصدق هذا ، بينما فى الواقع لا وجود للرخ أو للآلهة ٠

فلا وجود للجنة الا تلك التى نراها فى مقبرة الكنيسة الكبيرة ، ولا وجود للجحيم الا فى الخوف من الحياة ، ولا وجود للنار الخفية ، لقد سرقت كل الحقيقة ، رأيت كثيرا من الأمور المختلفة ، الصافية منها والمأساوية وكنت على حق ، ورأيت الصادق منها والمهين ، وكنت أيضا على حق ، وبهذا تبوأت عرش الحقيقة ، اذا كان فى مقدورنا ، دون أن نلوث الحقيقة ، أن نستعمل الأسلوب ، الذى يستخدمه الكاذب والمنافق ٠

من صنع كتاب الرغبة الانسانية ، الكتاب المريع والبسيط ؟ يدفعنا عن الحياة الى الحياة ، وعن حركاتنا ووجهتنا ، وعن خطيئتنا الأصلية ٠ من ستواتيه الجرأة على أن يقول كل شىء ! ومن ستسعفه عبقريته على أن يفهم ويعى كل شىء ؟!

اننى مؤمن بالعقيدة الشعرية العظيمة ، حيث يمتزج الجمال بالمعتقدات وأكثر من ذلك ، فأشعر بقصورى حيالها ، بل وأصدق امكانية تحقيقها ٠

فأحيانا كانت رؤيتى للأشياء ، تخالطها زفرة من الحقيقة قوية وخلاقة ، تكاد الغرفة كلها تهتز منها ، حتى كان الهدوء نفسه يصيح فى بعض الأوقات !

ولكننى لم أعز كل هذا ، بل سرقته مغتنما الفرصة بفضل تخلى الحقيقة عن حيائها ٠

وعليه ، فسيختفى كل شىء رأيته ، طالما أنى لم أستعمله فى شىء ، فكان حالى كحال الأم التى لم تحسن استعمال اللحم حتى فسد ٠

مهما كان الأمر ! فانى قد بشرت بما سيكون أكثر جمالا ، واخترقت العبارة نفسى ، ووصلت الكلمة الى أعماقى ، الكلمة التى لا تكذب ، والتى ستشبع رغبتى ٠

انتهيت وتمددت على فراشى ، وانقطعت عن النظر ، واندملت عيناى المسكينتان كجرح قد شفى ، والآن ما على الا أن أحتفظ بهذه الذكريات ، هذه المأساة التى عشتها مع الغرفة ٠

أعتقد أنه لا يوجد سوى السراب الذى يجيب على نداءات العقل والقلب الانسانى ، تلك النداءات التى لا تغضب ٠

كما أعتقد أنه لا توجد حولنا ، سوى كلمة واحدة كبيرة وشاسعة ، هى التى تطلق العنان لوحدتنا ، وتكشف عن نورنا ، هذه الكلمة هى :

لا شيء • وهى ـ كما يبـدو لى ـ لا تعنى انعدامنا أو شقاءنا ، بل على العكس ، طالما أن كل شيء موجود بداخلنا ، فهى تعنى تأليهنا وتثبيت وجـودنا •

تمت الترجمة بعون الله تعالى

●● كتب أخرى .. للمترجم

● صــــدرت :

مهاجر بريسبان	مسرحية جورج شحاتة دار المعارف ١٩٦٩
الآلة الجهنمية	مسرحية جان كوكتو الأنجلو ١٩٦٩
انفعــــالات	قصص ناتالى ساروت هيئة الكتاب ١٩٧١
دقات المسرح	دراسات ونقد تطبيقى هيئة الكتاب ١٩٧٣
ليــلة القتلة	مسرحية خوذيه تريبيانا هيئة الكتاب ١٩٨٠
كهف الحــكيم	دراسة عن أهل الكهف دار المعارف ١٩٨٠
شباب هذا العصر	رؤى ودراسات غربية المركز الجامعى ١٩٨٠
صرخات فوق المسرح	رؤى ودراسات غربية دار المعارف ١٩٨٠

جرنيكا ٠٠ أزمة العصر — رؤى ودراسات غربية
دار المعارف ١٩٨١

سينما نعم ٠٠ سينما لا — رؤى ودراسات غربية
هيئة الكتاب ١٩٨٢

دون كيشوت — مسرحية ايف جامياك
هيئة الكتاب ١٩٨٦

هؤلاء المفكرون — دراسات عربية وغربية
الثقافة الجماهيرية ١٩٨٦

نبض العصر — دراسات ونقد تطبيقى
١٩٨٦

● تصـــدر :

رسائل من مصر — نينيه والثورة العرابية

الانسان ٠٠ كلمة — دراسات عربية وغربية

فصل فى الكونغو — مسرحية ايميه سيزير

جان كوكتو — حيـــاته وأعمـــاله

ألوان العصر — دراسات تشكيلية وأشعار

عصر الشك — دراسة لناتالى ساروت

المضيفة الحسناء — مسرحية كارلو جولدونى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتــاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٦/٧٨٨٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٢٣٤ ـ ٨

لكم تمنى القارىء العربى ــ أديباً ومثقفاً ــ أن يقرأ الترجمة العربية لهذه الرواية « الجحيم » للكاتب الفرنسى ابن القرن الماضى « هنرى باربوس » .. لما فيها من جرأة فى التناول وجدة فى الأسلوب ..

فالكاتب ، الذى هو البطل ، يطل من فجوة فى حائط غرفته بأحد الفنادق ، كما يطل من أعماق ذاته على أبطال الغرفة المجاورة المتغيرين والمتنوعين ، يتابع بشغف ما يجرى من أحداث ، لينقل بأمانة صوراً من الحياة ويصف بدقة المشاعر التى تربط بين البشر ، متخطياً الجزئى إلى الكلى والخاص إلى العام ، متجاوزاً الوجود إلى العدم ، مستعيناً بالعلم والأدب ، مستثمراً الفطرة والفطنة ، مستشفاً الإحساس والحدس ، بحثاً عن الحقيقة ، حقيقة الحياة وحقيقة الكون ، نشداناً للراحة والخلاص ، راحة الضمير وخلاص النفس ..

وهاهى الترجمة ترى النور ، فلعلها تحقق الأمنيات ، وتضيف إلى المكتبة العربية كتاباً جديراً بالقراءة .

٣٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب